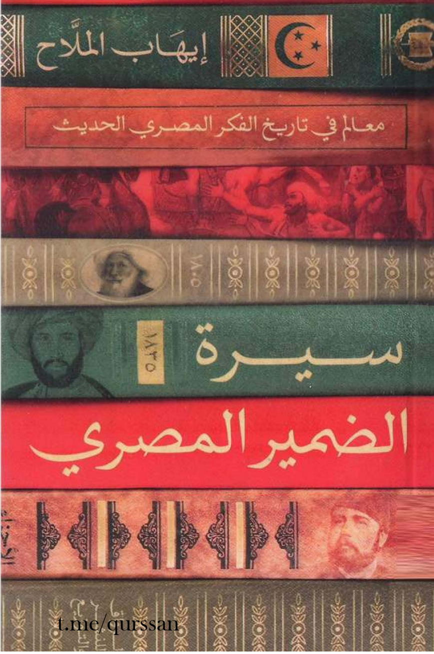
إيهاب الملاح
معالم في تاريخ الفكر المصري الحديث
سيرة
الضمير المصري

t.me/qurssan

سيـــرة
الضمير المصري

معالم في تاريخ الفكر المصري الحديث

إيهَاب الملَّاح

t.me/qurssan

t.me/qurssan

إهداء

إلى أبي.. لولاكَ ما تعلمتُ، وما قرأتُ، وما صرتُ إلى ما أنا عليه!
بفطرتكَ هديتني إلى حب مصر المعنى والقيمة... حبها يتجاوز
الشعارات والطَّنْطَنَة الفارغة والادِّعاء الأجوف!
أن تعرفَ ماضيها، لتفقهَ حاضرها، وتستشرف مستقبلها.. هديتني،
وقلت لي «يكفيني أنك ستسعى لتعرف»...
إن كان يرضيك فاعلم أنك سببه وأصله ومَردّه كله إليك...
وإن لم يكن.. فما تمنيتُ سوى رضاك...

إيهاب

t.me/qurssan

t.me/qurssan

استهلال

«أيها الرسول نحن لا نعجل بالشر، ولكن إذا تحرش بشرفنا متحرش؛ لا ننكص على أعقابنا ولا نؤثر السلامة، ومن فضائلنا ألَّا نغالي في تقدير قوتنا، فلا تنتظر أن تسمع مني مباهاة وفخرًا. ولكن اعلم أن آبائي وأجدادي حافظوا ما وسعهم الجهد على استقلال هذه المملكة. ولن أفرِّط أنا فيما عاهدوا الرب والناس على المحافظة عليه..».

(رواية «كفاح طيبة».. نجيب محفوظ)

«إنه في أرضِ مصر.. مصر التي يحفظ لها أجمل الذكريات، وأفتن الصور وأبهج الآثار... إنه يودُّ لو يُترك وحيدًا فيملأ صدره من نسيمها العليل، ويمرغ خديه بثراها.. إنه في أرض مصر...».

(رواية «كفاح طيبة».. نجيب محفوظ)

«إن التاريخ ليس شيئًا يُكتب مرة واحدة، بل هو مادة تُكتب مئات المرات».

(المرحوم أحمد بهاء الدين)

t.me/qurssan

t.me/qurssan

مدخل

(١)

كنت في الثانية عشرة من عمري حينما وقع في يدي كتاب بعنوان «مصر القديمة»؛ كتاب صغير الحجم يقع في أقل من مائة صفحة من القطع الصغير، بتوقيع نجيب محفوظ! لم يكن قد مضى على حصوله على جائزة نوبل سوى سنوات قليلة، لم يكن الرجل في حاجة إلى شهرة (وقد حاز منها ما يفيض طوال عمره)، ولم يكن ينقصه مال (كان لديه ما يكفيه ويؤمِّن مستقبل أسرته حتى بعد موته). كان قد تجاوز الثمانين بقليل، ومع ذلك كان حضوره وأَلَقُه في غاية النشاط والشباب والتألُّق!

قرأت «مصر القديمة» في جلسة واحدة طويلة؛ انتهيتُ منه وأنا مبهور الأنفاس، أحلّق بخيالي في هذه المشاهد الساحرة عن مصر العامرة بالحضارة والعمران والفن والآثار والمعابد والمسلّات؛ مصر التي روَّضت النيل وعبدته، ومهدت الأرض وزرعتها، وبنَت الأهرامات، واستأنست الحيوانات، وقدّمت للدنيا كلها، وقبل التاريخ بتاريخ، معنى الإنسانية، ومعنى الحضارة، ومعنى الخلود!

لم أكن أمسك بهذه المعاني حينها بهذا الوضوح، لكنني كنت متشبعًا بها وممتلئًا حتى النخاع بحضورها، سكنتني من وقتها روح مصر الحضارة

t.me/qurssan

والثقافة والتمدن، مصر التي برع نجيب محفوظ في الإمساك بجوهر شخصيتها وسر عبقريتها وديمومتها وخلودها!

وكان الانتقال من كتاب مصر القديمة (الذي كان في الأصل ترجمة عن كتاب الأثري الشهير جيمس بيكي) إلى رواياته الثلاث الفرعونية «عبث الأقدار»، «رادوبيس»، و«كفاح طيبة»، وفتنني الرجل والله!

فتنني بقدرته الفذة على التصوير، وعلى تجييش المشاعر وعلى التأثير النافذ؛ إنك لا تملك بعد الفراغ من هذه الروايات إلا أن تَسقط في عشق وغرام هذا البلد الذي اسمه مصر!

ومنذ تعرفت على أعماله ـ وأنا في الثانية عشرة من عمري تقريبًا ـ وأنا أسْبَح وأدور في أفلاك ومدارات محفوظ المدهشة إلى الآن، ولا أحسبني مفارقًا إياها ما حييت.

نعم. أحببت القراءة حبًا جمًّا، وشُغفت بها شغفًا مجنونًا، لكني لم أخالطها مخالطة الدم للجسد، والنفس للروح إلا بعد أن خطوت خطواتي الأولى المباركة في عالمه وفضاء رواياته التاريخية الثلاث «عبث الأقدار»، «رادوبيس»، و«كفاح طيبة».

وبدأت رحلتي الممتدة والمستمرة ـ إلى الآن ـ مع الأدب بكل أنواعه وأجناسه وأشكاله، ومع الرواية على وجه الخصوص، ومع قصة الحضارة والنور والجمال التي بدأت في مصر، وانطلقت منها إلى ربوع الدنيا!

عندما قرأتُ أول رواية لنجيب محفوظ وقعت تحت يدي، وهي رواية «كفاح طيبة» ـ لا أذكر عدد المرات التي عاودتُ فيها قراءتها،

t.me/qurssan

ربما تسع أو عشر مرات أو أكثر، لا أذكر ـ عندما قرأتُها أدركت معنى ما قاله قديمًا أحد النقاد البارزين آنذاك عن الرواية، وعن صاحبها:

«لو كان لي من الأمر شيء، لجعلت هذه القصة في يد كل فتى وكل فتاة، ولطبعْتُها ووزعتها على كل بيت بالمجان؛ ولأقمت لصاحبها ـ الذي لا أعرفه ـ حفلة من حفلات التكريم التي لا عداد لها في مصر، للمستحِقين وغير المستحقين»[(1)].

ورغم أن رواية «كفاح طيبة» تُعد في نظر الدارسين والنقاد واحدة من رواياته التاريخية الأولى، وليست من روائع أعماله ـ لكلاسيكيتها وشكلها التقليدي، وبُعدِها عن التجريب والابتكار (وكأن على نجيب محفوظ أن يبدأ طريقه ورحلته مع الكتابة من القمة فورا!) ـ، فإنني ـ ومع كامل احترامي وتقديري لهذه الآراء، وبعد ما يقرب من ثلاثة عقود متصلة قرأت خلالها كل أعمال نجيب محفوظ مرارًا ـ أزعم أن هذه الروايات التاريخية الثلاث تُعد من أروع وأجمل ما خَطَّ محفوظ بيمينه، وأنها ستظل باقية كدليل على فَرَادَةِ ونبوغ كاتبها ومبدعها، وتبقى دليلًا رائعًا لا يبلى لمن أراد أن يستمتع بالتعرف على مصر القديمة، ويستهلّ بها رحلته مع القراءة في الأدب، وعن مصر التي لا نعرفها!

كانت هذه الروايات الثلاث نواةً لمشروع ضخم كان نجيب محفوظ قد خطَّط لإتمامه وإنجازه، يكتب فيه مجموعة من الروايات التاريخية عن تاريخ مصر الفرعونية، على غرار المشروع الروائي الضخم للكاتب البريطاني الكبير «سير والتر سكوت»، وعلى غرار روايات التاريخ

(١) مجلة الرسالة، العدد ٥٨٦، ٢٥ سبتمبر ١٩٤٤.

الإسلامي التي كتبها «جورجي زيدان». يقول «نجيب محفوظ» في حديثه المطوَّل لفؤاد دوارة، المنشور في كتابه (عشرة أدباء يتحدثون):

«.. هيَّأتُ نفسي لكتابة تاريخ مصر كله في شكل روائي، على نحو ما صنع «والتر سكوت» في تاريخ بلاده، وأعددت بالفعل أربعين موضوعًا لروايات تاريخية رجوتُ أن يمتد بي العمر حتى أتمّها. وكتبت ثلاثة منها بالفعل هي (عبث الأقدار)، و(رادوبيس)، و(كفاح طيبة)..».

وكم كنت أتمنى أن يُنجز هذا المشروع الكبير، الذي لو تحقَّق لكان كنزًا ثمينًا بكل المقاييس، ولكنه للأسف الشديد لم يتحقق.

وبسبب نجيب محفوظ، وقراءة رواياته المدهشة، أُصبتُ بعدوى الهوس بمصر؛ الهوس هنا ليس بمعناه السلبي، إنما بمعناه المعرفي!

ثمة مصطلح في علم الآثار يُعرف باسم «إيجبتومانيا» أي الهوس بمصر؛ وهي الحالة التي أصابت كل من اتصل بالآثار المصرية القديمة أثناء الحملة الفرنسية وبعدها؛ كان اللقاء الأول في العصر الحديث؛ خشع نابليون وجنوده أمام الأهرامات وأمام المعابد وأمام المسلات، وفوجئوا أنهم أمام حضارة لم يعرفوا عنها شيئًا، وأنهم على أرضٍ بزغ فيها فجر الضمير (إذا استعرنا عنوانَ كتاب هنري بريستد الشهير).

حاول المؤرخون والأثريون وكُتَّاب الحضارة أن يصفوها أو يستخلصوا معالمها في كتاباتهم العديدة حول المصريات أو «علم المصريات».

وبالتوازي مع قراءة نجيب محفوظ، وكتب الأدب والتراث، عمومًا، أدركت ضرورة أن أعكف على قراءة ما يتصل بـ«مصر»؛ تاريخًا وحضارة وتراثًا، عمرانًا ومدنية وعلمًا وفنًّا، أن أتجاوز التاريخ العام والتَّحْقِيبَ

t.me/qurssan

السياسي، وتسلسُل الأسرات، وأن أغوص في الأعماق بحثًا عن السر! بحثًا عن هذه الحالة الغريبة التي تصيب كل من حاول أن يعرفها!

وبدأت الرحلة.. وما أمتعها من رحلة (أدعو اللـه ألا تنتهي أبدًا ما حييت) للتعرف والفهم، للاكتشاف والإدراك، للتأمل والنفاذ وراء الحوادث والدهور والمواقف والقشور!

(٢)

لم يكن توفيق الحكيم (١٨٩٨ ـ ١٩٨٩) فقط رائد المسرح المصري، وأبو الرواية والقصة الحديثة، وصاحب الريادة في مجالات عديدة، لكنه أيضًا واحد من أهم من كتبوا عن مصر والثقافة المصرية والروح المصرية (ربما كان توفيق الحكيم سببًا رئيسيًّا في شيوع مصطلحات «الروح المصرية»، و«الشخصية المصرية»... إلخ).

قرأتُ ما كتبه توفيق الحكيم في «عودة الروح»، وفي كتبه الأخرى المهمة (التي للأسف ما زالت بعيدة عن أعين وأيدي شبابنا وبناتنا في المدارس والجامعات).. وبدا لي أن الحكيم كان معنيًّا طوال الوقت بإثبات خصوصية الروح المصرية وحضورها التاريخي الممتد في الزمان والمكان، ولم يكن غريبًا أن يقدِّم عبر مسرحياته وقصصه ورواياته، فضلًا عن أعماله الفكرية (دراسات ومقالات)، تحليلاتٍ وقراءات غاية في الذكاء واللماحية والقدرة الفَذَّة على القيام بسياحات واسعة وعميقة في طبقات التاريخ والحضارة المصرية والثقافة المصرية والفن المصري.. إلخ، ليصل منها إلى خلاصة ما أسماه «الشخصية المصرية».

كانت «عودة الروح» محاولة روائية أصيلة للبحث عن هذا الجوهر المتصل؛ الروح الكلي الساري عَبْرَ التاريخ ليشكِّل «الشخصية المصرية»، بتأثير الحدث الأعظم؛ ثورة ١٩١٩، كانت هي أيضًا من ألهمتْ عميد الرواية العربية وباني مجدها نجيب محفوظ عمله الأكبر «الثلاثية» (بين القصرين، قصر الشوق، السكرية).

نعم. كان الأدب مُستودع التفاصيل التاريخية التي سُجِّلَتْ عن الثورة كأعظم وأجمل ما يكون؛ ثورة كتبتْ عنها روايةٌ عظيمة رائدة هى «عودة الروح» لتوفيق الحكيم، وسجّلت وقائعَها روايةٌ من أهم روائع الأدب العربى (بين القصرين/ الجزء الأول من ثلاثية محفوظ)، ولكن فى استحضار شخصيات واقعية معروفة، وإلباسها ثوب العالم الروائى، وخلق هذا الإيهام الفنى المطلوب بالمزج بين ما كان فعلًا، وما نتخيل أو يُحتمل أن يكون.

ومن توفيق الحكيم إلى حسين فوزي صاحب «السندباديات» الرائعة، وكتابه الملهم «سندباد مصري ـ جولات في رحاب التاريخ» أول كتاب قرأتُه بالكامل في التاريخ المصري وأنا شغوف مبهور الأنفاس؛ أذكر أنني اشتريتُ الكتاب من إحدى دورات معرض القاهرة للكتاب، كان ثمنه ٨ جنيهات[١].

بُهِرَ «حسين فوزي» منذ صباه الباكر بالأهرامات المصرية، وأبي الهول والآثار المصرية، على وجه العموم، وربما كان هذا العشق الباكر للحضارة المصرية القديمة السببَ في دعوته الحماسية المنادية بالقومية

(١) طبعة دار المعارف الأنيقة المدقّقة.

t.me/qurssan

المصرية ـ ولا شيء قبلها أو بعدها ـ ، واعتبرها المنبع والمصبَّ في تحديد مقومات الشخصية المصرية. وهذه الدعوة في الأساس امتدادٌ لما نادى به «أحمد لطفي السيد» في الثلث الأول من القرن العشرين، بأن (مصر للمصريين)، وهي الدعوة التي تحمس لها ونادى بها عددٌ من المثقفين الكبار، مثل: سلامة موسى، ونجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، ثم لويس عوض، وآخرون.

وكانت هذه الفكرة هي المنطلق والدافع لتأليفه (سندباد مصري ـ جولات في رحاب التاريخ). كان الدكتور حسين فوزي عاشقًا حقيقيًّا لمصر ومتيَّمًا بها، عشقه لمصر كان أنفاس وجوده، من أجلها كتب وحاضَر وألَّف وشرح الكثير من آرائه وأفكاره حولها.

يقول في مقدمة «سندباد مصري»: «أفخر أن بلادي خرجت من محناتها محتفظة بشخصيتها وطبيعتها السمحة، مقبلة دائمًا على صناعتها الواحدة: صناعة الحضارة، برغم كل شيء، وتحت حكم كل إنسان، وضد كل إنسان»[1].

هذه الرؤية «المقطرة» التي تختزل تاريخ مصر والمصريين الطويل، هي خلاصة رحلة بعرض وطول التاريخ قام بها (سندباد مصري)، صحيح أنه كتابٌ في تاريخ مصر، ولكنه التاريخ المتأدب ـ إن جاز التعبير ـ ؛ فهو عبارة عن لوحات ومشاهد قصصية لفترات تاريخية مصرية، مكتوبة ببراعة وحرفية أدبية عالية، بحيث تمثِّل في النهاية قطعة فنية من الجمال والسمو الأدبي! أو يمكن أن نقول بعبارة أخرى

(١) راجع: «سندباد مصري ـ جولات في رحاب التاريخ»، دار المعارف، ١٩٩٤

 t.me/qurssan

إن هذا الكتاب «أدبيٌّ» في مظهره، «تاريخيٌّ» في جوهره، يتناول حياة المصريين من عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث، لا بالصبغة التاريخية التقليدية، وإنما بأسلوب العرض الفني. فهو صور ومشاهد من الحياة المصرية المصرية على مدى العصور. إنه جولاتُ مصريٍّ في رحاب تاريخه، بعيدًا عن السرد التاريخي الممل وذِكْر قصص الملوك وغزواتهم. إن «حسين فوزي» يسلِّط أضواءه على الشعب المصري وصناعته الأصيلة: صناعة الحضارة. والتاريخ المصري ـ بحكم طوله وتنوع وسائل دراسته ـ مُقَطَّع الأوصال كأنه تاريخ أمم متعاقبة، ولكن كتاب (سندباد مصري) يعرضه لنا في قصة واحدة متكاملة بطلها الشعب المصري العظيم الخالد..

(٣)

وأما جمال حمدان، وما أدراك ما جمال حمدان، فله قصة تُذكر وحكاية تُروى!

أقلِّب في أوراقي القديمة، أبحث عن مادة تائهة، وكعادة كُلِّ من ابتُلوا بتكدس الكتب وتراكم السنين والأوراق، بغير ترتيب ولا قدرة على ذلك، تسقط «كومة» مائلة فيظهر من ورائها عامود آخر اختفى منذ سنوات، أنسى ما كنتُ أبحث عنه أصلًا، وأُقلِّب فيها أمامي، أفاجأ، وكالعادة، أيضًا بكتب كنتُ أبحث عنها منذ فترة ومِتُّ يأسًا وكَمَدًا من عدم العثور عليها، أمسح عنها التراب وأنظر ما تحتها، وأفاجأ أيضًا بأوراقٍ كتبتُها منذ سنوات بعيدة، أسجل فيها ملاحظات أو أجمع فيها

معلومات عن موضوع أو شخصية بعينها.

وإذا بي أجد أمام عيني نسخة قديمة مهترئة من كتاب «**اليهود أنثروبولوجيًّا**» للمرحوم جمال حمدان، صدر في الستينيات من القرن الماضي، ضمن إصدارات سلسلة عظيمة اسمها «**المكتبة الثقافية**»، وبجواره كتاب آخر له أيضًا صدر في السلسلة ذاتها لونه أصفر باهت بعنوان «استراتيجية الاستعمار والتحرير»[1].

وبمنطق التداعي تذكرتُ المرة الأولى التي سمعت فيها اسم جمال حمدان؛ عاد أبي من عمله ذات ظهيرة يتأبّط جريدة (الأهرام) وفي يده الأخرى كتاب صغير الحجم ناولني إياه، وقال لي «هذا كتاب شخصية مصر لجمال حمدان.. إنه رجل عظيم وكتابه هذا قصيدة عشق خالصة في مصر»، كنت واثقًا أن أبي لم يقرأ «شخصية مصر» ولا اطّلع على محتواه؛ لكنه بالتأكيد سمع عنه كثيرًا وقرأ عنه أكثر في الصحف والمجلات التي كان يتابعها شغوفًا، كان أبي دائمًا يرمي الكرة في ملعبي ويتركني بعد ذلك لأقرر إن كنتُ سأكمل أم لا (جزاه الله عني خيرًا، وبارك لي في صحته وعمره، ولا حرمني بركته ورضاه).

قرأت الكتاب ولم يكن صعبًا عليَّ أبدًا (رغم أنه كتاب يعتمد أساسًا

---

(١) وما أدراكم أعزائي بتاريخ هذه السلاسل التي تكحّلت بها ثقافتنا المصرية المعاصرة في أواسط القرن الماضي؛ «المكتبة الثقافية»، و«أعلام العرب»، و«أعلام الفكر الإنساني»، و«الفكر المعاصر»، و«تراث الإنسانية»، والدور الجليل الذي لعبته هذه السلاسل العظيمة في تشكيل وعي وثقافة أجيال كاملة، في حقبةٍ كان يتولى حقيبة الثقافة شخص عظيم القدر اسمه ثروت عكاشة، واتَّفِقْ أو اخْتَلِفْ كيفما تشاء حول تلك الفترة وسياساتها.. لكنك لا تستطيع أبدًا أن تنكر أنه كان مثقفًا رفيعًا وفارسًا نبيلًا.

على الجغرافيا، وهي من العلوم التي لم يكن بيني وبينها كبير مودة، وكان رسم الخرائط بالنسبة لي عقابًا إلهيًّا!)، لم تستوقفني المعلومات والبيانات الغزيرة، والتوصيف الجغرافي البارع والتحليل المدهش لعبقرية المكان، قدر ما استوقفتني لغة جمال حمدان، لغة تشع جمالًا وإبداعًا، تقسيم عباراته لها وقعٌ موسيقي أخَّاذ، تشبيهاته جذابة وجديدة، لغته فيها شيء مختلف.. ومن وقتها، صرتُ أسيرَ أسلوب حمدان، وتتبعتُ كتبه فقط كي أستمتع بجمال أسلوبه وروعة لغته قبل الانشغال باستيعاب أفكاره والوقوف عند تحليلاته[١].

في ١٧ أبريل من العام ١٩٩٣ صَحَتْ مصر على الخبر المروِّع، وفاة جمال حمدان محترقًا في شقته المتواضعة بالدقي، نهاية مأسوية لمفكر عظيم نذر حياته لمشروعه العلمي الضخم. كم أحببتُ هذا الرجل، وأحببت كتبه وأعماله، فقد كان جمال حمدان من هؤلاء الصفوة الذين يلازمهم الحضور الدائم حتى مع غياب الجسد، فالسيرة أطول من العمر، إنه كما وصفه محمد حسنين هيكل «عنقاء حلم مصري وقومي عظيم حوطته ألسنة النيران ذات صباح من شهر أبريل ١٩٩٣».

بعدها بعامين، قرأت فصلًا لا أنساه في كتاب «شخصيات مصرية» للكاتب والروائي محمد جبريل (شفاه اللـه وعافاه) عن حمدان، وكان هذا الفصل النواة التي انطلقت منها للقراءة عن حمدان بالتوازي مع قراءة أعماله (ولم أكن قرأت «شخصية مصر» في طبعته الكاملة عن دار

(١) كم أتمنى أن يتوفر باحثٌ نابه لدراسة جماليات الكتابة الحمدانية، ويحلِّل أسلوبه وتصاويره البديعة. بالجملة يُخضع كتابات حمدان لدراسة لغوية أسلوبية تكشف عن فرادتها وخصوصيتها.

الهلال في ٤ مجلدات؛ لكني قرأتُ «شخصية مصر» في طبعته الأولى الصغيرة، ثم «استراتيجية الاستعمار والتحرير»، أيضًا في طبعته الموجزة في المكتبة الثقافية، و«القاهرة»، و«العالم الإسلامي المعاصر»)، وكنت أنقل عنه فقراتٍ كاملة في كراسة مخصوصة؛ باعتبارها قطعًا أدبية فريدة، أحفظها وأستعين بها في كتابة موضوعات التعبير.

ومَنْ ينسى وصفه الشعري البديع لمعشوقته الأبدية مصر؛ إذ يقول عنها بِوَلَهٍ بديع «هي بالجغرافيا تقع في أفريقيا، ولكنها تمت إلى آسيا بالتاريخ، وهي متوسطية دون مدارية بعروضها، ولكنها موسمية بمياهها وأصولها.. فرعونية هي بالجد، عربية بالأب.. ثم إنها بجسمها النهري قوة بر، ولكنها بسواحلها قوة بحر، وهي تضع بذلك قدمًا في الأرض، وقدمًا في الماء. هي في الصحراء وليست منها، إنها واحة «ضد صحراوية»، بل ليست بواحة، وإنما شبه واحة.

بجسمها النحيل تبدو مخلوقًا أقل من قوي، ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأسًا أكثر من ضخم. تقع في الشرق، وتواجه الغرب، وتكاد تراه عبر المتوسط، تمدُّ يدًا نحو الشمال، وأخرى نحو الجنوب. ولهذا، فهي قلب العالم العربي، وواسطة العالم الإسلامي وحجر الزاوية في العالم الأفريقي، إنها سيدة الحلول الوسطى والوسط الذهبي».

ومصر لديه «هي واسطة كتاب الجغرافيا، تحولت إلى فاتحة كتاب التاريخ»، وقال عنها أيضًا «من كان أبوه التاريخ وأمه الجغرافيا فهو من صنع اللـه»، وانظر وهو يلخِّص برؤية نافذة وعبارة جميلة بديعة وضعية القاهرة «القاهرة الحديثة تقع بين قوسين مغلقين من التاريخ القديم الفرعوني غربًا، والإسلامي شرّقا، فعلى هضبة الأهرام والجيزة

بقايا العصر الفرعوني، وإن كانت معلقة كالحفريات، بينما على سفوح المقطم وعند أقدامه تعيش الأحياء الشرقية القديمة تاريخًا إسلاميًّا مكدَّسًا، في حين ترقد المدينة الحديثة في القاع المنخفض بين القوسين التاريخيين المرتفعين، وهي بهذا كله تختزل تاريخ مصر جميعًا».

وقل لي باللـه عليك وهل هناك من كتب في عشق مصر والقاهرة المحروسة أجمل من هذا علمًا ومعرفةً وأدبًا؟!

لا أظن!

وأستدعي هنا التوصيف البارع الذي كتبه أحد عشاق جمال حمدان الكبار؛ صديقي وأخي ورفيق الفكر والثقافة والروح محمود عبد الشكور؛ يقول: «إن كتب جمال حمدان هي أعمال أدبية بقدر ما هي دراسات علمية صارمة المنهج، وقد خسرته الجامعة بسبب مشكلة تافهة، لكن الأدب والجغرافيا ربحا علمًا كبيرًا.. واختار هو أن يكون راهبًا منعزلًا يكره الأضواء ويقضي معظم يومه في القراءة والكتابة»، ويجزم الكاتب الراحل كامل زهيري بأن جمال حمدان ممن اجتمعت فيه حزمة من المواهب المتنوعة، ولهذا «فليس غريبًا بعد ذلك أن تجدَ في كتاباته الجغرافية العلمية الرصينة تعبيرات موسيقية مثل: ضبط إيقاع النهر. ولست أظن أن عالمًا أو أديبًا أو فنانًا اجتمعت له مثل هذه المواهب السمعية والبصرية كما اجتمعت عند هذا العالِم الأديب الفنان».

وإذا كان معظم المنظِّرين والمؤرخين للثقافة العربية لم يعتنوا بدور «المكان» في تشكيل الثقافة، فإن جمال حمدان يكاد يكون نموذجًا فريدًا وفذًّا وعى بكيفية تشكُّل الثقافة بتفاعل التاريخ والجغرافيا، ولقد أثبت

t.me/qurssan

عبر دراساته وكتبه أن الواقع المصري بعامة تتزامن فيه الحقب التاريخية، وتتجاور فيه الثقافات، فالتاريخ يُعَدُّ جزءًا من ثقافة المكان المتشكّلة بفعل العلاقات المتغيرة بين التاريخ والجغرافيا معًا. أصاب جمال حمدان ووُفِّقَ غاية التوفيق حين جعل من «عبقرية المكان» مفتاحَ مصر؛ فهو «قطب الرحى»، و«ذاكرة البشر»، وبنفيه يسقط التاريخ في المجهول، ويطويه الفراغ.

(٤)

ثم كان أن تعرفت على كتابات جمال الغيطاني (رحمه اللـه)، في نفس الوقت الذي اكتشفت فيه كتابات نعمات أحمد فؤاد.. وكلاهما من كبار عشاق هذا البلد، ومن العارفين المتبحِّرين بعلم مصر، وتراثها، وآدابها، وفنها، وكل ما يتصل بها.

فتنني الغيطاني بعشقه المجنون للقاهرة القديمة، كنت أتابع بشغف كتاباته واستطلاعاته المصورة عن قاهرة المعز، والقاهرة المملوكية، والعثمانية، التي كان ينشر بعضًا منها في مجلة (العربي) الكويتية، هذا الرجل لديه قدرة باهرة في جَذْبك (بالمعنى الصوفي) لمنطقة تشبه «مثلث برمودا» لن تستطيع أن تقاومها أو تخرج منها أبدًا، يكتب الغيطاني بوَجْدٍ، بهيام، يذوب ذوبًا، انظر إليه وهو يتحدث أو يكتب عن مسجد السلطان حسن، وبيت القاضي، ومجموعة قلاوون، وشارع المعز ببابيه الشماليَّيْن الفتوح والنصر، وباب زويلة في الجنوب.

t.me/qurssan

يُهَامِسُ الغيطاني الحجر وينصت له، وكأنه اكتشف الشفرة الخاصة لفك طلاسم اللغة السرية التي تتحدث بها أحجار المساجد والجوامع والخنقاوات والتَّكَايَا والأسبِلَة، المآذِن والقِبَاب والمحاريب والأضْرِحَة، يا ربي.. ما كل هذا الجمال والعشق، هذا رجل يذوب حبًّا فيما بقي من تاريخنا وتراثنا القديم.. كلما تذكرت كتابه الصغير «قاهريات مملوكية» الذي كان سببًا في اقتنائي كل ما وقع تحت يدي عن تاريخ مصر الإسلامية، وتاريخ الخطط والمساجد الأثرية، أدركتُ قيمة الدور الذي تؤدِّيه «الكتابة العاشقة»، «المخلصة»، «المحرضة»، ولم أفوِّت له كتابًا في هذه الدائرة: «ملامح القاهرة في ألف سنة»، «استعادة المسافر خانة.. محاولة للبناء من الذاكرة»، وكتب أخرى.

كان الغيطاني أحد أساتذتي الكبار الذين أخذوا بيدي لاستكشاف آفاق ودروب في تاريخنا الإسلامي، وتراثنا العربي، وفنوننا المعمارية القديمة.

ولا يمكن أن أنسى أبدًا ما قرأتُه للسيدة العظيمة، التي سجَّلت بحروف من نور أجمل ما يمكن أن تقرأه عن وجه مصر الحضاري وعطائها للبشرية؛ أقصد المرحومة الدكتورة نعمات أحمد فؤاد صاحبة كتاب «شخصية مصر»[1] (وهو غير الكتاب الشهير لجمال حمدان)، لها

---

(١) «شخصية مصر»، نعمات أحمد فؤاد، الهيئة العامة للكتاب، الطبعة الخامسة، ١٩٨٩.. وأذكر أنني اقتنيت هذا الكتاب الممتع في سن باكرة، فلم يكن يفارقني طيلة سنوات ما قبل الجامعة، كنت أقرأه وأعاود قراءته لسهولته، وغزارة مادته، وروحه الطيبة المحبة العاشقة لتراب هذا الوطن وتاريخه وتراثه وأمره جميعًا. ولا أعلم إذا لم يكن كتاب مثل هذا يمكن أن يُضَمّن ضمن برامج الدراسة في مراحل التعليم الأساسي (أو على الأقل بعضًا منه) فماذا يمكن أن يقدم للطلاب والطالبات عن حب مصر وتاريخ مصر وحضارة مصر؟!

t.me/qurssan

حفظتُ سطورًا وصفحات، وعنها أنقل ما سجَّلَتْه عن مصر التي فُتن بها العالم شرقًا وغربًا:

«وليس الغرب وحده هو الذي كتب عن مصر، فقد كتب عنها من الشرق أعلام علماء ورحالة، وأدباء، ولعل أَسْيَرَهُمْ ذكرًا وأبقاهم أثرًا هو المؤرخ الفيلسوف العالم الأديب الذي أجمع الشرق والغرب على إكباره: ابن خلدون.

كتب توينبي عن تاريخ مصر، وكتب برستد عن عطاء مصر الحضاري، وكتب كابارت عن نفائس مصر في الفن، وكتب Warren عن الطب في مصر، وكتب Erwinseid عن قانون مصر، وكتب Qrberry و Creed عن ديانات مصر. لا أنكر أن منا من أدى الفريضة، وسبَّح وصلَّى فكتب:

الدكتور أحمد بدوي (في موكب الشمس)، والدكتور حسين مؤنس عن (مصر ورسالتها)، والأستاذ شفيق غربال عن (تكوين مصر) والدكتور صبحي جورجي عن (طب مصر)، والدكتور جمال حمدان عن «شخصية مصر».. وكان الدكتور حسين فوزي (السندباد المصري)، ولكن مصر موضوعٌ لكتب ومجلدات وملاحم؛ موضوعٌ للموسيقيِّ والرسام، موضوعُ للشاعر والفنان، موضوعُ للتاريخ والعلم. موضوع للفلسفة والدين، موضوع للإنسان. موضوع قديم قدم الأزل.. جديد وإلى الأبد.

وحين نتحدث عن عطاء مصر فإننا لا نتغيَّا الزهو أو الفخر، إن مصر اسم شرف لا يُكتسب بالولادة فقط، ولكن بالسلوك وإدراك القيمة. ولا نتحدث عن عطائها للسرد والتاريخ، فتاريخها مسطور ومنشور، ولكننا نتحدث عنه وعنها لنستشعر واجبنا الذي أخشى،

في زحام الحياة، أن ننساه وإن كان هذا مستحيلًا. والاعتزاز بمصر لا يعني التعارض مع القومية العربية المشتركة، مصر تمثّل طرفًا كبيرًا منها.. بل إن الاعتزاز بمصر يؤدّي إلى الاعتزاز بمن تحب ومن تربطها به آصرة قربي أو وشيجة جوار».

وتضيف العظيمة نعمات أحمد فؤاد:

«لقد كانت مصر رائدةً ثلاث مرات في التاريخ: مرة حين ابتدعت الحضارة، وأخرى في المسيحية، وثالثة في الإسلام، وعليها أن تبقى رائدة مرة رابعة وتحمل رسالة قديمة جديدة.. والجدَّة هنا تعني وجود الرجال القادرين على التحريك، أو كما يسميهم توينبي:

[Those Who Know How] إن شهداء المسيحية المصريين أعطوا أنفسهم لمعنى وقد أدركوا هذا جيدًا وقصدوه، ومن ثَمَّ غنّوا وهم في طريقهم إلى المقصلة. والمصري الأصيل لا يعوقه شيء عن هدفه، لقد كان أبو الهول في الأصل صخرة ضخمة تعترض طريق المصري إلى الهرم فشكَّلها تمثالًا وأحال العائق إلى فن رائع. إن فنّ المشربيات الذي ابتدعه العصر القبطي كان سببه قلة الخشب في مصر، فأحال المصري قلة الكم إلى غنى الكيف، وشكلت مصر الخشب وهو قليل عندها إلى أروع ما يكون التشكيل في تمثال (ابن البلد).

لقد اختار الفنان المصري أن يضع نفسه في مجال الخلق، وأن يجعل من نفسه مرقبًا ومنطلقًا للتشكيل، للبناء، للتشوق إلى الرائع والجليل، فهنا على هذه الأرض - حيث تنتشر آثار الشخصية المصرية التي يتعلم المرء منها أشياء كثيرة بالعين والشعور - يتعلم من الرسوم واللوحات

أن أزميل النحات المصري روي من الإحساس، ومن هنا كان الفن المصري فنًّا إنسانيًّا بما فيه من أشواق متقدة ورغبات مشبوبة، فنًّا إنسانيًّا بما فيه من سرور وفرحة».

ولم أقرأ أجمل ولا أرقّ ولا أذكى من هذه الرؤية التفسيرية، وهذه النقدات التحليلية لمغزى وفلسفة الفن المصري عبر العصور، الفن الذي يقاوم الموت والفناء ويبحث عن الخلود والديمومة؛ فن يرتبط بالحياة ويجسدها حتى وهو يحتفي بالموت ويؤطره ويطمح في أن يقاومه!

تقول صاحبة «شخصية مصر»:

«سرور هادئ كما يقول برستد؛ لأنه نابع من الطبيعة المصرية وفيض حيويتها، فمصر تحب الحياة وتتشبث بها، ولهذا تحدَّت البِلى (القدم والهلاك) والفناء.. مصر من حبها الحياة تجاهلت الموت بعدم الذِّكر أو تحدته بالارتفاع فوقه وبسرعة.. إن قصة أوزوريس وست التي كان يمكن أن تشكل تراجيديا كبرى، نقلتها مصر إلى ساحة المحكمة، تواكبها محاولة حميمة من إيزيس لتجميع أعضاء أوزوريس.

إن الانسان المصري الواثق عندما يحزن يستقطب ألمه في داخله، ويستدير وهو يعيد البناء، وعلى هذا لم تعرف مصر التراجيديا؛ لأنها لم تعترف بالموت، حتى المسيحية المصرية ركزت على الأم وليس الصلب، ركزت على الأم بحس بعيد من إيزيس وهاتور.

الفكر المصري يقول: الحياة سرمد ولا موت، حتى كتاب الموتى لم يُعرف عندهم بهذا الاسم وإن كان مضمونه طقوسًا جنائزية.

t.me/qurssan

حتى المقابر المصرية، كل شيء فيها حي جذلان، فالجدران تحفل بحلقات الرقص، وموائد الطيور الشهية، وعصير العنب.. حتى المقبرة عندهم لا توحي بالحزن.. إنها متحف للفن يُسعد الرائي. الفن المصري فن يلفّه سلام من روح النبات الذي أوحي به، فهو انبثاقات من ضمير الزرع مرتكزة علي قاعدة من الحجر. إن الإعجاز في الفن المصري يتمثل في القوة والدعة معًا. فالمصري يقبض عصاه بيد قوية، بينما يده الأخري تلين وتتسمح وهو يمسك بكف امرأته في مودة ورحمة ولا نظير لها في فن آخر، إن الجمع بين الواقعية والمثالية أعلى مراتب الوعي الروحي».

(٥)

ذات مرة كتب الخبير الاستراتيجي والكاتب والمفكر المصري المعاصر سمير مرقص، على صفحته الشخصية على «فيسبوك»:

«دأب المفكرون المصريون المعتبرون على الاستقواء بالتاريخ والجغرافيا والثقافة في فهم ما يستجد على الواقع المصري، هكذا فعل جمال حمدان، ولويس عوض، وزكي نجيب محمود، وصبحي وحيدة، وحسن حنفي، وأحمد صادق سعد، وغيرهم، فأنتجوا مصادر معتبَرة خالدة، وحول ما يدور في مصر الآن، أقترح قراءة ما يلي:

١ - «شخصية مصر» و«سيناء»؛ لـ جمال حمدان.

٢ - «في أصول المسألة المصرية»؛ لـ صبحي وحيدة.

٣- «تاريخ الفكر المصري الحديث»؛ لـ لويس عوض.

٤ - «قناة السويس»؛ لـ مصطفى الحفناوي.. ويمكن قراءة «تاريخ الأقطار العربية»؛ للوتسكي كخلفية لإبداعات المصريين.

والتركيز على المشترك في هذه الكتابات من حيث أهمية سيناء، والبحر الأحمر، والقناة العنصر التاريخي والجغرافي المشترك...».

ولعلي أضيف على ما أشار إليه الكاتب المثقف الكبير؛ هذه الحزمة المعتبرة من الكتابات والدراسات والمؤلفات التي دارت حول مصر؛ إنها محاولات للفهم والوعي والإدراك، ومحاولات لبحث لماذا كانت مصرُ منذ فجر التاريخ أرضًا ومستقرًّا للحضارة والفكر والفنون والآداب، لماذا كانت ـ رغم كل ما مرّ بها وألمّ بها، وما عانته من أزماتٍ ومِحَنٍ قاسية ـ قادرة وعازمة على إنتاج المعرفة وعلى صنع الحضارة، وعلى أن تكون منارة ومنصة مشعة يقصدها القاصدون، ويبتغي فيها وجهَ العلم والمعرفة والحضارة الراغبون المخلصون؟

أذكر أنه بعد أشهر قليلة من اندلاع ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، بادرت دار الكتب والوثائق المصرية برئاسة الدكتور محمد صابر عرب، آنذاك، بإصدار سلسلة كتب غير دورية بعنوان «الثورة والحرية» (وإن كنت أرى أن الاسم الأدق الأليق بها هو «مصر الحرية والحضارة») تحت إشراف المؤرخ والأكاديمي المعروف الدكتور أحمد زكريا الشلق، أعادت من خلالها طبع ونشر ما يقرب من خمسة وثلاثين عنوانًا من عيون الكتب والدراسات والمؤلفات التي تناولت تاريخ وحضارة ونهضة مصر وشعبها؛ لتزكية الروح الوطنية لدى الشباب، وكانت تعالج قضايا النهضة والثورة والحرية والعدالة، سواء في مصر أو غيرها من تجارب الأمم الأخرى، وتخاطب الشباب وعامة المثقفين، وتَصِلهم بتراث

t.me/qurssan

الفكر المصري الحديث والمعاصر والتراث العالمي على حد سواء، هذا بالإضافة إلى إعادة طبع عيون الكتب التي تناولت نضال الشعب المصري وتاريخه، والشخصية المصرية وجوانبها الحضارية والثقافية والاجتماعية المتعددة، وبالجملة ما يتصل بالثقافة المصرية؛ تاريخًا وحضارة ونهضة وأدبًا وسياسة وفنًّا... إلخ.

إنها مجموعة من الكتب الممتازة التي أنصح بقراءتها لكل من يحاول أن يتعرف أو يقترب أو يفهم ما يمكن تسميته بـ الروح المصرية؛ أو الشخصية المصرية، كان من أبرز عناوين هذه السلسلة:

«في أصول المسألة المصرية» لـ صبحي وحيدة، «سندباد مصري» لـ حسين فوزي، «شخصية مصر» (الوجيز) و(الوسيط) لـ جمال حمدان، «شخصية مصر» لـ نعمات أحمد فؤاد، «مصر ورسالتها» لـ حسين مؤنس، «نشأة الروح القومية المصرية» لـ محمد صبري السوربوني، «الشخصية الوطنية المصرية» لـ طاهر عبد الحكيم، «نضال شعب مصر» لـ محمد عبد الرحمن حسين، «مستقبل الثقافة في مصر» لـ طه حسين، «تجربة مصر الليبرالية (١٩٢٢ ـ ١٩٦٣)» لـ عفاف لطفي السيد، «حرية الفكر وأبطالها في التاريخ» لـ سلامة موسى، و«نهضة مصر» لأنور عبد الملك، «المجتمع المصرى والجيش» له أيضًا، «النهضة والسقوط في الفكر المصري» لـ غالي شكري.. وغيرها الكثير.

وفي ظني، فإن هذه المجموعة تظل من أهم وأقيم الكتب التي تلبي الحاجة لمعرفة ما أسميه بالقوام الجوهري للثقافة المصرية وروحها المتطورة النامية عبر العصور، وما زلت عند طلبي وإلحاحي بضرورة توفير هذه الكتب كل عدة سنوات (من ثلاث إلى خمس سنوات) لتكون

بين يدي جيل وراء جيل من شباب صاعد تتراوح أعماره بين ١٢ عامًا و١٨ عامًا، وهي فترة الفضول والطلب والبحث، انطلاقًا من إيماني بضرورة التركيز على هذه الأمواج التي تَتْرى من الناشئة والشباب، يجب أن نحرص على توفير ما يمكِّنهم برغبتهم في التعرف على قوام ثقافتهم المصرية والعربية والدعائم الأساسية التي تقوم عليها هذه الثقافة من دون تعصب ولا تزمُّت ولا جمود ولا التزام زائف بشعارات رنانة وخطب منبرية، بل بوعي صحيح متكامل يقرأ في التاريخ مستعينًا بالجغرافيا، ومتوسِّلًا بالأدب والفنون والدراسات التي تضيء أبعاد وجوانب هذا البلد الذي نحبه.

(٦)

سنوات طويلة، جدًّا، وأنا أحلم بكتابةٍ أخرى لسيرة الضمير المصري (ربما متأثرًا بما قرأته للمرحوم صلاح عبد الصبور في كتابه القديم العظيم الجميل «قصة الضمير المصري في العصر الحديث»)؛ كتابة لا أقول إنها جديدة، ولا أقول إنها أتت بما لم يأتِ به غيرها؛ إنها رواية من روايات، وتنويعة من تنويعات، وقصيدة عشق ضمن ديوان قصائد، لا تنتهي ولن تنتهي؛ معالم من محطات وعلامات وشخصيات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر؛ أفتّش عن الفكرة وأبحث عن تطورها، كيف نشأت من أين أتت، في أي تربة غُرست وأثمرت، ما الذي جعلها تنمو وتزدهر وما الذي جعلها تذبل وتذوي وتموت!

من شيخ العرب همام عظيم بلاد الصعيد، وعلي بك الكبير (الملقب

t.me/qurssan

بالجن علي)، ومحمد علي باشا الكبير، وحفيده الخديوي إسماعيل، إلى الشيخ المستنير حسن العطار، والجد العظيم رفاعة بك الطهطاوي (وحفيده النابه زهير الشايب)، والسيد جمال الدين الأفغاني، والأستاذ الإمام محمد عبده، وصولًا إلى «سعد سعد.. يحيا سعد»، وأروع ثوراتنا الشعبية في القرن العشرين، وما أثمرته من قوة مصر الناعمة التي نفخر بها ونتباهى حتى اللحظة!

سيرة مصرية تستعين بالتاريخ لكنها ليست تاريخًا صرفًا، وتتوسل بالجغرافيا لكنها ليست دراسة جغرافية صماء، تعرض الصورة لكن غايتها ألَّا تكون معرض صور، ترصّع السيرة بالحكاية والقصة دون أن تصبح (مجموعة قصص أو حكايات خالصة)؛ إنها في ظني شيء مختلف عن كل ذلك، وفيها من كل ذلك!.. محاولة طموح قد تكون مجنونة، وقد تكون مخبولة، لكنها فيما أظن صادقة وتستحق...

مجرد تجربة قد تستمر... وقد... !

إيهاب الملاح

مدينة السادس من أكتوبر/

(الأول من ديسمبر ٢٠١٩)

t.me/qurssan

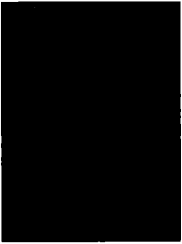

كتاب سندباد مصري

كتاب «قاهريات مملوكية»

كتاب مصر ورسالتها

t.me/qurssan

جمال حمدان وكتاب «شخصية مصر»

t.me/qurssan

١

«جمهورية همّام»..
أولى محاولات الاستقلال!

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١)

لم يكن حدثا عاديًا أبدًا، ذلك الذي تعلق به جمهور المشاهدين في الموسم الرمضاني من العام ٢٠١٠، ليس في مصر فقط بل في أنحاء متفرقة من العالم العربي كله؛ تحلّق آلاف الأسر والعائلات حول شاشات التلفاز لمشاهدة مسلسل «شيخ العرب همام» الذي قام ببطولته النجم «يحيى الفخراني»، وهو العمل التليفزيوني الأول الذي يخصص بكامله للشخصية البطولية الأسطورية «شيخ العرب الأمير همام بن يوسف بن أحمد بن محمد بن همام بن أبو صبيح سيبيه» الرجل الذي حكم أقاليم الصعيد، ومدّ سلطته على ولاية جرجا التي كانت تشمل كل الأقاليم من المنيا إلى أسوان، وكان ذلك في سنوات حكم «علي بك الكبير»، والمعروف أن شخصية همام التي تعرف أيضًا بهمام الفرشوطي لم تظهر من قبل في مسلسل تليفزيوني إلا في مشاهد قليلة جدًا في مسلسل «مارد الجبل» الذي أخرجه نور الدمرداش في السبعينيات من القرن العشرين[١].

---

(١) رجعتُ في المعلومات الخاصة بـ«شيخ العرب همام والدراما» إلى صديقي الناقد القدير والمثقف الكبير محمود عبد الشكور، الذي كتب عن شيخ العرب همام وذكرياته عن الصعيد وفرشوط، في كتابه الممتع «كنت صبيًا في السبعينيات»، دار الكرمة للنشر والتوزيع، يناير ٢٠١٥.

t.me/qurssan

ومنذ الحلقة الأولى للمسلسل الذي كتبه السيناريست البارع عبد الرحيم كمال، لاقى نسبة مشاهدة غير مسبوقة في تاريخ الدراما المصرية والعربية، ونجح نجاحًا رائعًا، وتابعه الملايين على شاشات الفضائيات، ليس في مصر وحدها بل في العالم العربي كله. وعلى الرغم من مرور ما يقرب من عِقْدٍ كامل على عرضه الأول، ما زال المسلسل يحظى بنسب المشاهدة العالية لتتجدد المتعة والفائدة.. والسؤال!

ما الذي تمثله سيرة شيخ العرب همام في سياق التاريخ المصري الحديث؟ ولماذا توقَّف كبار المؤرخين والباحثين المهتمين بالكشف عن جذور وتطورات الفكر المصري الحديث عند هذه الفترة وهذه الشخصية التي نالت ما لم تنله شخصية أخرى في الفترة ذاتها؟

هل لثرائها الفولكلوري وارتباطها العاطفي في أذهان ووجدان الناس في الصعيد؟

لا. ليس هذا وحده السبب.. بل هناك أسباب أخرى كثيرة تتعلق باللحظة المفصلية التي حكم فيها شيخ العرب همام صعيدَ مصر؛ واعتبرها كبار مؤرخي ومفكري مصر المحروسة بداية نشوء أو ظهور الفكرة القومية، وتعزيز الانتماء الوطني (ولو بصورة مبهمة غائمة)، وتأسيس الجمهورية المستقلة عن مركزية الأتراك في إسطنبول، وعن النخبة المملوكية الحاكمة في القلعة.. ذهب إلى ذلك كل من الطهطاوي، وعلي مبارك، ولويس عوض، وآخرون...

ومن هنا صار تتبُّع سيرة شيخ العرب همام، والدور التاريخي المؤثر الذي لعبه في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في مرايا المؤرخين

ضروريًّا ولازمًا؛ لفهم أو لاستجلاء اللحظة التي انبثق فيها ـ ضمن لحظات أخرى ـ فجر الضمير المصري الحديث.

(٢)

كان المسلسل باعثًا لي ـ آنذاك ـ على قراءة كل ما أستطيعُ أن أصل إليه من مادة تاريخية موثقة عن «سيرة شيخ العرب همام» الذي كان عندي بعض المعلومات التي لا بأس بها عنه. لكن ما توفرتُ على قراءته آنذاك، وتجمَّع تحت يدي من معلومات جعلني أقرأ سيرتَه من منظورٍ آخر (عبّرت هذه القراءة عن نفسها في صورة دراسة طويلة بعنوان «الأصول التاريخية لدراما شيخ العرب همام»[١]).

في هذه الدراسة، لم أكتفِ بالرجوع إلى شيخ مؤرخي العصر الحديث «الجبرتي» وكتابه العمدة «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»[٢]؛ المصدر الأول والأشهر لسيرة شيخ العرب همام؛ بل كانت هناك مصادر أخرى غاية في الأهمية؛ منها مثلًا الإشارات التي ضمّنها جورجي زيدان في كتابه «تاريخ مصر الحديث»؛ وكشفتُ في هذه الدراسة عن التخليطِ الشديد الذي وقع فيه، والارتباك الذي كان مصدره الجهل أو عدم الدقة في قراءة المصادر التاريخية المخطوطة، أو هكذا أظن.

---

(١) نشرت في حينها على صفحات مجلة (أكتوبر) القومية الأسبوعية، على حلقات متصلة.

(٢) «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، تحقيق وشرح الأساتذة حسن محمد جوهر، وعمر الدسوقي، السيد إبراهيم سالم، دراسة وتقديم الدكتور أحمد زكريا الشلق، سلسلة (تراث النهضة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥.

t.me/qurssan

وفي كتابه «الخطط التوفيقية الجديدة»، أورد علي مبارك ترجمة تفصيلية وافية لشيخ العرب همام، اعتمد فيها كليًا على ما ذكره الجبرتي. على أن من أهم ما قرأتُ عن شيخ العرب صفحاتٍ مطولة في كتاب لويس عوض الشهير «تاريخ الفكر المصري الحديث»[1]، وأرجِّح أن هذه الصفحات المهمة كانت دافعًا وباعثًا للباحثة التاريخية القديرة الدكتورة ليلى عبد اللطيف لإنجاز أطروحتها المهمة عن شيخ العرب همام، نُشرت في كتابٍ من بين الأهم عن سيرة رجل الصعيد الأسطوري[2].

وإذا كان صناع مسلسل «شيخ العرب همام» قد أشاروا في التتر الافتتاحي له إلى رجوعهم في المادة التاريخية لأحداث المسلسل إلى كتاب «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» للجبرتي، فإني لا أشك في رجوعهم ـ وكان لزامًا عليهم الإشارة والتنويه ـ إلى العمل العلمي القيم الذي كان لصاحبته فضل السبق بتخصيص دراسة كاملة لشخصية شيخ العرب همام وحكم جرجا (ولاية جرجا الممتدة من المنيا إلى أسوان) أو الصعيد، في فترة غامضة وضبابية من تاريخ مصر في (القرن الثامن عشر الميلادي = الثاني عشر الهجري) تحت الحكم العثماني.

هذا العمل، هو كتاب «الصعيد في عهد شيخ العرب همام»، المنشور في عام ١٩٨٧، للدكتورة ليلى عبد اللطيف أحمد؛ أستاذة التاريخ الحديث

---

(١) «تاريخ الفكر المصري الحديث» (جزءان منفصلان صدرا ضمن سلسلة كتاب الهلال)، عن دار الهلال، عام ١٩٦٩. ثم صدر الجزءان معًا بين دفتي كتاب واحد (دون تاريخ، طبعات متعددة عن دار الهلال)، وصدرت طبعة أخرى عن مكتبة مدبولي بالقاهرة مميزة بعبارة (من الحملة الفرنسية إلى عصر إسماعيل)، الطبعة الرابعة ١٩٨٧.

(٢) «الصعيد في عهد شيخ العرب همام»، ليلى عبد اللطيف أحمد، المكتبة العربية، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧.

t.me/qurssan

والمعاصر بجامعة الأزهر، والذي بذلت فيه جهدًا كبيرًا في لمّ شتات المادة التاريخية المبعثرة واستخلاصها من بين الوثائق والمتون القديمة، والتأليف بينها وتنسيقها حتى استقامت لها تلك الدراسة التاريخية «الممتعة» عن شخصية شيخ العرب همام، وصوَّرَتْ باقتدار وبراعة تلك الفترة التاريخية التي يشوبها الغموض والاضطراب في الكثير من تفاصيلها في تاريخنا الحديث.

وقدّم الكتاب وصفًا تفصيليًا لوقائع توحيد همام لقبائل الهوارة وقيادته لهم، والعلاقات بين الهوارة وأمراء المماليك، وللصراع الذي نشب بين علي بك الكبير وشيخ العرب همام، وانتهى بالقضاء على همام وأسرته وسقوط دولته في الصعيد، وكيف حكم علي بك الكبير الصعيد بعد القضاء على نفوذ همام، وهو ما يمثّل في مجموعه صورة كاشفة لجوانب مجهولة من تاريخ مصر السياسي والاجتماعي والاقتصادي في أواخر العصر العثماني، قبل قدوم الحملة الفرنسية بحوالي ربع القرن.

(٣)

بعد حوالي ثلاثين سنة من صدور كتاب الدكتورة ليلى عبد اللطيف، سيصدر كتاب آخر بمنهجية أخرى أكثر حداثة يعرض لتاريخ الثورات في صعيد مصر، ويتعرض لسيرة همام أيضًا، لكن من منظور منهجي مغاير ورؤية تفسيرية مختلفة.. الكتاب صدر عن المركز القومي للترجمة بالقاهرة، بعنوان «إمبراطوريات متخيلة - تاريخ الثورة في صعيد مصر»، وهو في الأصل أطروحة أكاديمية تقدمت بها الدكتورة زينب أبو المجد

t.me/qurssan

إلى جامعة جورج تاون الأمريكية، للحصول على درجة الدكتوراه في التاريخ؛ وهي أطروحة تمت صياغتها استنادًا إلى الأصول الوثائقية، والمصادر التاريخية الأولية، والدراسات المرجعية التي أنجزت حول الصعيد. وكانت قراءة الكتاب، الذي ترجمه إلى عربية رائقة وسلسة أحمد زكي عثمان، متعةً حقيقية، خصوصًا أنه تعرَّض في فصله الأول (الذي استغرق الصفحات ٦٣ ـ ١١٤) إلى فترة مفصلية في تاريخ مصر الحديث، وإلى شخصية مصرية «أسطورية» شُهرت في التراث والوجدان الشعبي المصري بـ «شيخ العرب همام».

ستخصِّص الدكتورة زينب أبو المجد الفصل الأول كله من كتابها لاستقصاء وتتبع دولة الأمير همام في صعيد مصر؛ ماهيتها وطبيعتها، الأحلاف الخارجية التي عقدتْها، الصراعات التي خاضتها مع المماليك، فضْلا عن تبيان جوهر العقد الاجتماعي الذي صاغته هذه الدولة مع الفاعلين الاجتماعيين داخلها؛ مثل الفلاحين والأقباط والعربان؛،كل ذلك استنادًا إلى طائفةٍ واسعة من المصادر التي ربما لم يسبقها إليها أحد (بحسب مترجم الكتاب)،

ويرسم الفصل صورة متميزة وواضحة المعالم لأول محاولة لإقامة حكم ذاتي وطني خالص في ظل الإمبراطوريات الاستعمارية المتصارعة، وهي الدولة التي شكَّلها وأقام دعائم حكمها في صعيد مصر شيخ العرب همام. لم يَحْظَ رجل الصعيد الأسطوري بما يستحقه من اهتمام لفترة طويلة، ولم يَحْظَ من العناية والبحث والدرس بنصيب يوازي ما صنعه في التاريخ المصري الحديث.

ظل الرجل مجهولًا لفترة طويلة من الزمن، على الرغم من أن تاريخه

لم يكن من ذلك النوع الذي طال عليه الأمد. فقد أسس نظامًا جنينيًا لدولة عادلة، تمتع فيها الفلاحون بدرجةٍ ما بالرفاهية الاقتصادية، وتمتع فيها الأقباط بدرجة عالية من المساواة والأمان وأراحتهم، وهذا هو الأهم، من بطش حكم المماليك واستبدادهم. ويُظهر التحليل التاريخي المتقن الذي تقدِّمه الدكتورة زينب أبو المجد كيف أن القائد الأسطوري تمكن من بسط نفوذه على إقليم الصعيد ككل، ونجح بتحالفات سياسية ملهمة ومدهشة في نسج العلاقات وتَمْتِينِها بصورة غير مسبوقة مع السلطان العثماني في الأستانة(١).

(٤)

وبعد هذا الاستعراض الموجز لمصادر السيرة الهمَّامية.. فمن هو شيخ العرب «همام»؟

ينتمي شيخ العرب «همام» إلى قبائل الهوارة العربية التي هاجرت إلى مصر آتيةً من المغرب في عهد الدولة الفاطمية، ونزلت صعيد مصر واستقرت به في (٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م). وهي من أكبر القبائل العربية، ومن أقواها وأشدها بأسًا وأكثرها عددًا وأقدرها على الحكم، وتمتعت بقدر هائل من الثروة والنفوذ، وسيطر شيوخها؛ «شيوخ العرب»، على مقاليد الأمور فى الصعيد حتى عام ١٥٧٥م (٨٩٣هـ).

وأشار جورجي زيدان إلى قبيلة الهوارة، في ثنايا كتابه «تاريخ مصر

---

(١) «إمبراطوريات متخيلة ـ تاريخ الثورة في صعيد مصر»، زينب أبو المجد، ترجمة أحمد زكي عثمان، المركز القومي للترجمة، ص ٩٤، وما بعدها..

 t.me/qurssan

الحديث»[1]، وذكر أنها «كانت في جملة القبائل الثائرة في مصر، وهي أشدهن بأسًا وأطولـ(هن) باعًا، جاءت في الأصل من ضواحي تونس الغرب، واستقرت بين جرجا وفرشوط، في بقعة من الأرض لم تكن تصلح للزراعة، فاعتنوا فيها حتى أنشأوا عدة قرى. وما زالوا ينشرون سطوتهم حتى احتلوا جميع البقاع بين هوارة وكفر الشيخ سليم..».

أما «همام»، فهو شيخ العرب همام بن يوسف بن أحمد بن محمد بن همام بن صبيح بن سيبية الهواري.. الذي آلت إليه زعامة قبائل الهوارة، فهو كبير الهوارة، وزعيم الصعيد، وأميره وحاكمه، من أدناه إلى أقصاه، المولود في عام ١٧٠٩م، وورد ذكره في صفحات كثيرة متفرقة من كتاب شيخ المؤرخين عبد الرحمن الجبرتي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» في المجلد الأول[2]، وترجم له ترجمة شبه وافية، كما ترجم له علي باشا مبارك في الجزء الرابع عشر من كتابه «الخطط التوفيقية الجديدة»، اعتمد فيها إلى حد كبير على ما ذكره الجبرتي في تاريخه.

كما ذكره جورجي زيدان في الجزء الثاني من كتابه «تاريخ مصر الحديث».. وخلّط (أو كما نقول في عاميتنا الدارجة خربط أو لخبط!) في اسم شيخ العرب «همام»، وذكره محرفًا باسم «الشيخ هامان»، وهو تحريف فاحش لاسم «همام»، لا نعلم إن كان عن جهل وعدم معرفة من جورجي زيدان أم عن عدم تدقيق وبذل الجهد في محاولة الرجوع إلى المصادر التاريخية اللازمة، وعلى رأسها (تاريخ الجبرتي)، وهو المصدر العمدة في أخبار ووقائع شيخ العرب همام.

---

(١) ج ٢/ ص٦٠، ٦١.

(٢) ص٣٤٣ وما تلاها.

t.me/qurssan

وشيخ العرب همام هو صاحب أول محاولة «ثورية»، «استقلالية»، في الصعيد على الفساد المتغلغل في أوصال نظام الحكم الاستعماري في مصر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر نتيجة لانحلال السلطة العثمانية المركزية، وازدياد الطغيان والبطش المملوكي وإساءة حكم الطبقة الحاكمة من المماليك. وأقام «همّام» ما يشبه الجمهورية المستقلة عن مركزية الحكم العثماني في القلعة، وعن سيطرة المماليك وزعيمهم شيخ البلد في القاهرة.

ويذهب الدكتور لويس عوض في كتابه «تاريخ الفكر المصري الحديث» إلى أن الشيخ همام هو «منشئ الجمهورية» بالصعيد، وأن حكمه كان حكمًا جمهوريًا ديموقراطيًا، وأنه أسّس حياة نيابية أو أشبه بالنيابية، ووزع الأرض على الفلاحين، وأنه مثّل حلقة من سلسلة حلقات ثورات المصريين على الحكم الأجنبي أو على تفشي العلاقات الإقطاعية بين مُلاك الأراضي والفلاحين.. يقول لويس عوض في كتابه[1]:

«والذين يصورون تاريخ مصر السياسي والاجتماعي في العصر التركي المملوكي على أنه كان عصر خمول تام يُسيئون فهم هذا العصر من تاريخ البلاد.. ففي كتب تاريخ مصر الإسلامية ما يثبت أن ثورات المصريين ـ سواء على الحكم الأجنبي أو على العلاقات الإقطاعية ـ كانت لا تنقطع في فترات عديدة من هذا العصر الكئيب، وكانت آخر هذه الثورات قبل مجيء بونابرت بسنوات قليلة، وكانت ثورة عاتية انتهت

(١) «تاريخ الفكر المصري الحديث» (من الحملة الفرنسية إلى عصر إسماعيل)، مكتبة مدبولي، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧، ص١١.

بانفصال الصعيد الأعلى وتوزيع أرضه على الفلاحين، وقيام حكم شبه جمهوري فيه على يد زعيم الهوارة شيخ العرب الأمير همام الكبير».

وكان ظهور همام في وقتٍ كان في أشد الحاجة إلى رجل مثله يُقر الأمن، ويحمي الفلاحين من ظلم الإدارة، وبطش المماليك، ومتاعب الأعراب، من نهب وسلب وتشريد وتهديد للأمن والاستقرار، ونجح في تحويل الصعيد القاسي النائي، المشهور بالفتن والثارات والصراعات القبلية، إلى منطقة ذات رفاهة وثروة وأمن واستقرار ورخاء ومصدر للغِلَالِ والقصب، لتكون موردًا اقتصاديًا غير مسبوق في تاريخ مصر.

يقول جورجي زيدان: «ثم اغتنم الشيخ هامان (يقصد الشيخ همام) شيخ الهوارة اشتغال مصر بما تقدم (من اضطرابات وسوء إدارة وصراعات بين أمراء المماليك) ووضع يده على البلاد من أسيوط إلى أصوان (كذا!) وجمع إليه محصولاتها».

وقام همام برفع قواعد مجتمع جمهوري تكافلي تعاوني (إن جاز التعبير!) يقوم على العدل، والمساواة، والعدالة الاجتماعية، ورفع المظالم عن المظلومين، وصون الأعراض، وحماية الأراضي، وساوى بين الجميع في المعاملات والحقوق والواجبات، لم يفرِّق في ذلك بين أبناء قبيلته، وغيرهم من أبناء القبائل الأخرى، أو بينهم وبين الفلاحين الذين كانوا يزرعون أرضهم أو من العرب الآخرين، فالكل سواء أمامه في الحقوق والواجبات.

يقول رفاعة الطهطاوي في كتابه «تخليص الإبريز في وصف باريز» (١٨٣٤م):

«.. ولكن لما كانت الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة،

t.me/qurssan

وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم، وهذا ما حصل فى زمن حكم الهمامية، فكانت الصعيد جمهورية التزامية». ومن الغريب أن هذا النص للطهطاوي قد أُسقط من طبعات الكتاب المتالية، ولم يلتفت إلى ذلك سوى الدكتور لويس عوض في كتابه «تاريخ الفكر المصري الحديث».

وكان من الطبيعي أن يصطدم شيخ العرب همام بطموح علي بك الكبير الذي لا يُحَدُّ.. الذي تولى «مشيخة البلد»، وتزعم المماليك في ذلك الحين.

(٥)

في القرن الثامن عشر كان البكوات من المماليك، الذين كانوا يختارون من بينهم «شيخ البلد» ـ وهو المنصب الذي يضمن لصاحبه الوصول إلى زعامة المماليك جميعًا والسيطرة على مقاليد الحكم والأمور في مصر كلها ـ، أقوى نفوذًا من الولاة العثمانيين، يثورون عليهم ويحصرون في أيديهم حكومة البلاد الفعلية.

وكان علي بك الكبير مملوكًا طموحًا نشيطًا حريصًا على رفع لياقته البدنية وكفاءته القتالية، وكان يوالي نفسه بالتدريب والتمرين الشاقَّين المستمرَّين على ركوب الخيل والرماية باستخدام الأسلحة النارية «الغدارة»، وبلغ في ذلك شأوًا بعيدًا لم يسبقْ إليه في إصابة الهدف أو إخطاء مرماه، وعُرف بذلك وشُهر عنه حتى لقب بـ «الجِنْ علي»؛ أي النشيط الماهر البارع الذي يَغْلِب ولا يُغْلَب.

وعندما أصبح علي بك الكبير شيخًا للبلد عمل على إحكام قبضته على ربوع مصر وأرجائها، وسعى إلى أن يوحِّد البلاد المصرية من ساحل البحر المتوسط شمالًا حتى أسوان جنوبًا، ويعلن استقلالها عن السلطة العثمانية في الآستانة.

في سبيل ذلك الطموح قام بإرسال «تجريدة حربية» (حملة عسكرية) للصعيد بقيادة زوج ابنته محمد بك أبو الذهب لقَمْعِ الهوارة والقضاء على زعامة ونفوذ شيخ العرب همام، ودارت مواجهات وصراعات شرسة بين الطرفين كادت أن تنتهي بانتصار شيخ العرب همام لولا لجوء المماليك إلى سلاحهم الشهير المعروف «الخيانة». حيث قاموا باستمالة الشيخ إسماعيل بن عبد اللـه الهواري، ابن عم همام، مما أدى إلى انسحابه برجاله من جيش همام، وترتب على ذلك هزيمة جيش همام وانكساره أمام قوات محمد بك أبو الذهب.

يقول جورجي زيدان: «في سنة ١١٨٣هـ أرسل علي بك صديقه محمد بك أبا الذهب لمحاربة الشيخ هامان (همام) وقبيلته فحاربهم وتغلب عليهم في أواخر تلك السنة. فاضطر أبناء الشيخ أن يبتاعوا حياتهم بما لديهم من ثروة أبيهم».

(٦)

أشار الجبرتي في تاريخه إلى صفات همام وخصاله الشخصية الفريدة التي اشتهر بها من كرم وافر وجُودٍ موصول غير مقطوع، وإكرام للضيوف والوافدين عليه من اللاجئين والمستجيرين، ووصل المحتاجين وتكريم

وإكرام العلماء، كما عُرف بالشهامة والمروءة ونجدة المحتاج وتقديم العون وإنصاف المظلوم وإغاثة الملهوف وإرساء العدالة.. وكان يجلس في المجالس العرفية التي كان يستمع فيها إلى شكاوى الناس ومشاكلهم ويقضي فيها بنفسه.. وكذلك أشار الجبرتي إلى إدارته الواسعة لجيش من الموظفين والمحاسبين واستعانته بالأقباط برئاسة كاتبه وأمين سره «بولص» كبير الكتبة والمحاسبين في ديوانه، لإدارة وتسيير أراضيه ومتابعة مسائل الالتزام. وكان همام ذا حنكة وخبرة ومهارة في إدارة كل هذه الأمور.

وللأمانة فإن «الجبرتي» قد خلّد شخصية شيخ العرب همام بما كتبه عنه في تاريخه، يرسم بورتريها رائعًا للرجل ولعصره ولبدايته ولنهايته، أتصور أنها تمثل تراجيديا إنسانية وبطولية كبرى، بلا شك هي التي ألهمت عبد الرحيم كمال مسلسله الرائع، ولعل هذا المقطع الذي أنقله عنه، بنصه وحرفه، يبرز بعضًا من هذه الصورة التي لا نراها كثيرًا في كتب التاريخ والتراجم! يقول الجبرتي في معرض تسجيله لوفيات العام ١١٨٣ هجرية (وهي السنة التي مات فيها همام):

«وفيها، مات الجناب الأجل والكهف الأظل الجليل المعظم والملاذ المفخم الأصيل الملكي ملجأ الفقراء والأمراء ومحط رحال الفضلاء والكبراء شيخ العرب الأمير شرف الدولة همام بن يوسف بن أحمد بن محمد بن همام بن صبيح بن سيبيه الهواري عظيم بلاد الصعيد، ومن كان خيره وبره يعم القريب والبعيد، وقد جمع فيه من الكمال ما ليس فيه لغيره مثال، تنزل بحرم سعادته قوافل الأسفار، وتلقى عنده عصي التسيار وأخباره غنية عن البيان، مسطرة في صحف الأمكان، منها أنه

إذا نزل بساحته الوفود والضيفان تلقاهم الخدم، وأنزلوهم في أماكن معدة لأمثالهم، وأحضروا لهم الاحتياجات واللوازم من السكر وشمع العسل والأواني، وغير ذلك من مرتب الأطعمة في الغداء والعشاء والفطور في الصباح والمربيات والحلوى مدة إقامتهم، لمن يعرف ولمن لا يعرف، فإن أقاموا على ذلك شهورًا لا يختل نظامهم، ولا ينقص راتبهم، وإلا قضوا أشغالهم على أتم مرادهم، وزادهم إكرامًا وانصرفوا شاكرين، وإن كان الوافد ممن يرتجي البر والإحسان أكرمه وأعطاه، وبلغه أضعاف ما يترجاه، ومن الناس من كان يذهب إليه في كل سنة ويرجع لكفاية عامِه، وهذا شأنه في كل من كان من الناس»..

ويتابع الجبرتي:

«وأما إذا كان الوافد عليه من أهل الفضائل أو ذوي البيوت قابله بمزيد من الاحترام، وحياه بجزيل الأنعام، وكان ينعم بالجواري والعبيد والسكر والغلال والتمر والعسل، وإذا ورد عليه إنسان ورآه مرة وغاب سنين ثم نظره وخاطبه عرفه وتذكره ولا ينساه، وحاله فيما ذكر من الضيفان والوافدين والمسترفدين أمر مستمر على الدوام لا ينقطع أبدًا، وكان الفراشون والخدم يهيئون أمر الفطور من طلوع الفجر فلا يفرغون من ذلك إلا ضحوة النهار، ثم يشرعون في أمر الغداء من الضحوة الكبرى إلى قريب العصر، ثم يبدأون في أمر العشاء فلا يفرغون من ذلك إلا بعد العشاء، وهكذا».

وعنده «من الجواري والسراري والمماليك والعبيد شيء كثير، ويطلب في كل سنة دفتر الأرقاء، ويسأل عن مقدار من مات منهم، فإن وجده خمسمائة أو أربعمائة استبشر وانشرح، وإن وجده ثلثمائة أو أقل أو نحو

ذلك اغتم وانقبض خاطره، ورأى أنها ربما كانت في أعظم من ذلك، وكان له برسم زراعة قصب السكر وشركه فقط اثنا عشر ألف ثور، وهذا بخلاف المعد للحرث ودراس الغلال وحواصل السكر والتمر بأنواعه والعجوة فشيء لا يعد ولا يحد، وكان الإنسان الغريب إذا رأى شون الغلال من البعد ظنها مزارع مرتفعة لطول مكث الغلال وكثرتها، فينزل عليها ماء المطر، ويختلط بالتراب فتنبت وتصير خضراء كأنها مزروعة».

ويضيف «الجبرتي»: «وكانت له صلات وإغداقات وغلال يرسلها العلماء وأرباب المظاهر بمصر في كل سنة، وكان ظلًا ظليلًا بأرض مصر، ولما ارتحل لزيارته شيخنا السيد محمد مرتضي، وعرف فضله أكرمه إكرامًا كثيرًا، وأنعم عليه بغلالٍ وسكر وجوارٍ وعبيد، وكذلك كان فعله مع أمثاله من أهل العلم والمزايا، ولم يزل هذا شأنه حتى ظهر أمر علي بك، وحصل ما تقدم شرحه من وقائعه مع خشاشينه [يقصد خشداشيته!]، وذهابه إلى الصعيد، وصلحه مع صالح بك وانضمامه إليه، وكان المُتَرْجَم صديقًا لصالح بك وعشيرته، فأمدهما بالمال والرجال مراعاة لسعي صالح بك حتى تم لهما الأمر».

ثم «غدر «علي بك» بصالح بك، وخرجت رجاله وأتباعه إلى الصعيد، وأعلموه بما أوقعه بهم «علي بك»، فاغتمّ على فقْدِ «صالح بك» غما شديدا، وحمله ذلك على أن أشار عليهم بذهابهم إلى أسيوط وتملكهم إياها فإنها باب الصعيد، فذهبوا إليها مع جملة من المنافي من مصر والمطرودين كما تقدم، وأمدهم شيخ العرب المترجم حتى ملكوها وأخرجوا من كان بها، واستوحش منه «علي بك» بسبب ذلك، وتابع إرسال التجاريد...»

ومات شيخ العرب «همام» بعد أن أدركه حزن قاتل جراء تخلي ابن عمه ورفيقه الشيخ إسماعيل عبد اللـه عنه، مما اضطر معه إلى التقهقر والانسحاب من مسقط رأسه، وموطنه، وعاصمة نفوذه ومجده، فرشوط، ومات «مكمودًا مقهورًا قرب إسنا في قرية قمولة» في ٨ من شعبان ١١٨٣هـ/ ٧ ديسمبر - وفي رواية أخرى «أول نوفمبر» - من سنة ١٧٦٩م، وقيل إنه دُفن بهذه القرية.

وبوفاة شيخ العرب همام انطوت صفحة فَذَّة وفريدة من صفحات البطولة والشرف والجاه التي شهدتها مصر في القرن الثامن عشر، لكن مع انطواء هذه الصفحة سُطرت صفحاتٌ من الذِّكْرِ الخالد والسيرة العطرة التي ظلت في قلوب محبيه وذاكري فضله بين أهل الصعيد جميعًا، سواء بين أبناء قبيلته الهوارة أو من غيرهم من أبناء القبائل الأخرى، وما زال أهل الصعيد إلى الآن يحفظون أجمل الذكرى للشيخ همام ويرددون أخباره ومآثره، ويخلدونه في أغانيهم ومواويلهم الشعبية لتظل سيرة شيخ العرب «همام» هي خاتمة السير الشعبية العربية لأبطالها وفوارسها الأسطوريين.

t.me/qurssan

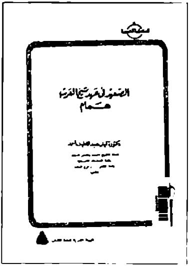

كتاب «الصعيد في عهد شيخ العرب همام»

كتاب «إمبراطوريات متخيلة»

صورة متخيَّلة لشيخ العرب همام

t.me/qurssan

t.me/qurssan

٢

«علي بك الكبير»..
وما الدنيا إلا ساحة صراع كبير!

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١)

تروي كتب التراجم والسير أن شيخ بلد مصر في القرن الثامن عشر إبراهيم كتخدا، كان في حوزته أكثر من ألفي مملوك، كان من جملتهم مملوك صغير السن؛ كان ابنًا لقسيس مسيحي تمَّ اختطافه وجلبه في سوق الرقيق وبيعه في أسواق النخاسة؛ لكن هذا المملوك سيكون له شأن عظيم في تاريخ مصر، «وسترى في سيرته أنه من أفراد الدهر حزمًا وبطشًا وحكمة»، على ما يقول المؤرخون.

كان هذا المملوك سلحدارًا بين مماليك إبراهيم كتخدا (أي هو المسئول عن حمل سلاح سيده البك)؛ وكان إبراهيم يحبه كثيرًا ويُجِلّ مواهبه حتى جعله ناقلَ سيفه. ومما زاده تعلقًا به أنه اصطحبه إلى الحرمين في قافلة، وكان قد صار كاشفًا (أي أميرًا على الجند) فسار قائدًا لتلك القافلة، فلاقاهم في الطريق عصابة من اللصوص، فدفعهم (واجههم) عليّ بقلب لا يهاب الموت، فلقَّبوه بالجنِّي.

ومن هنا؛ سيظهر على مسرح التاريخ المصري في القرن الثامن عشر، شخصية عجيبة ذات حيل مدهشة ومغامرات أغرب من الخيال؛ لكنه في الوقت ذاته سيحتل مكانه في سِجِل تاريخ المحروسة؛ باعتباره البروفة الأولى لمشروع استقلال مصر عن الحكومة العثمانية؛ وستكون محاولته

t.me/qurssan

هذه ملهمة لتاجر الدخان الألباني، القادم من بلاد الصخور والتلال، محمد علي باشا، لينشئ دولة مصر الحديثة بعد ذلك بحوالي ٣٢ سنة..

إنه علي بك الكبير الشهير في شبابه بـ «الجن علي»، والرجل القوي في القلعة، وشيخ بلد مصر، وأخيرًا سلطان وقائمقام المحروسة.

لكن القصة بدأت قبل ذلك بكثير؛ إنها بدأت مع الاحتلال العثماني لمصر عام ١٥١٧؛ واستمرت قرابة القرون الثلاثة حتى قدوم حملة نابليون بونابرت على مصر عام ١٧٩٨، تخلَّلَتْها مشاهد ووقائع وأحداث جسام؛ طوال هذه الفترة لم تفترْ طموحات المماليك في استعادة سلطانهم، أبدًا، وقد تحققت بدرجة ما عندما نجح علي بك الكبير (١٧٥٥ ـ ١٧٧٢) في القرن الثامن عشر في الاستقلال بمصر، وضم أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة العربية، واليمن، والشام إليها.

خرجت مصر فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي من تجربة لم يُقَدَّرْ لها النجاح، وانتهت محاولة علي بك الكبير للنهوض بمصر، والاستقلال عن الدولة العثمانية، بهزيمته بسبب خيانة أقرب معاونيه، محمد بك أبو الذهب، وإذا كان العثمانيون قد استعادوا سيطرتهم على البلاد بعد أن هزموا علي بك الكبير، فإن نفوذ بكوات المماليك كان قد خرج عن السيطرة، فأصبح محمد بك أبو الذهب، ومن بعده مراد بك، وإبراهيم بك، هم الحكام الفعليين للبلاد.

والتاريخ لا ينسى أن عصر المماليك بكل ما فيه، وما وصلنا منه من روائع العمارة الإسلامية والتحف الفنية (لا شك أنه كان ذروة ما وصل إليه الفن الإسلامي بإجماع الآراء)، كان عصرًا بلا قلب، وبقدر

ما تبدو ملامحه الآن رومانتيكية (بعبارة صلاح عيسى الناعمة الأنيقة)، بقدر ما كان واقعه شديد القسوة، ميت القلب؛ إذ تسلَّطَتْ على مصر انذاك شراذم من الناس، بلا ضمير وبلا أخلاق.

كان الصراع مريرًا بين الفرق العسكرية العثمانية، ورؤساء المماليك في مصر تحت الحكم العثماني، في النصف الأول من القرن الثامن عشر، وهي السمة التي تميزت بها هذه الفترة التي شهدت الصراع بين هذه الفرق وانهيار النظام الذي وضعه كلٌّ من السلطان سليم الأول والسلطان سليمان انهيارًا يكاد يكون تامًّا، وهو ما أدى في النهاية إلى سيطرة المماليك البكوات على مقاليد الأمور في مصر، التي بلغت مداها بحركة علي بك الكبير الانفصالية الكبرى، واستقلاله بحكم مصر.

في العام ١٧٦٠ انتهى تنازُع المماليك إلى سيطرة علي بك الكبير على منصب «شيخ البلد»، واستطاع أن يكوِّن جيشًا قوامه ٦ آلاف مملوك، تغلَّب به على منافسيه المماليك الآخرين «عبد الرحمن كتخدا»، و«صالح بك شاهين»، و«حسين بك كشكش»، ولكنه لم يستطع أن يسيطر على الصعيد الذي كان يدين بالخضوع لشيخ العرب همَّام إلا بعد مواجهات عنيفة كادت فيها الغلبة تتمُّ لهمام لولا التجاء علي بك الكبير إلى سلاح المماليك الأشهر «الخيانة» و«شراء الذمم»!

كان الجيش الذي كوَّنه شيخ العرب همام قوامه ٣٥ ألف مقاتل من الهوارة والمماليك، وخاض صراعًا شرسًا مع محمد بك أبو الذهب رجل علي بك الكبير حتى ذلك الوقت، واضطرَّ علي بك إلى إرسال ثلاثة جيوش متتالية لاستعادة أراضٍ من زمام شيخ العرب عام ١٧٦٨، ثم استمر الزحف جنوبًا للقضاء التام على «مُلك همام»، وتمت استمالة

ابن عمه إسماعيل أبو عبد اللـه، واقتحم جيش محمد بك أبو الذهب فرشوط وأباحها لجنوده الذين عاثوا فيها نهبًا وسلبًا وتقتيلًا وتشريدًا وإيذاءً، وبسبب ذلك ترك شيخ العرب «فرشوط»، واتجه إلى «إسنا»، ليموت فيها مقهورًا لانتهاء ملكه.

من هذه اللحظة، سيفرض علي بك الكبير كامل سلطانه على مصر المحروسة من الإسكندرية شمالًا وحتى أسوان جنوبًا؛ ثم يبدأ مشروعه التوسعي الكبير، وفي تسمية أخرى مشروعه الانفصالي الكامل عن الحكم العثماني؛ وينجح علي بك في بسط سلطانه ونفوذه على اليمن، وشبه جزيرة العرب، وعلى سوريا، وفلسطين، ويعقد تحالفًا عسكريًّا متينًا مع صديقه والي عكا الأمير ضاهر العمر.

لكن الأيام دول، وكما تدين تدان؛ وكما اعتمد علي بك الكبير سلاح المؤامرة والخيانة في القضاء على خصومه والانقضاض عليهم، استعان عليه العثمانيون بالسلاح ذاته؛ فاشتروا رجله القوي ومحل ثقته محمد بك أبو الذهب؛ الذي انقلب عليه وانشقَّ بجيشه عنه، وكانت هذه بداية النهاية في حكم علي بك الكبير.

(٢)

ثمة كتابان مهمان عرضا جانبًا أو جوانب من سيرة وتاريخ هذه الشخصية المثيرة في تاريخ مصر قبل الحملة الفرنسية؛ أولهما وأقدمهما كتاب صغير الحجم، لكنه شديد الأهمية ويمثِّل قيمة تاريخية كبيرة؛ إذ عرض هذا الكتاب ـ الذي ألفه الشيخ إسماعيل الخشاب، أحد أبرز

الأسماء المثقفة في مصر المحروسة في هذه الفترة ـ تاريخ وسيرة علي بك الكبير.

الكتاب اسمه «تاريخ حوادث وقعت بمصر من سنة ١١٢٠هـ إلى دخول الفرنسيين»؛ وهو كتاب صغير أرَّخ فيه لمصر في القرن الثامن عشر حتى مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر في عام ١٧٩٨م. وفي كتابه هذا، لا يُخفي الشيخ الخشاب إعجابه الشديد بشخصية علي بك الكبير، ومصدر إعجابه وحبه له راجع إلى استتباب الأمن في عصره، فيقول: «وانفرد علي بيك من ذلك الوقت بمملكة مصر، وأتقن الأحكام وساس في الرعية، سياسة عظيمة، وكان أميرًا عاقلًا حاكمًا، أمنت في وقته الطرق من اللصوص والعربان، وقطاع الطريق، وكان مهابًا عظيمًا».

وهو موضوعي، لا يكتفي بذكر حسنات علي بك الكبير، ولكنه يذكر أيضًا عيوبه ومساوئ عصره، فبعد أن يذكر حسناته، يقول: «غير أنه حدث في أيامه حوادث لم يُعهد وقوع مثلها، منها أنه جعل الجامكية نصفين، يقبض نصفها نقدًا ونصفها أوراقًا فيباع كل ما به نصف بخمسين، وكان هذا مبادئ ظهور الفساد». وعلى الرغم من أن مصر كانت في ذلك الوقت مجرد ولاية عثمانية، فإن الخشاب يعتبرها مملكة، وأشار إلى ذلك عدة مرات، مثال ذلك عندما استولى علي بك الكبير على مقاليد الأمور في مصر يقول: «وانفرد علي بيك من ذلك الوقت بمملكة مصر».

ولعل الخشاب فعل ذلك تحت تأثير حبه الشديد لمصر، أو أنه لاحظ أن سيادة الدولة العثمانية على مصر ـ في ذلك الوقت ـ كانت مجرد سيادة اسمية، وأن الأمراء المماليك كانوا هم الحكام الفعليين للبلاد، وبذلك

فإن مصر كانت تتوافر لها كل سمات الدولة المستقلة، ولهذا فقد سماها «بالمملكة».

وكتاب الخشاب رغم إيجازه، وصغر حجمه، فإنه ذو قيمة للمشتغلين بتاريخ مصر في القرن الثامن عشر، وقد اعتنى في مؤلَّفه رغم الإيجاز الشديد، بذكر تفاصيل دقيقة لم تَرِدْ عند المؤرخين المعاصرين له، خاصة بعض التفاصيل المتعلقة بالصراعات بين أمراء المماليك، وربما يرجع ذلك إلى اختلاطه بهؤلاء الأمراء، وقد تأثَّر الخشاب في تدوينه للحوادث التاريخية بثقافته الأدبية الواسعة وإلمامه بالطرف والنوادر، فزوَّد مؤلَّفه ببعض النوادر والأشعار، ورغم أن النص الذي قدَّمه الخشاب موجز لا يتجاوز الخمسين صفحة من القطع الصغير، فإنه مثَّل إسهامًا مصريًّا مهمًّا في إعداد الجزء التاريخي من كتاب «وصف مصر».

أما الكتاب الثاني «علي بك الكبير» للمؤرخ محمد رفعت رمضان؛ والذي صدرت منه طبعة حديثة قبل سنوات عن دار الكتب والوثائق القومية، فأنجزه صاحبه كأطروحة علمية للحصول على درجة الماجستير في التاريخ منتصف القرن الماضي، تحت إشراف المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال. ويقدِّم الكتاب دراسة تاريخية تحليلية ممتازة لسيرة وتاريخ علي بك الكبير، وفق مناهج البحث التاريخي المعاصر (آنذاك).

ومن الأهمية البحث عن المصادر المتعلقة بحقبة علي بك الكبير، التي لم تُدرس بعناية كبيرة بحسبِ مؤرخين ثقات؛ نتيجة غياب التعامل مع مصادر هذه الحقبة المهمة من ناحية، وبسبب معالجتها المشوَّهة التى نظرت إلى حركة علي بك الكبير وما وازاها من البيوت المتنفذة ببلاد الشام (حكم الأمير ضاهر العمر والي عكا لمدن الشام وفلسطين) في

سياق يحصرها فى نطاق الحركات الانفصالية؛ وهو تصوُّر ينبع من منظور أيديولوجي، كما يقول الدكتور ناصر إبراهيم؛ لأن هناك توجهات أخرى نرى أن الحراك السياسي جاء نتيجة تغيرات عميقة إقليمية ودولية، وأن منطقة المشرق العربي عبَّرت عن إرادتها فى البحث عن حماية نفسها ومصالحها؛ لتفادى المؤثرات السلبية الناجمة عن ضعف الدولة العثمانية وتوالي هزائمها على محيط أطراف الإمبراطورية المتهالكة.

(٣)

انطلق أمير الشعراء أحمد شوقي إلى فن المسرح، منذ وقت مبكر في صدر شبابه، وكانت المسرحية الأولى التي كتبها ونشرها وهو لا يزال طالبًا في فرنسا سنة ١٨٩٣ هي مسرحية «علي بك الكبير»، وهي المسرحيَّة ذاتها التي أعاد كتابتها بعد ذلك بأسلوبه الشعري القوي (سنة ١٩٣٢)، بعد أن اتجه نهائيًّا إلى الشعر التمثيلي في سنة ١٩٢٧ وأصدر سلسلة مسرحياته المعروفة.

تصوِّر المسرحية الانحلالَ الخلقي وتأجُّج الشهوات بين المماليك خلال الحكم العثماني الفاسد، ولم يُرِدْ شوقي أن يعرض مأساة بشرية في ذاتها، بل أراد، كما يدلُّ عنوان مسرحيته مباشرة، أن يصوِّرَ حال المماليك ودولتهم في تلك الفترة، متَّخِذًا من شخصية علي بك الكبير مدخلًا لها، أي أنه أراد تصوير حالة سياسية واجتماعية تفشت في ذلك العصر أكثر من تصويره لمأساة فردية بذاتها. ويوضح المرحوم محمد مندور في دراسته عن مسرحيات أحمد شوقي مبرراته (أي أحمد شوقي) لاختياره

شخصية علي بك الكبير لتدور حولها أحداث مسرحيته.

يقول مندور إن شوقي قد اختار علي بك الكبير بطلًا لمسرحيته؛ لأنه «علم من التاريخ أن هذا المملوك كان رجُلا طموحًا استقلَّ بمصر عن حكم الأتراك، واتَّخَذَ لنفسه لقب السلطان عام ١٧٦٩، ووسَّع من رقعة ملكه بالاستيلاء على اليمن وجدة ومكة وشبه جزيرة العرب، ثم استولى على غزة ونابلس والقدس ويافا وصيدا ودمشق، وعندئذٍ احتال الأتراك للأمر بالمكر والدهاء، فاصطنعوا محمد بك أبو الذهب الذي كان مملوكًا تبناه علي بك الكبير، فغدر أبو الذهب بسيده وما زال به حتى قتله، وخلفه في الولاية على مصر».

غير أن شوقي في استلهامه للأحداث التاريخية المتصلة بسيرة علي بك الكبير، رأى أنها وحدها لا تكفي لصنع دراما مؤثرة، فاختلقَ خطًا دراميًا متخيَّلًا يدور حول قصة غرام مراد بك بآمال الجارية التي اشتراها علي بك الكبير، واتخذ منها زوجة له. ويقول مندور إن شوقي قد نجح في الربط بين الموضوعين، بأن جعل مراد بك يتآمر مع محمد بك أبو الذهب لكي يفوز بمحبوبته آمال بعد قتل زوجها، كما تخيل شوقي ما أطلق عليه مندور «انقلابًا مسرحيًا»، بأن جعل شخصية أطلق عليها نوال أختًا لمراد بك، الذي لا يكتشف هذه الحقيقة إلا في نهاية المسرحية، عندما يكشف لها عنه والده ووالدها النخاس مصطفى الياسرجي.

ستكون هذه المسرحية بنواتها التاريخية وأحداثها المتخيلة ملهمة لصناع مسلسل درامي سيتمُّ إنتاجه في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي؛ يدور حول شخصية علي بك الكبير وقائده وذراعه الأيمن الذي سيغدر به شر غدرة محمد بك أبو الذهب!

(٤)

في العام ١٩٨٩، عرض التليفزيون المصري مسلسلًا دراميًّا بعنوان «الحب في عصر الجفاف»، من تأليف وسيناريو وحوار محمد أبو العلا السلاموني، وإخراج حسين حامد، وكتب أغاني المقدمة والنهاية الشاعر شوقي خميس، وموسيقى تصويرية وألحان د. جمال سلامة، وغناء المقدمة والنهاية لـأحمد إبراهيم؛ وقام بالمراجعة العلمية والتاريخية المؤرخ الراحل القدير د. عبد الرحيم عبد الرحمن.

أما البطولة، فكانت للكبير عبد اللـه غيث، وأحمد ماهر، وتيسير فهمي، ويحيى شاهين، وشكري سرحان، وأنور إسماعيل، وليلى حمادة، وأسامة عباس، وميمي جمال، وحمدي حافظ، وعادل المهيلمي، وعبد العزيز غنيم، وتوفيق عبد الحميد.. وعدد كبير من ألمع أسماء التمثيل والأداء من أجيال مختلفة.

ورغم حداثة سني حين مشاهدتي لهذا المسلسل، جذبني بأزيائه التاريخية الباذخة، وبأداء عبد اللـه غيث الاحترافي، فضلًا عن أن سرد الأحداث لم يكن معقَّدًا ولا ملتويًا. أذكر أنني كنت مشدودًا للغاية في الحلقة الأخيرة التي سيموت فيها علي بك الكبير بعد خيانة محمد بك أبو الذهب له؛ وأذكر أنني تأثرت بشدة، وأنا أرى دموع أحمد ماهر تنهمر بغزارة ندمًا على خيانة أستاذه وولي نعمته أثناء احتضاره!

الغريب أن صورة علي بك الكبير كما صورها المسلسل، كانت تحمل كل آيات البطولة والإقدام والمثالية، وتعاملت الدراما معه بمنطق أنه

t.me/qurssan

أحد أبطال مصر العظام؛ خدمَ الإسلام والعروبة والأمة جميعًا! فكان الوجه الحسن المضيء لهذه الشخصية هو ما حرصت الحلقات الثمانية عشرة أن تُبرزه.

بعد هذا التاريخ بحوالي واحد وعشرين عامًا (تحديدًا عام ٢٠١٠) سيجسد الفنان عزت أبو عوف شخصية علي بك الكبير أو «الجن علي»، لكن هذه المرة من الجانب الآخر؛ الجانب الأكثر واقعية واتساقًا مع السيرة التاريخية المثبتة لعلي بك الكبير، خاصة في النصف الأول من حياته، قبل أن يدين له حكم مصر بالكامل، ويبدأ حركته الانفصالية عن الإمبراطورية العثمانية!

سيؤدي عزت أبو عوف واحدًا من أبرع أدواره ويتفنن في إبراز جوانب الخِسَّة والنذالة والانحطاط في هذه الشخصية المعقدة المركبة..

وهكذا الدراما، وهكذا يشتغل خيال المؤلفين والمخرجين في استلهامهم لسير الشخصيات التاريخية الإشكالية؛ بحسب منحى واتجاه وهدف كل منهم، والتأثير الذي يريدون إحداثه في المتفرج؛ وهكذا جسدت الدراما شخصية علي بك الكبير بصورتين متناقضتين تمامًا؛ فظهر في الأولى بطلًا تراجيديًّا مثاليًّا بامتياز، وظهر في الثانية شخصية واقعية شديدة الدناءة والخسة لا تصون المعروف ولا تعرف الشرف، الغاية لديها تبرر الوسيلة، لا يحفظ عهدًا ولا يرعى حُرمة أو كما وصفه شيخ العرب همام (الشخصية التي أدَّاها يحيى الفخراني باقتدار لا مزيد عليه): «الخسيس النذل عديم الأبو»، في إشارة إلى انعدام اتصال نسبه إلى أصل شريف وجذر كريم وعائلة عريقة؛ وبتلميح وتعريض إلى أنه مجلوب عبد لا يصل إلى مرتبة الشرفاء الكرام من السادة كما كان معروفًا آنذاك.

نعم.. للحقيقة دائمًا وجهان.. بل وجوه متعددة!

صورة متخيَّلة لعلي بك الكبير

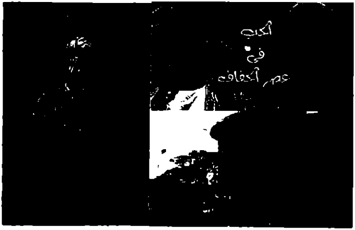

مسلسل «الحب في عصر الجفاف» عن فترة حكم علي بك الكبير

 t.me/qurssan

t.me/qurssan

٣

مَوْلِد الحداثة المصرية..
ليستَ خالصة لك يا بونابرت!

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١)

في شتاء العام ١٩٩٧، أعلنت وزارة الثقافة المصرية آنذاك، عن تشكيل لجنة خبراء ومتخصصين للإعداد لاحتفالية كبرى بمناسبة مرور مائتي عام على قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر؛ وقامت الدنيا ولم تقعدْ أبدًا!

ثارت ضجة كبيرة استغرقت شهورًا طويلة، دارت خلالها سجالات ومناقشات حامية حول مشروعية الاحتفال، وهل من المقبول أن تحتفل دولة حرة مستقلة بغزو دولة أخرى لها!

لعل أهم ما تمخضت عنه هذه النقاشات هو هذا الكم الهائل من المقالات والدراسات والكتب التاريخية ذات التوجهات المنهجية المتباينة؛ وإذا قمنا بفرز وغربلة هذا الكم المهول من الكتب والدراسات لتبقَّى منها حفنة رائعة من الكتابات الرصينة العميقة بأقلام أساتذة كبار ومؤرخين راسخين، قدَّموا رؤى وتحليلات أغنت الكتابة التاريخية المصرية عمومًا، وفي الوقت ذاته كُشف الكثير والكثير عن الحملة الفرنسية وآثارها (السلبية قبل الإيجابية)، وما خلفته سياسيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا، ليس في مصر وحدها، بل في الشرق الأوسط كله.

لخَّص المختلفون حول الحملة آثارها الكبرى في جانبين؛ السلبي في

t.me/qurssan

الاستعمار، والإيجابي في التعرف على العلم والحداثة والتاريخ المصري على يد علماء الحملة (وهذه نقطة مهمة جدًّا وجوهرية؛ لأنها رَدَّتْ ميلاد أو انبثاق لحظة الحداثة الأولى في مصرَ العصرِ الحديثِ إلى حملة بونابرت).

وكان ثمة مزاج عام أو تيار ليس بالقليل يميل إلى التأكيد بشكل دائم على النتائج الإيجابية للحملة الفرنسية على مصر، وأنها ساعدت على إثارة الوعي القومي لدى المصريين، ولَفْتِ انتباههم إلى وحدة أهداف المحتلين على اختلاف مشاربهم، ألا وهو امتصاص خيرات البلاد. كما عرف المصريون بعض الأنظمة الإدارية عن الفرنسيين، ومن بينها سجلات المواليد والوفيات، وكذلك نظام المحاكمات الفرنسي، الذي برز جليًّا في قضية «سليمان الحلبي».

إذن، انقسم المختلفون حول تقييم الحملة وآثارها إلى فريقين كبيرين؛ تزعَّم الفريق المناهض للاحتفال الراحلة الدكتورة ليلى عنان أستاذة الأدب الفرنسي والحضارة الفرنسية بجامعة القاهرة؛ وكانت ترى أن الحملة الفرنسية كانت مَحْضَ حملة عسكرية استعمارية في المقام الأول قُتل فيها آلاف المصريين، واتهمت المرحومة ليلى عنان ـ وبعنف ـ النخبَ المثقفة المصرية بأنها تستطيع التعامل مع الاستعمار وسلبياته، وتتغاضى عن مقتل الآلاف من المصريين في سبيل أن تتحول مصر إلى بلد حديث، وسجلت كامل رأيها وتحليلها في كتاب مهم من جزئين صدر عن دار الهلال في تلك الفترة[1].

(١) صدر الجزء الأول ضمن سلسلة كتاب الهلال بعنوان «الحملة الفرنسية.. تنوير أم تزوير؟» ١٩٩٨، ثم صدر الجزء الثاني في السلسلة ذاتها بعنوان «الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ» ١٩٩٨، وكانت المرحومة الدكتورة ليلى عنان قد مهدت لكتابيها بكتيِّب

t.me/qurssan

الكتاب الأول عنوانه «الحملة الفرنسية.. تنوير أم تزوير؟»، والثاني «الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ»، تقول المؤلفة في تصدير الجزء الأول «يجدر بالقارئ العربي، بعد مرور مائتي عام على الحملة الفرنسية، أن يعرف ما قيل عنها عند أهلها، وكيف تحولت إلى أسطورة وجدت، من خلال أقلام المبهورين بها من الأدباء والمؤرخين، مناخًا نشأت فيه وترعرعت، نظرًا لأن بونابرت قد خلق من نفسه «أسطورة»، بحيث أصبح كل ما يمسه، أو يُحكى عنه، أسطوريًا؛ خاصة أنه جاء من ثورة كان عصرها عصر الأساطير».

وفي الجزء الثاني، تستعرض ليلى عنان الجرائم البشعة لجيش الاحتلال الفرنسي في مصر بقلم شهود الحملة العيان، تلك الحقائق التي رآها ملموسة كل من رأى في نابليون بونابرت عبقريا معصوما من الخطأ، كما سبق أن تجاهلها المؤرخون الاستعماريون بسبب عنصرية واضحة في كتاباتهم. وأهم ما في هذا الجزء للقارئ خطابات كليبر حاكم مصر بعد رحيل بونابرت التي يقول فيها صراحة ما ينكره كل من مجَّد الجيش الفرنسي، قبل أن ينتهي عصر الإمبراطوريات الاستعمارية. والجزءان كلاهما، بالإضافة إلى الكتيب الذي مهَّد لهما، يفضحان من وجهة نظر صاحبتهما زيف الأسطورة التي نسجت خيوطها لتصنع ما تسميه «تنويرًا فرنسيًا لمصر».

فيما رأى فريق آخر أقرب إلى الاعتدال والتوسط والسعي إلى تكوين رأي موضوعي (يتكون في معظمه من أساتذة أدب وحضارة ومؤرخين

سابق صدر قبل هذين الجزئين بستة أعوام (صدر في أغسطس ١٩٩٢)، العدد ٥٠٠، من سلسلة كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة.

t.me/qurssan

وكتاب وفنانين ومثقفين.. إلخ) أنه بالتأكيد ثمة نتائج سلبية للحملة دون إنكار آثارها الإيجابية العميقة للغاية، وأنه لا ينبغي إغفالها أو التغاضي عن إبرازها؛ فمن نتائج الحملة الفرنسية الإيجابية، أكَّد المرحوم الدكتور عبد المنعم تليمة أن الأثر الحضاري لفرنسا على مصر ونهضة مصر كان كبيرًا، وأن الحملة الفرنسية كانت بدايةَ انطلاق مصر إلى العصر الحديث، وأن فرنسا كانت هي البلد الذي شكَّل معالم النهضة الثقافية في مصر، فقد تخرج منها فلاسفة وعلماء وفنانون.

وعلى كثرة ما كتب عن هذه الإشكالية التي ثارت بعنف في تلك السنوات؛ يبرز الكتاب الذي ألفه المؤرخ القدير الدكتور أحمد زكريا الشلق بعنوان «الحداثة والإمبريالية الغزو الفرنسي وإشكالية نهضة مصر»[1]، وصدرت طبعته الأولى عن دار الشروق العام ٢٠٠٦. وتتبلور الإشكالية التي يعالجها هذا الكتاب من واقع أسئلة عديدة تصب في فكرته الأساسية، ومنها: متى دخلت مصر عصرها الحديث؟ وما هو مفهوم الحداثة التي أصابتها، وهل ما أدركته منها يجعلنا نقرر أنها انتقلت من عصر تاريخي إلى آخر، وهل قدر عليها أن تنتقل إلى هذا العصر بإرادة الفاتحين والغزاة؟ وما هو موقف أهلها من ذلك، وهل كان بوسعهم أن يختاروا بين بونابرت وبين فولتير، بين المدفع والمطبعة؟ باختصار، هل كانت الحملة الفرنسية حملة استعمارية أم حملة تحديث وتنوير لمصر؟.

---

(١) «الحداثة والإمبريالية ـ الغزو الفرنسي وإشكالية نهضة مصر»، أحمد زكريا الشلق، سلسلة التاريخ الجانب الآخر، إعادة قراءة للتاريخ المصري، الكتاب رقم ٧، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٧، ٨.

يقول الدكتور الشلق في مقدمته للكتاب:

«ليس هذا كتابًا فى تاريخ الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ــ١٨٠١)، ولكنه محاولة لمناقشة قضية فكرية فى تاريخ مصر الحديث تتعلق بإشكالية النهضة والحداثة التى اطلعت عليها مصر خلال سنوات الاحتلال الفرنسي، وإلى أى مدى تأثرت بذلك، فينطلق من السؤال: هل يمكن أن تأتي النهضة والحداثة فى ركاب الغزاة؟ كيف ذلك وإلى أى مدى؟

ويوضح الدكتور الشلق أن هذه الإشكالية تستمد مشروعيتها من ظهور رؤيتين مختلفتين تجاهها لدى المؤرخين والمفكرين فى الشرق والغرب. أولاهما: ترى أن نهضة مصر وتحديثها بدأت مع «الغزو» الفرنسى وبسببه، وأن تاريخ مصر «الحديث» بدأ بالفعل منذ وطئت أقدام جيش الشرق بقيادة بونابرت أرض مصر في أواخر القرن الثامن عشر، حيث بدأت مصر تطَّلع وتنفتح على معطيات الحضارة الحديثة وتتعلم منها أسباب نهضتها، بل وتطورها السياسى والاجتماعى بشكل عام، فيرى المؤرخون الغربيون، ومن والاهم من المصريين، أن الغزو الفرنسي لمصر كان هو الأساس لنهضة مصر الحديثة.

وثانيتهما: ترى من وجهة نظر قومية أو متحفظة، أن الاحتلال الفرنسى لمصر كان مرحلة قاتمة ومظلمة فى تاريخها، بل وفى تاريخ الشرق العربى كله، حيث أسهم فى تفتيت وحدته وفصم عرى الروابط والعلاقات التاريخية الوثيقة بين أجزائه، وأنه جلب إليه المطامع الاستعمارية، فضلاً عما جلبه من عادات وتقاليد غربية أثرت سلبًا على طبيعة شعوبه، وهددت هويتها وتراثها الأصيل. وبالرغم من تدهور أوضاع مصر خلال العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، فإنها كانت تحمل في

 t.me/qurssan

أحشائها مقومات نمو داخلي وصحوة كادت أن «تنهض» بها نحو الحداثة لولا الغزو الاستعماري الفرنسي، الذي أعاق نهضتها الذاتية ووجهها وجهة غربية.

(٢)

وكان من أصداء هذا السجال الكبير أيضًا، في تلك الفترة، لَفْتُ النظر إلى تيار كبير في الدراسات التاريخية، كان يَرودُه الأستاذان الكبيران أندريه ريمون، وبيتر جران، لإعادة البحث والحفر المعرفي والتاريخي فيما قبل الحملة الفرنسية، وتسليط أضواء البحث العلمي والمناهج الأكاديمية المعاصرة على المائتي سنة التي سبقت الحملة، وأثمرت هذه الجهود نتائج مذهلة، وعددًا من الكتب والمؤلفات التي أكَّدَتْ بما لا يدعُ مجالًا للشك أن مصر قد تمرض.. تُنهك.. تُستنزف.. لكنها أبدًا لا تموت ولا تستسلم، وقادرة على الدوام على تجاوز المِحَنِ وتجديد الدم والخروج من الأزمات أشد عودًا وأصلب مِرَاسًا.

لم تَعُد الحملة الفرنسية وحدها هي محور الجذب والاهتمام، ولم تَعُدْ مجردَ حدث يُؤَرَّخ به لمرحلتين شاسعتين متباينتين، بل صارت حلقة ضمن حلقات، سابقة ولاحقة، ولم يَعُدْ من الممكن أبدًا أن تقرأ أحداثَ وآثار الحملة الفرنسية ونتائجها بمعزلٍ عما كان يدور ويَمُورُ قبلها في مصر بحوالي مائة وخمسين أو مائتي عام، من حراك اجتماعي واقتصادي وثقافي، حتى وإن كان بطيئًا، حتى وإن كان مجهولًا، إلى أن قُيِّضَ له مؤرخون كبار وباحثون أكفاء جادون ليجلُوا هذا الغامض، ويكشفوا هذا المستور، ويحركوا مياهًا راكدة ويجددوا الدماء.

t.me/qurssan

لم تَعُدْ أحداث الحملة في ذاتها مقصدًا وغاية؛ بل صار الربط والتحليل والمقارنة بين ما أحدثته من آثار، وما كان يمكن أن يؤدي إليه النشاطُ والحراك الاجتماعي في مصر قبلها هو الشغل الشاغل للباحثين والمؤرخين والمعنيِّين بالكشف عن بذور الحداثة في مصر. ويمكن لمن أراد أن يراجعَ الكتابَ القيم المرجعي «مائتا عام على الحملة الفرنسية» (رؤية مصرية) من تحرير الدكتور ناصر أحمد إبراهيم، وإشراف المؤرخ الراحل الدكتور رؤوف عباس، الذي صدر عن الدار المصرية اللبنانية قبل عشرين عامًا تقريبًا!

وهكذا، وقبل تناول الآثار الكبرى التي خلَّفتها الحملة الفرنسية على مصر (فيما سيلي من فصول)، وعلى رأسها تأسيس المجمع العلمي المصري الذي كان نواة لنشاط علمي ومعرفي وثقافي غير مسبوق لدراسة كل ذَرَّةٍ في مصر؛ جغرافيًّا وطبيعيًّا وحضاريًّا وبشريًا.. إلخ؛ كان من اللازم التوقف قليلًا عند أهم الآراء ووجهات النظر التي قُدِّمَتْ بشأن لحظة الحداثة الأولى التي شهدتها مصر، والتي كان من الشائع والسائد والغالب ربطُها بل «تحيينُها» وردُّها إلى مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر، وحدها.

(٣)

في هذا السياق تَبْرُزُ جهود المؤرخ الأمريكي والمنظِّر اليساري الشهير «بيتر جران»، ومن قبله جهود المؤرخ الفرنسي أندريه ريمون، التي قوَّضَتْ تمامًا هذه النظرية؛ وبدا أن هناك تيارًا كاسحًا في الدراسات

t.me/qurssan

التاريخية يراجع هذا الرأي (الذي كان في حُكْمِ «الحُكْم»!).

وأنتهز هذه الفرصة لإلقاء الضوء على الرجل وجهوده وأطروحاته المؤثرة التي أثمرت اتجاهًا في الكتابة التاريخية الإنجليزية والعربية، قدَّمَ الكثير وما زال يقدِّم حتى هذه اللحظة إسهاماتٍ مهمةً للغاية، ولأذكُرَ أيضًا بأهمية وضرورة قراءة كتبه التأسيسية؛ وعلى رأسها كتابه المرجعي المهم «الجذور الإسلامية للرأسمالية.. مصر ١٧٦٠ ـ ١٨٤٠»[(١)]، وكتابه الآخر «ما بعد المركزية الأوروبية: نظرة جديدة في تاريخ العالم الحديث»[(٢)].

أما الكتاب الأول فيدور حول فكرة أن حملة نابليون بونابرت قد أجهضت نواةَ «نهضة» أو حركة حداثة حملتها شرائح برجوازية مصرية تكوَّنَتْ في القرنين السابع عشر والثامن عشر، بينما يرصد الآخر كيف صاغ الغرب «رؤية مركزية للعالم» تنطلق من تاريخه وأفكاره وفلسفاته ورؤاه.

كانت نظرية جران التي فصّلها في كتابه ذائع الصيت تقوم على مواجهة النظرة التي تردُّ النهضة الحديثة أو محاولة إحداث نهضة عربية إلى الغرب وحده، مُغفلة المقومات الذاتية والمتغيرات المحلية في مصر وأنحاء متفرقة من العالم العربي والإسلامي.

كانت النظرة السائدة قبل كتاب جران، التي طالما رَدَّدَهَا المؤرخون

(١) ترجمة محروس سليمان، وراجعه وأشرف عليه الراحل رؤوف عباس.

(٢) ترجمة عاطف أحمد، إبراهيم فتحي، محمود ماجد، وأشرف على الترجمة وراجعها رؤوف عباس.

t.me/qurssan

التقليديون، أن مدافع نابليون بونابرت هي وحدها التي أيقظت الوعي العربي من غفوته، وقادته إلى طريق استعارة وسائل النهضة والتحديث في كل مجالاتها من الغرب.

لم يَقْنَعْ جران بتلك النظرة، وعبر ملاحظات بَدَتْ له أثناء دراسته للفترة السابقة على قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر، رصدَ بذورًا بازغة للرأسمالية في مصر القرن الثامن عشر، وتحدث عنها وحاول أن يرصد ملامحها، وهذا يعني أن المجتمع قد تطوَّر وصولًا للرأسمالية قبل دخول الفرنسيين، ما يعني أنه طوّر نفسه بنفسه، وهذا يعني أن الرأسمالية كان بإمكانها الظهور خارج أوروبا.

ويعيد هذا الكتاب، شأنه شأن الكتابين السابقين، الاعتبارَ إلى الفترة العثمانية، ويشكِّك في النظريات التي ذهبت إلى القول بأن مصر قد شهدت فيها تدهورًا وخمولًا ثقافيًّا واجتماعيًّا، ظل جاثمًا على الحياة الثقافية حتى ظهور محمد علي وقيامه بعمليات إصلاح التعليم من فتح مدارس وإنشاء مطابع وإرسال بعثات... إلخ.

تمكن بيتر جران ـ عبر دراسة العديد من الكتب التي كُتبت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وبالتركيز على شخصية عالم أزهري بارز هو الشيخ حسن العطار ـ من أن يبرهن على وجود دلائل كثيرة على وجود نهضة ثقافية محلية سبقت «مجيء الغرب»، سواء كان الغرب متمثلًا في شخص بونابرت أو في بعثات محمد علي التعليمية.

بل يذهب جران إلى القول، على عكس ما يفترضُه معظم الباحثين، بأن الحملة الفرنسية قد «أضرت» بالطبقات الوسطى في مصر وبالثقافة

العقلانية التي كانت تعزِّزها قبل مجيء الحملة الفرنسية، وأن إصلاحات محمد علي قد أدَّت بمصر إلى التوغل في مضمار منافسات أوروبية، وأن هذه «المنافسة بين الرأسماليات قد أضرَّت بمصر، وتركتها بلدًا أكثر فأكثر تخلفًا وتبعية للخارج».

ويضيف جران: «إن الدراسة الدقيقة لما كتبه المصريون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومقارنته مع ما كتبوه في النصف الثاني من القرن الثامن عشر تُبيِّن أن البلاد كانت في تلك الفترة المتأخرة في حالة انحطاط ثقافي. وبذلك تمثِّل هذه الفكرة مراجعة للمقولة الشائعة بأن مصر كانت تعاني فراغًا ثقافيًا، وأن أوروبا هي التي ملأت هذا الفراغ بالأفكار الحديثة».

وهكذا، انتهى «جران» إلى القول بأن ابتداءَ النهضة العربية بمجيء الغزو الاستعماري، أو الحملة الفرنسية على العالم العربي إنما هو اختزال لجهود الاستنارة العربية التي ابتدأت منذ القرن الثامن عشر، وأسهمت في تغيير الأوضاع، بما دفع المنطقة العربية ـ وخاصة مصر ـ إلى طريق التقدُّم الذاتي والتطور الطبيعي الذي قطع مسيرتَه الغزوُ الفرنسي لمصر سنة ١٧٩٨، وفرض مسارًا مغايرًا اقترن بالتبعية والاتِّباع بأكثر من معنى.

(٤)

أحدث بيتر جران، حقًّا، انقلابًا منهجيًّا، وأسهم إسهامًا عظيمًا في تغيير المنظور التاريخي للنهضة العربية بعامة، والمصرية خاصة، وعلى النحو الذي صار فيه الآن قبول (بل اعتماد) مقولة إن بذورًا للحداثة

والنهضة كانت تتشكّل وتتخلّق في أحشاء المجتمعات العربية قبل قدوم الحملة الفرنسية(١).

وأثّرت نظرية جران تأثيرًا كبيرًا بل بالغًا في الأوساط الثقافية المصرية، وكان لها أيضًا آثار مدوِّية في أوساط المشتغلين بالعلوم الإنسانية في مصر والعالم العربي، بل أعطت غطاءً معرفيًّا مقبولًا ومعقوّلا للعديد من النظريات التي تتعلق بنشوء الطبقة الوسطى في مصر، وكذلك في نشوء الرواية العربية، وانتشرت لفترة طويلة في أقسام اللغة العربية والأدب العربي تفسيرات تتعلق بفجر الرواية العربية وبزوغها استنادًا إلى آراء جران التي تأثر بها جابر عصفور، وسيد البحراوي، ورضوى عاشور، وغيرهم، من المهتمين بقضايا نشأة الرواية العربية وأوليتها.

وأما في مجال الكتابة التاريخية، المنهجية، فقد وعى المؤرخون ضرورة الانتباه إلى وجهة النظر الاستعمارية التي طالما تمَّ ترديدُها واعتمادها وتدريسها؛ بأن هذه المنطقة لم تدخل عصر الحداثة إلا مع دخول الاستعمار لها.. قيل هذا عن جميع البلاد التي وقعت تحت الاستعمار، مثل الهند وأرجاء العالم العربي، وتمَّ تكريس هذا النهج الاستعماري لكتابة تاريخ العالم الثالث.

في المقابل، وتحديدًا في الحالة المصرية، فقد تنامى الاهتمام بالبحث في فترة وقوع مصر تحت الحكم العثماني، وتنامى كذلك الاهتمام بالبحث في

(١) يُرجع الدكتور عماد الدين أبو غازي جذور الحداثة إلى حوالي ٣٠٠ سنة قبل ما ذكره بيتر جران. ويقوم افتراضه على أن ما قطع طريق الحداثة في مصر هو الاحتلال العثماني في القرن السادس عشر الميلادي، وليس الحملة الفرنسية في نهاية القرن التاسع عشر، راجع كتابه المهم «١٥١٧ الاحتلال العثماني لمصر وسقوط دولة المماليك»، دار ميريت، ٢٠١٩.

t.me/qurssan

سجلات الوثائق الشرعية، وحجج إثبات الملكية، والحيازات الزراعية، والعقارات ومواد وثائقية أخرى متنوعة مستقاة من سجلات المحاكم الشرعية، أو مخطوطات لمؤلفين مغمورين.. إلخ.

وظهرت مدرسة مصرية أصيلة رَادَهَا المرحوم الدكتور رؤوف عباس، وتخرج فيها عماد أبو غازي (أعماله عن الحيازة الزراعية معروفة ورائدة)، ومحمد عفيفي (وكتاباته المهمة عن الأقباط في العصر العثماني)، ومجدي جرجس (ذلك المؤرخ المهم الذي يعمل في صمت النبلاء)، وناصر إبراهيم، ونيللي حنا.. وغيرهم.

والأخيرة، تحديدًا، من أبرز المؤرخين المصريين الذين تعمَّقوا في بحث موضوعاتهم على ضوء آراء ونظريات أندريه ريمون (التي تُعد أفكارُ وتصورات بيتر جران تطويرًا لها وإضافة نوعية)[1]، عبر مشروع علمي حثيث ورصين، بدءًا من كتبها «بيوت القاهرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر ـ دراسة اجتماعية معمارية»، و«بولاق في العصر العثماني» و«تجار القاهرة في العصر العثماني ـ سيرة أبي طاقية شهبندر التجار» مرورًا بـ«ثقافة الطبقي الوسطي في مصر العثمانية»، ووصولًا إلى «حرفيون مستثمرون.. بواكير تطور الرأسمالية في مصر» الصادر عن المركز القومي للترجمة.

---

(١) يرى الدكتور عماد الدين أبو غازي أن المؤرخة نللي حنا تأثرت بـ«بيتر جران»، لكنها في الأصل تنتمي إلى مدرسة «أندريه ريمون» ذات الإسهام البارز والكبير في إعادة قراءة وكتابة التاريخ العثماني، الذي لا يقل في أهميته وقيمته عن إسهام مدرسة بيتر جران. فـ«بيتر جران» بمعنًى ما يُعتبر تطورًا لمدرسة ريمون، وهذا يعني أن نللي وبيتر لهما أب علمي واحد.

«الحداثة» لدى نيللي حنا اتَّخَذَتْ أشكالًا متخلفة، وكان لها تجليات شتى في مناطق شكَّلَتْها الخبرة التاريخية وجهود أبناء البلد وإبداعاتهم وجغرافيتهم، ولم تنجم فقط عن مجرد الاتصال بالغرب، بل كانت لها آلياتها ومصادرها الداخلية في المجتمع المصري[1].

بالتأكيد، فإن الدور الذي لعبه «بيتر جران»، مع سابقه الأستاذ الذي لا يقل عنه أثرًا وتأثيرًا في المدرسة التاريخية المصرية المعاصرة «أندريه ريمون»، في تشكيل الوعي المنهجي والمنظور التاريخي المعاصر في مقاربة قضايا وإشكالات النهضة العربية والحداثة، يستدعي كتابًا كاملًا لا فصلًا في كتاب!

---

(١) يذهب الدكتور عماد الدين أبو غازي إلى أن بيتر جران، ورؤوف عباس ونللي حنا، وقبلهم أندريه ريمون، شكَّلوا ملامح جيل جديد من المؤرخين المصريين.

زمن الحملة الفرنسية.. نابليون في مواجهة أبي الهول

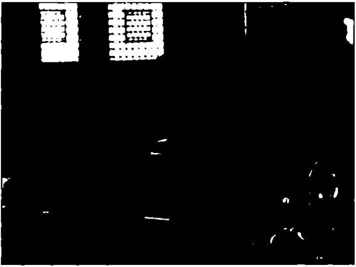

المؤرخ الأمريكي بيتر جران

t.me/qurssan

٤

فلاش باك..
القرن الثامن عشر المصري!

t.me/qurssan

t.me/qurssan

يجب أن نعترف بأن القرن الثامن عشر في تاريخنا الحديث قرنٌ مظلوم جدًّا، فقد درجنا على أن نقيسه بالنهضة التي بزغت في القرن التاسع عشر، وأن نعتبره بالتالي ذُروة الانحطاط، فضلًا عن أننا ننظر إلى القرن الثامن عشر من القرن العشرين، فلا نعرف عنه إلا ما يعرفه الأحفاد عن جدهم الذي رحل قبل اختراع الكاميرا، فلم تحتفظ له العائلة بصورة شخصية!

نحن نعرف بعض الشيء عن القرن التاسع عشر ورجاله وزعمائه وأدبائه ومفكريه؛ لأنه بداية النهضة، ولأنه بمثابة الأب للزمن الذي نشأنا فيه، لكننا لانكاد نعرف شيئًا عن القرن الأسبق الذي لم نحسَّ كثيرًا بالحاجة إلى معرفته، ولهذا نكتفي بصورة غامضة عنه، تشير إليه دون أن تحقِّقَه أو تنطبق عليه.

ولا جدال في أن القرن الثامن عشر كان عصرًا متواضعًا جدًّا إذا قارنَّاه بالعصور الذهبية التي وصلت إليها الحضارة العربية الإسلامية بين القرنين التاسع والرابع عشر الميلاديين، أو إذا قارناه بشقيقه الفالح في أوروبا الغربية، وهو عصر التنوير الذي ظهر فيه فولتير، وجان جاك روسو، وديدرو، ومونتسكيو، واشتعلت فيه الثورة الفرنسية. أما إذا

t.me/qurssan

قارناه بالقرون الثلاثة التي سبقته، وشهدت سقوط السَّلْطَنَة المملوكية في مصر وسوريا والحجاز، ووقوع هذه الأفكار في أيدي العثمانيين، فالقرن الثامن عشر ليس أسوأها، بل هو أقلّها سوءًا، ولا شك أننا سنجد فيه من الظواهر والتطورات ما يدلُّ على أنه كان بشارة بالنهضة الحديثة التي أخذت تتحقَّق عندنا في القرن التاسع عشر، وكان مقدمة ضرورية لها.

وما يقال عن القرن الثامن عشر في مصر يمكن إلى حدٍّ كبير أن يقال عنه في سوريا ولبنان وغيرهما من الأقطار العربية التي حكمها العثمانيون.. ولا شك أن مصر كانت في وضع أفضل؛ لأنها البلد العربي الوحيد الذي ساعدته طبيعته على الاحتفاظ بوحدته، فبقيت حدوده كما نعرفها اليوم، رغم فقدانه استقلاله السياسي، على حين كانت سوريا مقسمة إلى عدة ولايات، وكان العراق مثلها، ولم يكن العثمانيون يحكمون في ليبيا وتونس والجزائر إلا السواحل، أما في الجزيرة العربية فلم يتجاوزْ سلطانهم بعض المدن التي كانوا يحكمونها بواسطة أمراء محليين.

ولا شك أن احتفاظ مصر بوحدتها أحلَّها في الإمبراطورية العثمانية محلًّا خاصًّا أكدته ثروتها البشرية من ناحية، فقد كان المصريون ـ رغم تراجُع تعدادهم ـ يمثِّلون ربع العرب في كل أقطارهم في نهايات القرن الثامن عشر، إذ كان عددهم ثلاثة ملايين ونصف المليون من خمسة عشر مليونًا كانوا يسكنون البلاد العربية كلها مشرقها ومغربها.كما ساعدت مصر في المحافظة على كيانها وثروتها الاقتصادية الممثلة في النيل، وثروتها الثقافية المتمثلة في الأزهر.

وفي هذا يقول الباحث الفرنسي أندريه ريمون في كتابه «المدن العربية

الكبرى في العصر العثماني» مقارنًا بين العواصم العربية المختلفة:

«كانت القاهرة هي ثانية أكبر مدن الإمبراطورية، لا تسبقها إلا إستامبول التي اقترب عدد سكانها من خمسمائة ألف نسمة. وقد احتلت القاهرة مكانًا فريدًا تمامًا بين الحواضر العربية. إن مساحة القاهرة سبعمائة وثلاثون هكتارًا، منها ستمائة وستون هكتارًا للمباني، وعدد سكانها (مائتان وثلاثة وستون ألف نسمة وفقًا لكتاب وصف مصر) جعلاها تقف على مسافة بعيدة في مقدمة مجموع المدن العربية الأخرى الوارثة لحواضر رائعة. وكانت مساحة كل منها تقارب ثلاثمائة هكتار، وعدد سكانها حوالي مائة ألف نسمة. وتجيء مدينة حلب في مقدمة هذه المجموعة، إذ إن مساحتها بلغت ثلاثمائة وسبعة وتسعين هكتارًا (منها ثلاثمائة وسبعة وستون هكتارًا للمباني)، وعدد سكانها مائة وعشرون ألف نسمة. وكانت دمشق وبغداد مركزين متماثلين تمامًا؛ إذ كان عدد سكان كلٍّ من المدينتين حوالي تسعين ألف نسمة».

فإذا قارنًا بين تعداد سكان القاهرة في أواخر القرن الثامن عشر وتعدادهم في أوائل القرن السادس عشر، وهو مائة وخمسون ألف نسمة حسب اقتراح أندريه ريمون، فلا شك أن القرن الثامن عشر كان عودةً للنمو والازدهار، وهذا ما يؤكده الباحث من خلال الوثائق والدراسات الميدانية.

فالمقريزي مثلًا يُحصي أسواق القاهرة في النصف الأول من القرن الخامس عشر فيجدها سبعًا وثمانين سوقًا، ويحصي عدد القيساريات، أي الخانات والفنادق والوكالات، فيجدها سبعًا وخمسين قيسارية. وقد تمكَّن أندريه ريمون من إحصاء عدد الأسواق والقيساريات في قاهرة القرن الثامن عشر فوجدها مائة وخمسة وأربعين سوقًا، وثلاثمائة وستين

t.me/qurssan

قيسارية. ومن هذه المقارنة يتَّضح لنا أن التقدم كان باهرًا، كما يقول الباحث، خاصة بالنسبة للقيساريات، وهي أساس التجارة الضخمة التي تُعتبر مؤشرًا مهمًّا للنشاط الاقتصادي في المدينة. فإذا قرنَّا هذه الأرقام بما كان في مدينة حلب، وهي أكبر مدينة في بلاد الشام آنذاك، وجدنا أن أسواق حلب كانت ثمانية وخمسين سوقًا، وأن قيسارياتها كانت مائتين وتسعًا وعشرين قيسارية.

لقد كانت منتجات المغرب وأواسط افريقيا واليمن تتجمع في مصر، فضلًا عما يَرِدُ إليها من أوروبا، ومن القاهرة يتمُّ توزيع هذه المنتجات أو يُعاد تصديرها. وقد تخصصت القاهرة في تجارة التوابل، والمنسوجات، والبن الذي كانت القاهرة أهم مركز لتوزيعه في العالم، إذ كان يمرُّ عبرها في القرن الثامن عشر مائة ألف قنطار واردة من اليمن، لكي توزَّع في أنحاء الامبراطورية العثمانية أو لكي تُصَدَّرَ إلى أوروبا. وكان اليمن هو البلد الوحيد المنتِج للبن في العالم آنذاك. وكان مجموع صادراته منه مائتي ألف قنطار. ومعنى هذا أن القاهرة كانت تستقبل وحدها نصف ما يُنتجه اليمن منه.

فإذا كانت هذه هي أوضاع مصر الاقتصادية في القرن الثامن عشر، فبوسعنا أن نفهم ما شهدته من تطورات اجتماعية وثقافية وسياسية مهَّدت للنهضة التي شهدتها البلاد في القرنين الأخيرين.

لقد كانت القاهرة تضم في ذلك الوقت من الجاليات العربية والأجنبية حوالي ستين ألف شخص يمثلون ربع سكانها، منهم حوالي خمسة وعشرين ألفًا من المغاربة والسوريين، وحوالي عشرة آلاف تركي، وخمسة آلاف يوناني، وألفين من الأرمن، بالإضافة إلى حوالي عشرة آلاف ينتمون

الطبقة الحاكمة من الأتراك والمماليك. ولا حاجة بنا لأن نشير إلى أن ١٠لاء كانوا ديانات ومذاهب شتّى، كما كانوا جنسيات وأعراقًا مختلفة.

والوثائق تدلنا من ناحية أخرى على أن القاهرة كان فيها خلال القرن الثامن عشر أربعة آلاف من العلماء والقضاة وأساتذة الأزهر والموظفين العاملين في المدارس والمحاكم والجوامع. ومعني هذا أن كل ألف من أبناء القاهرة في ذلك الوقت كان يخدمهم خمسة عشر من رجال الدين والعلم والقضاء الذين خُصِّصَتْ لهم الرواتب والأجور، أو وقِفَتْ لرعايتهم الأوقاف.

وبوسعنا أن نتصور المكان الذي كان يحتله العالم المثقف في مجتمع القاهرة آنذاك، حين نعرف على سبيل المثال أن محمد بك أبو الذهب حاكم مصر في العقد التاسع من القرن الثامن عشر اشترى من الشيخ محمد مرتضي الزبيدي قاموسه تاج العروس بمائة ألف درهم. وقد أهدى أبو الذهب هذا القاموس بعد ذلك إلى مكتبة الجامع الذي أنشأه.

ومن المعروف أن «تاج العروس» هو أول معجم عربي حديث، فقد انتهى الشيخ مرتضي الزبيدي من إعداده حوالي سنة ١٧٦٨، أي قبل ظهور «محيط المحيط» للّغوي اللبناني بطرس البستاني بأكثر من مائة عام. لكن يبدو أن قيام الزبيدي بهذا العمل الرائد كان وجهًا من وجوه نشاط واسع في فقه اللغة عرفته القاهرة خلال القرن الثامن عشر. وقد وجد الذين فحصوا مكتبة الأزهر، أن كل ثماني نسخ من المعاجم العربية المعتمدة بينها ست نسخ ترجع إلى القرن الثامن عشر، الذي شهد أيضًا نشاطًا ملحوظًا في دراسة النحو والبلاغة والنصوص الأدبية.

ونحن نعرف شيئًا عن جهود الشيخ حسن العطار، وهو من المخضرمين

t.me/qurssan

الذين عاشوا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (وسنخصُّ الشيخ حسن العطار بفصل كامل مستقل؛ باعتباره باكورة السلالة النهضوية التجديدية في مؤسسة الأزهر التي سيخرج منها رفاعة الطهطاوي ومحمد عبده وصولًا إلى طه حسين وجيله التنويري العظيم).

فإذا عرفنا أن الزبيدي يمني، وأن العطار من أصول مغربية، وأن الجبرتي من أصول حبشية، كان لنا أن نقول بغير ادعاء ولا فخر إن مصر لم تكن أبدًا مكتفية بذاتها مُتَقَوْقِعَةً على نفسها، أبدًا. إن مصر في القرن الثامن عشر كانت في قلب العالم، والقاهرة كانت أكبر مدينة عربية بلا منازع، وكانت تضم آلافًا مؤلَّفة من المغاربة والسوريين، والأتراك والأوروبيين، رغم كل ما عانته مصر ومرَّت به من مِحَنٍ وأزمات. وكان أزهرها الشريف بؤرةً لنشاط ثقافي وأدبي لا يستطيع أحد أن يُنكره مهما كان.

t.me/qurssan

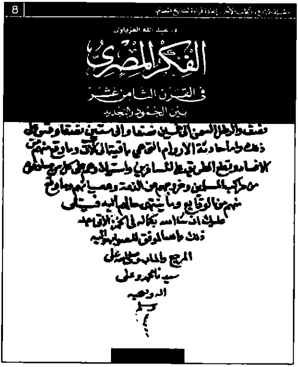
8
د. عبد الله العزباوي
الفكر المصري
في القرن الثامن عشر
بين الجمود والتجديد

t.me/qurssan

٥

الوجه الآخر من الحملة الفرنسية!

المجمع العلمي...
وبزوغ اليقظة القومية!

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١)

كانت مصر، كما أشرنا في فصول سابقة، جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، وإن حاولت أن تتحرر وتستقلّ جزئيًّا أو كليًّا من أسر هذه التبعية، ومن أي شكل لحكم مركزي تقليدي؛ فكانت جمهورية همام في صعيد مصر إرهاصة أولى؛ ثم كانت دولة علي بك الكبير الذي استقلّ بمصر والشام وأجزاء كبيرة من اليمن والجزيرة العربية عن الأستانة، بروفة لم تكتمل لتجربة أخرى ستكون أعمق مدى وتأثيرًا بعدها بحوالي ثلاثين سنة.

ولم تمرّ سنوات كثيرة على سقوط دولة علي بك الكبير حتى دَقَّتْ مدافع نابليون بونابرت أبواب المحروسة؛ في الحدث الكبير الذي صار فاصلًا بين «ما قبل» و«ما بعد».. فكانت الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١)، خلال ثلاث سنوات فقط، احتشدت بالأحداث والوقائع، وشهدت بزوغ أفكار، وغرس أخرى، وحرث التربة الفكرية والثقافية حرثًا جديدًا لم تشهد له مصر مثيلًا طول القرون الفائتة، وخلفت آثارًا سياسية وثقافية واجتماعية، وعلمية كذلك، بعيدة المدى.

t.me/qurssan

(٢)

في واحدة من كتاباته التاريخية الرائعة، ينقل الكاتب والمؤرخ الراحل القدير صلاح عيسى[1] هذه الحكاية ذات الدلالة على «الجانب/ الجوانب» التي ميَّزت الحملة الفرنسية على مصر؛ اختلط في تلك الحملة أهداف ووسائل وغايات كان من الصعب أن تجتمع في ظرف تاريخي آخر، وجه المحتل البغيض الغازي المستعمر، ووجه حامل المعرفة والنور والحضارة، حتى لو لم يكن يقصد بها إفادة أهل البلاد المحتلة!

يروي صلاح عيسى أنه في يوم السبت ٦ مارس ١٨٠١م اجتمع (ديوان القاهرة)، وهو مؤسسة أهلية أنشأها الفرنسيون أثناء احتلالهم لمصر؛ لتساهم معهم في إدارة شئون البلاد وتنوب عنهم في الاتصال بأهليها، وحضر الاجتماع -الذي عُقِدَ ببيت رضوان بك بحارة عابدين- أعضاءُ الديوان التسعة من مشايخ الأزهر وكبار التجار، ورَأَسَهُ الشيخ (عبد الله الشرقاوي) شيخ الأزهر آنذاك.

افتتح المسيو (فورييه) -القومسيير الفرنسي المشرف على الديوان ورئيسه الفعلي- الاجتماعَ مؤكِّدًا أن الأسطول التركي الإنجليزي -الذي وصل إلى ميناء الإسكندرية ليكرِّر محاولة إجلاء الفرنسيين عن مصر- سوف يُهزم شر هزيمة، وتحدَّث بفزع عن التوتر الذي يسود شوارع العاصمة، بما يوحي بأن أهل القاهرة قد يكررون ما فعلوه قبل ذلك بعام، حيث انتهزوا ظرفًا مشابهًا وثاروا ضد الفرنسيين.

---

(١) راجع مقاله «المدافع لا تقرأ القرآن»، مجلة العربي الكويتية، ١٩٩٨.

t.me/qurssan

وبإشارة منه، شرع الترجمان الكبير (روفاييل) في قراءة منشور أصدره قائد الحملة، يدعو فيه المصريين لالتزام الهدوء والسكينة، ويحمِّل أعضاء الديوان المسئولية عن كل شغب يحدث في المدينة، ويهدِّد بعقوبات جماعية تطول الجميع: الثائر وغير الثائر والمفسد والمصلح والمذنب والبريء.

ولم يكن مشايخ الديوان في حاجة إلى من يذكِّرهم بأشكال العقوبات الجماعية التي يتوعدهم بها الفرنسيون، ففضلًا عن أنهم كانوا قد خبروها على امتداد السنوات الثلاث السابقة، فقد كانت آثار ضرب القاهرة بالمدافع، وحرق الأحياء الآهلة بالسكان، لا تزال ماثلة للعيان في شوارع العاصمة، ولم يكن سكانها قد أتمُّوا بعدُ جمعَ غرامة قدرها اثنا عشر مليون فرنك وعشرة آلاف طبنجة، وعشرون ألف بندقية، ومثلها من السيوف، فرض عليهم الفرنسيون أن يتضامنوا جميعًا في دفعها.

وما كاد الترجمان (روفاييل) ينتهي من قراءة الإنذار، الذي أمضاه قائد الحملة بتوقيع (خالص الفؤاد: الجنرال عبد اللـه جاك منو)، حتى قال أحد مشايخ الديوان: إن العقلاء لا يسعون في الفساد، وإذا تحركت فتنة، لزموا بيوتهم.

فقال المسيو (فورييه):

ينبغي للعقلاء، ولأمثالكم، نصيحة المفسدين، فإن البلاء يعمُّ المفسدَ وغيره.

قال شيخ آخر من أعضاء الديوان:

هذا ليس بجيد، بل العقاب لا يكون إلا على المفسد، واللـه تعالى يقول: «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ».

t.me/qurssan

وأضاف شيخ ثالث:

ويقول تعالى أيضًا: «وَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»!

ولم يجد (المسيو فورييه) ما يرد به على منطق مشايخ الديوان، فحسم المناقشة قائلًا:

المفسدون فيما تقدَّم أهاجوا الفتنة، فعمَّت العقوبة، والمدافع لا عقل لها حتى تميز بين المفسِد والمصلِح، فإنها لا تقرأ القرآن.

ذلك مشهد واحد من آلاف المشاهد ذات الدلالة في تاريخ الاحتلال الفرنسي لمصر، الذي انقلبت خلاله الأدوار، وتغيرت الأفكار، وتبادل فيه المتقدمون والمتخلفون المراكز.

(٣)

ورغم أن حملة نابليون بونابرت العسكرية على مصر فشلت فشلًا ذريعًا، فإنها أيضًا ألقتْ في التربة المصرية بذورًا كان من الصعب اقتلاعها؛ ونبهت المصريين بقوة - بل بعنف - إلى ما يدور في الناحية الأخرى من البحر المتوسط، الذي كان يَمُورُ ويَمُوجُ بحياة أخرى في عالم آخر غير العالم الذي كان يعيش فيه المصريون، لقد غرست الحملة بذور الوعي والتفكير والتأمل فيما أتت به الحضارة الغربية، وأسباب تقدمها وازدهارها، وفي فكرة الحضارة عمومًا، ومفاهيم الوطن والتقدم والحرية والعدالة، وبالجملة التفكير في مقومات الدولة القومية الحديثة؛ كل ذلك فضلًا عمَّا خلفته الحملة من آثار علمية وثقافية ومعرفية مباشرة

t.me/qurssan

تمثلت في مجموعة من النواتج؛ منها تأسيس المجمع العلمي المصري، ومنها المؤلف الموسوعي العظيم «وصف مصر»، ومنها فك رموز حجر رشيد على يد عالم المصريات الفرنسي شامبليون.

في كتابه الصغير القيم «أبناء رفاعة»، يُوجز الكاتب الكبير بهاء طاهر الأثر الذي تركته الحملة الفرنسية على الشخصية والثقافة المصرية، ويحدِّد بوضوح ما الذي أخفقت فيه وما الذي تركته من بعيد الأثر (حتى لو لم يكن ذلك مقصودًا لذاته).

لما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر، اعتقد نابليون أنه يمكن أن يستفيد من هذه الأوضاع لتوطيد ملكه بها. ويصوِّر مؤرخنا الشيخ الجبرتي ـ الذي عاصَرَ هذه الحملة ـ محاولات نابليون هذه، ورفض المصريين لها، في كتابه المهم الذي لم يَنَلْ شهرةَ وانتشارَ تاريخه الكبير؛ أقصد كتابه الخطير الذي أفرده للتأريخ للحملة الفرنسية المسمى **«مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس»**[1].

يؤكد بهاء طاهر أن الحملة «غزوة استعمارية» بطبيعة الحال، وقد ارتكبت مثل أية غزوة أخرى من المظالم والجرائم ضد الشعب ما جعل المصريين يثورون عليها ويبذلون دماءهم للتخلص منها، وبعد ما يقرب من ثلاث سنوات من الاحتلال تحقَّقَ للمصريين الخلاص من هذا الاستعمار. ويوضح طاهر أن الجبرتي قد رصد بكل دقة يوميات الحملة من منطلَق الكراهية للمستعمر الأجنبي، «ونحن نجد في كتاباته ما

---

(١) «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس»، عبد الرحمن الجبرتي، تحقيق وشرح الأساتذة حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي، دراسة وتقديم الدكتور أحمد زكريا الشلق، سلسلة (تراث النهضة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥.

t.me/qurssan

يدعونا إلى الاعتزاز بتاريخنا وبتضحياتنا من أجل طرد المستعمر، وإلى الاعتزاز أيضًا بمثقفينا في ذلك الحين من علماء الأزهر وشيوخه الذين قادوا مقاومة الشعب أيامها».

وعلى الرغم من ذلك؛ فإنه كان واعيًا بأن الحملة الفرنسية قد جلبت لمصر أشياء أخرى غير الاستعمار وجرائمه: إنها جلبت «أفكارًا». ويعرض بهاء طاهر رسالة نابليون الأولى إلى المصريين، التي نقرأ خلالها جملة من هذه الأفكار الواضحة بذاتها، رغم ركاكة صياغتها بالعربية، فهو يتحدث في مطلع رسالته عن «الجمهور الفرنسي المبني على أساس الحرية والتسوية».

ويذكّر المصريين بعسف المماليك الذين ظلوا على مدى القرون يحكمون مصر ويفسدون هذا «الإقليم الذي لا يوجد (مثله) في كرة الأرض كلها»، ويَدَّعي أنه أتى مصر ليخلِّصها من يد الظالمين، ويضيف «إن جميع الناس متساوون عند الله، وإن الشيء الذي يفرقهم من بعضهم بعضًا هو العقل والفضائل والعلوم، ومن بين المماليك ما العقل والفضائل والمعرفة التي تميِّزهم عن الآخرين؟ (وما الذي) يستوجب أنهم يتملكون كل ما تحلو به الحياة الدنيا؟».

كما يتساءل نابليون عما يجعل أرض مصر وخيراتها وحكمها وقفًا والتزامًا للمماليك، ويَخْلُصُ من ذلك إلى وعدٍ وإغراء للمصريين:

«من اليوم فصاعدًا لا يُسْتثنى أحد من أهالي مصر من الدخول في المناصب السامية، ومن اكتساب المراتب العالية؛ فالعقلاء والفضلاء والعلماء من بينهم سيدبرون الأمور، وبذلك ينصلح حال الأمة كلها».

وباختصار، فإن نابليون يطرح في هذا البيان على المصريين فكرة الاستقلال الذاتي، وأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم بعد التخلص من حكم الأمراء المماليك، وقد حاول أن ينقل إليهم ـ بلُغَةٍ تَصَوَّرَ أنها مفهومة ـ شعارات الثورة الفرنسية: الحرية والإخاء «والتسوية».

ولكن بهاء طاهر يوضح أن عبد الرحمن الجبرتي رفض نابليون بونابرت جملة وتفصيلًا، وراح يعلِّق على بيانه ساخرًا مما فيه من «الكلمات المفكَّكة والتراكيب الملعبكة»! لقد اعتبره الجبرتي نوعًا من الدَّجَل السياسي لا غير، وكان في ذلك محقًّا تمامًا، فمن شعار «الحرية» لم يَرَ المصريون من بونابرت وخليفتيه الفرنسيين غير القمع والتشريد والقتل. ومن «الإخاء» لم يروا إلا مصادرة أموال المصريين ونهب ممتلكاتهم لصالح المستعمر، ومن «التسوية» (يقصد المساواة) لم يكن هناك غير أسياد فرنسيين جدد حلوا في قصور أسياد الأمس من المماليك والأتراك، وعاشوا عيشتهم وساروا في الشعب سيرتهم.

ومن هنا فقد كان الجبرتي على حق في رفض تلك الشعارات كما طبَّقها الفرنسيون، ولكن الحقيقة كما يوضح بهاء طاهر هي أنه لم يرفض التطبيق وحده، بل رفض المبادئ في ذاتها، وكان في رفضه ذلك يعبِّر عن «ثقافة» العصر السائدة آنذاك.

فمع أن الجبرتي هو الذي وصف لنا ويلات الحكم المملوكي ـ التركي السابق على الحملة، وقال لنا إن مظالمهم «كانت أهم الأسباب في خراب إقليم مصر»، فإنه لم يرتِب على ذلك أن «الفضلاء والعلماء من أهل مصر أحق بحكمها».

وحين أنشأ بونابرت الديوان الذي ضمَّ «العلماء والأفاضل»، برئاسة الشيخ الشرقاوي، للمشاركة في حكم مصر (مشاركة صورية كما هو معلوم)، أصرّ ذلك الديوان على تعيين المماليك في الوظائف التنفيذية، وأصابت الدهشة البالغة الفرنسيين؛ لأنهم -على حد قول الجبرتي- «كانوا ممتنعين عن تقليد المناصب لجنس المماليك، فعرفوهم أن سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم»!

وظاهر الأمر أن الجبرتي لم ينقل ذلك الرأي فحسب، بل كان يؤمن به إيمانًا تامًّا، فهو يعلّق على ما جاء في بيان نابليون من أن «جميع الناس متساوون أمام اللـه تعالى بقوله «هذا كذب وجهل وحماقة»!.. كيف وقد فضل اللـه بعضهم على بعض؟!».

ومع ذلك، يرجِّح بهاء طاهر أن الذين صاغوا لبونابرت بيانه بالعربية كانوا يعولون كثيرًا على هذه الجملة عن المساواة.. فقد كانوا من الدارسين لتاريخ مصر والشرق، ولعلهم أرادوا بعبارتهم تلك أن يثيروا في مخيلة المصريين أصداء الحديث الشريف القائل معناه: «الناس سواسية كأسنان المشط»، لعلهم كانوا يعتقدون أن ذلك كفيل بإثارة المصريين على المماليك لكي يُلْقُوا عن كاهلهم نيرَ حكمهم الغَشُوم فيكسبهم الفرنسيون لصفهم، ولكن «ثقافة العصر» كانت قد بَعُدَ بها العهد عن ذلك الماضي المجيد بقيمه النبيلة، فأصبح مثقف مثل الجبرتي يرتاع من القول بالمساواة، ويرى أن أهل مصر «سوقة»، وأنهم لا يمكن أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم.

(٤)

وفي هذه المسألة؛ مسألة المبادئ والأفكار السياسية الحديثة التي احتكَّ بها المصريون لأول مرة في مواجهتهم المباشرة مع جيش الاحتلال الفرنسي، فإن المرحوم صلاح عيسى يقدم لها تأصيلًا نظريًّا بالغَ الأهمية والقيمة؛ فهو مثلًا ممن يرُدُّون الآثار الإيجابية للحملة إلى ما أحدثته الثورة الفرنسية قبل ذلك بأحد عشر عامًا!

فقد كانت فرنسا ـ يوم خرجت منها الحملة إلى مصر ـ هي فرنسا الثورة الكبرى، التي لم يكن قد مضى على نشوبها سوى عشر سنوات، وهي الجمهورية الأولى التي لم يكن قد مضى على تأسيسها سوى سبع سنوات، وهي فرنسا (إعلان حقوق الإنسان) والمواطن الذي قَنَّنَ أفكار (فولتير) و(مونتسيكيو)، و(روسو)، فكفل حريات التملك والرأي والعقيدة باعتبارها حريات طبيعية، وضمن حق الشعوب في اختيار من يحكمها ومحاسبته، وحقها في مقاومة الاستبداد والظلم، وأقرَّ مبدأ الفصل بين السلطات والمساواة أمام القانون وشخصية العقوبة، وحظَر الاعتقال بلا محاكمة، والاتهام بلا قانون، والعقوبة بلا دفاع، وأدان العقوبات الجماعية والتعذيب الوحشي.

ويُبرز صلاح عيسى أن الحملة على مصر كانت تعبيرًا عن إيمان الثوار الفرنسيين بأن الواجب الإنساني يفرض عليهم العمل على نشر مبادئ الثورة الفرنسية، خارج حدود بلادهم، حتى تسعد البشرية قاطبة. ويتحرر الإنسان من قيودِ الرِّقِّ والعبودية، لذلك حرص قائدها (ساري عسكر بونابرته الكبير)، على أن يؤكد للمصريين، في أول منشور

يوجهه إليهم، أن بلادهم قد أصبحت جزءًا من (الجمهور الفرنساوي) ـ على حد تعبير (الجبرتي) ـ، وعلى أنه (قادم إليهم من طرف الفرنساوية المبني على الحرية والتسوية) لكي (يخلص مصر من الظالمين)؛ ولأنه يؤمن بأن جميع الناس متساوون عند الله لا يفرِّقهم عن بعضهم إلا العقل والفضائل والعلوم فقط، فقد بشَّرَهم بأنه «من الآن فصاعدًا، لاييأس أحد من أهالي مصر قاطبة عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء من بينهم سيدبرون الأمور ـ أي يتولون الحكم ـ وبذلك يَصْلُحُ حال الأمة كلها».

بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ، حدث ذلك المشهد من مشاهد المواجهة بين (خالص الفؤاد عبد الله جاك منو) خليفة (نابليون بونابرت)، والقادم مثله من طرف الفرنساوية المبني على الحرية والتسوية، ومشايخ الديوان القادمين من ظلمات العصور الوسطى، فإذا به يهددهم بكل ما يحظره إعلان حقوق الإنسان والمواطن، أما هم فقد أحرجوا القومسيير (فورييه) ـ عالم الرياضيات الكبير ـ حين واجهوه بأن ذلك ليس طيبًا؛ لأن قرآنهم الكريم، قد أقرَّ مبدأ شخصية العقوبة قبل أكثر من ألف عام، فلم يجد الثائر الليبرالي القادم من طرف الفرنساوية المبني على الحرية والتسوية، ما يردُّ به على منطقهم إلا الاعتذار السخيف بأن المدافع لا تقرأُ القرآن، ولو أنصف لأضاف: ولا إعلان حقوق الإنسان!

ولا ينفي ذلك كله، كما يقول صلاح عيسى، أن الحملة الفرنسية على مصر، كانت بداية اليقظة القومية المصرية، ولكن فضلَ الحملة في ذلك كان فضل (التحدي) الذي استدعى (الاستجابة)، و(الفعل) الذي استدعى (رد الفعل)، فقد هرب المماليك الذين كانوا يحتكرون

لأنفسهم حقَّ حمل السلاح، وحق الدفاع عن البلاد، فتقدم المصريون لكي يدافعوا عن بلادهم، ليكتشفوا عبر المقاومة، ومن دون أن يقرأوا منشورات نابليون، أو يشتركوا في مؤسسات، أنهم أصحاب البلاد، وأن من حقّهم أن يختاروا حاكمهم، وكان ذلك ما فعلوه عام ١٨٠٥، وبعد أربع سنوات من رحيل الحملة الفرنسية عن مصر.

ولو أنصف الذين يشيعون أن الحملة الفرنسية كانت بوتقة التفاعل بين أفكار الثورة الفرنسية والفكر العربي، لتذكَّروا أن ذلك لم يحدث إلا حين دفع الصراع الأوروبي فرنسا إلى تأييد محاولة (محمد علي الكبير) لإنشاء دولة عربية مستقلة، فاستقامت العلاقات بين الثقافتين، ولأدركوا أن تفاعلًا من هذ النوع، ما كان ممكنًا أن يتمَّ في ظلال المدافع؛ لأن الاستقلال والنِّدِّيَّة والاحترام المتبادل شروط أساسية لا يمكن من دونها أن يحدث تفاعل صحي بين الثقافات والحضارات!

ولنا أن نتساءل أخيرًا مع المرحوم صلاح عيسى:

هل كانت الحملة الفرنسية على مصر (يونيو ١٧٩٨ / أكتوبر ١٨٠١) ـ في ضوء ذلك المشهد من مشاهد المواجهة بين الغرب والشرق، وبين الأوروبيين والعرب ـ هي بوتقة التفاعل الصحيح بين أفكار الثورة الفرنسية والفكر العربي؟ وهل يمكن أن نعتبر تلك الحملة هي البداية الصحيحة للتاريخ العربي الحديث فنعترف لها بالفضل الرئيسي في إنهاء القرون الوسطى العربية، وتحطيم النظام الإقطاعي العربي ودخول العرب إلى آفاق عصر القومية والتقدُّم والتنوير والديمقراطية؟

ولو كان الأمر كذلك، فإلى أي وجه من وجوهها يعود هذا الفضل: إلى الفعل الذي هو الحملة، أم إلى ردِّ الفعل الذي هو المقاومة؟

تلك أسئلة من النوع الذي تحتاج الإجابة عنه إلى بيان لا يطيل فيملّ ولا يقصر فيخلّ؛ لأنها تتعلق بأمور مشتبهات ليس الخير فيها بيّنًا، وليس الشر فيها واضحًا، قد يُغرقها الإطناب في مستنقع التفصيلات، التي لا تقول شيئًا، وقد ينتهي بها الإيجاز إلى إصدار أحكام بلا حيثيات لا تضيف جديدًا.

(٥)

الوجه الآخر من الحملة، وهو الذي يكاد يبقى ويسجّل منه وبه، ما لم يكن يقصده الفرنسيون بشكل مباشر لصالح المصريين؛ أقصد الإيجابيات التي خلّفتها الحملة علميًّا وفكريًّا وحضاريًّا على مصر والمصريين. وكما أشرنا، فإن من أهمها على الإطلاق تأسيس «المجمع العلمي المصري» الذي كان من نتائجه الكبرى تصنيف الكتاب الموسوعي الضخم «وصف مصر»، الذي سنتحدث عنه تفصيلًا، فيما نوضّح الآن كيف تأسّس المجمع العلمي، ومِمَّ تشكّل وما الأدوار التي عُهِدَ إليه القيامُ بها.

كان من أبرز ملامح الحملة الفرنسية على مصر، أنه قد رافقتها مجموعة فريدة وشديدة التميز من العلماء الفرنسيين ـ في شتى مجالات العلم والتخصصات كافةً ـ؛ أكثر من ١٥٠ عالمًا وأكثر من ٢٠٠٠ متخصص من خيرة الفنانين والرسامين والتقنيين الذين رافقوا «نابليون بونابرت».

وبمجرد وصول بونابرت إلى أرض مصر، وفور استقراره بها، أرسل في الثاني من أغسطس عام ١٧٩٨ يطلب حضور جميع العلماء والفنانين والرسامين والمهندسين إلى القاهرة، حيث اجتمع بهم، وبدأ

في عملية إعادة تنظيم «لجنة العلوم والفنون» التي كانت تضم علماء من كل التخصصات: الرياضيات، الفلك، العلوم الطبيعية وهندسة المناجم، الهندسة المدنية والمعمارية، الجغرافيا، الموسيقى، إضافة إلى فنيين مختصين في الميكانيكا والبارود والمتفجرات والحجر الصحي والطباعة والترجمة... إلخ..

وطلب منهم تنظيم أعمالهم وتوزيع المهام عليهم، وترتيب مكتبة للعلوم الطبيعية، والتاريخ الطبيعي، ومعمل للكيمياء، ومرصد فلكي، ثم إعداد ما يلزم لإقامة الورش الميكانيكية التي تزوِّد العلماء بالآلات والأدوات والمعدات التي يحتاجونها لإجراء بحوثهم وممارسة مهامهم، وشكَّلت كل هذه الاستعدادات والإجراءات النواة الأولى لتأسيس ما سيُعرف بـ«المجمع العلمي المصري»، الذي تشكَّل على غرار «المجمع العلمي الفرنسي»؛ وريث (الأكاديمية الفرنسية) العريقة، وكان بونابرت يفخر بعضويته في هذا المجمع رفيع المقام.

ووقع الاختيار على منطقة الناصرية بالقاهرة، قرب مسجد السيدة زينب، التي كانت تعج بقصور المماليك الفخمة، التي تركوها هربًا من الوقوع في أيدي الفرنسيين، ومن أهمها قصور حسن بك الكاشف، وقاسم بك أبو يوسف، وعلي يوسف، وإبراهيم كتخدا (الذي سيعرف باسمه الأشهر حتى الآن بيت السناري)، وكانت قصورًا فخمة ذات عمارة رائعة تحيط بها الحدائق الغَنَّاء من كل جانب، ووقع عليها الاختيار لتكون مقرًّا لعلماء الحملة الفرنسية، ومعملًا علميًّا لأبحاثهم وتجاربهم، يمارسون فيه أعمالهم ويُجرون بحوثهم في كل مجالات وفروع العلوم والفنون والآداب.

وبعد أن تمَّت تهيئة المكان وتزويده بالتجهيزات اللازمة، ومن صفوة العلماء والرسامين والفنانين الذين استقدمهم بونابرت معه، انتقى من بينهم الفريق العلمي المؤسس للمجمع، وأصدر بونابرت أمرًا في ٢٠ أغسطس ١٧٩٨ إلى كل من: «جاسبار مونج»، أشهر علماء الرياضيات في عصره، و«جيوفري سانت هيلير» أستاذ علم الحيوان العبقري، و«كلود لوي برتوليه» الكيميائي الشهير، والعالم الشاب المسيو «جومار»، الذي سيلعب الدور الأهم في النقلة الحضارية لمصر عقب مغادرة الحملة، و[القائد] الجنرال «كافاريللي»، و«ديجينت»؛ للاجتماع لبحث تنظيم «المجمع العلمي المصري» بالقاهرة، واختيار أعضائه من العلماء، ونفَّذ العلماء الأمر ووضعوا المواد التي تألَّف منها قرار إنشاء المجمع.

وإذا كان الفضل في تأسيس المجمع العلمي المصري يعود إلى نابليون بونابرت، فإن الفضل الأكبر في تنظيمه وإدارته يرجع إلى العالم الفرنسي الشهير «مونج»، الذي كان يمتلك خبرة واتساعَ أفق ومواهب إدارية مثالية، وكان يسكن في الحارة التي تحمل اسمه في السيدة زينب حتى الآن.

(٦)

وقد نَصَّ قرارُ إنشاء المجمع في مادته الأولى على «أن يكون بمصر مجمع للعلوم والفنون مقره القاهرة»، أما المادة الثانية فنصت على أغراض إنشاء المجمع؛ وجاءت كما يلي:

أولًا: العمل على إشاعة نور العلم وتقدُّم العلوم والمعارف في مصر وازدهارها.

ثانيًا: دراسة المسائل والأبحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية الخاصة بمصر ونشر هذه الأبحاث.

ثالثًا: إبداء الرأي فيما تعرضه عليه الحكومة من المسائل المختلفة التي تستشيره فيها.

وعقد المجمع أولى جلساته في ٢٣ أغسطس ١٧٩٨، حيث تمَّ اختيار «مونج» رئيسًا له، و«بونابرت» نائبًا له، و«فورييه» سكرتيرًا دائمًا، و«كوستاز» مساعدًا له، وكانت هذه هي البداية التي انطلق منها «المجمع العلمي المصري» لدراسة كل صغيرة وكبيرة في مصر، في العلوم والفنون والآداب، والتاريخ والآثار، والعادات والسكان والطقوس.. إلخ.

ولتوضيح المكانة العليا التي كان يحظى بها هذا المجمع، أصدر بونابرت مرسومًا ينص على أن يكون عضو المجمع العلمي المصري عضوًا في المجمع العلمي الفرنسي.

ونقرأ في كتاب «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» ما كتبه «الجبرتي» عن مشاهداته في «المجمع العلمي المصري»، وما رآه من التجارب العلمية التي أذهلتْه وبهرته وعجز عن تفسيرها وفهمها، في إشارة إلى العَجْزِ البادي والفجوة الكبيرة بين التقدم العلمي القادم مع الفرنسيين، والجهل والتخلف الذي كان الشرق يغرق فيه عمومًا. وانتشر علماء الحملة الفرنسية في كل طرف من أطراف مصر، يبحثون وينقِّبون ويجمعون بحوثًا جليلة، ستكون فيما بعد مادة كتاب «وصف مصر» العظيم، أو الأثر العلمي الخالد الذي سجَّلَ بأحرف من نور

عظمةَ وسُمُوَّ بلد عريق كمصر، إضافة إلى الكتب الكثيرة الأخرى التي ظهرت عن تاريخ الحملة من النواحي العسكرية والفكرية والطبية والعلمية.. إلخ.

٦

«وصف مصر».. سيرة ترجمة ومأساة مترجم!

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١)

عسكريًّا؛ انتهت الحملة الفرنسية (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) بهرب قائدها الأول «بونابرت»، واغتيال القائد الثاني «كليبر»، وإسلام القائد الثالث «مينو». كانت قد بدأت وجنودها في سعادة غامرة؛ لأنهم قادمون لاحتلال مصر، مهد العلوم والفنون، وانتهى بهم الأمر إلى أن أصبحوا في سعادة غامرة لأنهم سيغادرونها، بعد فقدهم خمسة عشر ألف جندي. وزاد من حرج موقفهم انتشار الطاعون وفتكه بعدد كبير من الأهالي والجنود، مع اقتراب أيام الحملة من نهايتها. ولما تقرَّرَ ترحيلهم، دفع الشعب المصري النفقات اللازمة، وكانت ثلاثة آلاف كيس من الذهب، للبواخر الإنجليزية، «أخرجها عن طيب قلب، وانشراح خاطر، وبادر بالدفع من غير تأخير، لعلمه أن ذلك لترحيل الفرنساويين».

وكان خروجهم منتصف نوفمبر ١٨٠١ على سفن الحلفاء، ومعهم عشرة مدافع فقط بعد تسليمهم باقي مدافعهم وذخيرتهم، يصحبهم المعلم يعقوب وبعض من أفراد أسرته، لكنه مات في عرض البحر، ليحتفظ الفرنسيون بجثته في دَنٍّ من الخمر، حتى وصلوا إلى مرسيليا ودفنوه هناك، وعبد العال قائد أغا (رئيس الإنكشارية) الذي ذاق القاهريون ويلاته وجبروته، وبعض من التجار الأجانب والمترجمين

t.me/qurssan

والشوام والأروام، ممن كابدوا في فرنسا ـ إثر وصولهم ـ التشتُّتَ والضياع، إضافة إلى زبيدة البواب زوجة مينو.

وحمل الفرنسيون معهم جثة كليبر، والهيكل العظمي لجثة سليمان الحلبي، وآلاف المخطوطات التي نهبوها من خزائن المساجد والكنائس والصوامع، والتقارير والبحوث التي أضحت تاليًا موسوعة «وصف مصر»، ونسخًا من الشمع لحجر رشيد الذي اكتشفه الضابط الفرنسي «بيير فرانسوا بوشار» (P.F.Bouchard) صباح ١٥ يوليو ١٧٩٩، بعد أن أصرَّت القوات الإنجليزية على تسلُّمِه.

ولم يبقَ من الحملة الفرنسية سوى الأثر الأهم والأبقى، عبر الجهد الذي قامت به بعثة العلماء والفنانين والمهندسين والرسامين التي صحبتها، والذي لم يُسفر فحسب عن فك رموز اللغة الهيروغليفية، بل انتهى -كذلك ـ إلى تسجيل وتدوين وكتابة أول مسح شامل لكل الظواهر المصرية الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية والتاريخية، مما أتاح للعالم فرصة للتعرف على مصر، كما أتاح لها فرصة التعرف عليه!

إنه كتاب «وصف مصر»؛ الذي بالمناسبة سيرتبط ذكره بواحد من أبرّ وأنبغ أبناء مجلة (أكتوبر) التي أنتمي إليها؛ المثقف والمترجم الراحل الكبير زهير الشايب.

(٢)

سأستميح قارئي عُذرًا لأستطرد قليلًا، وأروي قصتي أنا مع كتاب «وصف مصر» في ترجمته العربية؛ لأنها تقاطعت بصورة عجيبة مع

أحد أفراد أسرة المترجم العظيم زهير الشايب، الذي نقلَ أجزاءً كبرى من الكتاب بمفرده، قبل أن تنتهي حياته بشكل مأسوي مثير للحزن والأسى والمرارة!

ومن المصادفات العجيبة أيضًا أن أعمل في المجلة ذاتها التي شهدت نبوغ ومأساة زهير الشايب، عليه رحمة اللـه، وقد آليتُ على نفسي أن أعود إلى سيرة هذا الرجل العظيم، وأن أسدِّد دَيْنًا في عنقي له ولأسرته بالمساهمة ولو بجزء يسير في حفظ وتوثيق الإنجاز العظيم الذي قدَّمه المرحوم زهير الشايب للثقافة المصرية والعربية.

كنت في الصف السادس الابتدائي؛ بمدرسة أبو الهول القومية المشتركة، حينما نادى المدرس في أول حصة لنا من العام الدراسي أسماء الطلاب في الفصل الذي قُيدت فيه.. «ياسر زهير الشايب»، هكذا نادى أستاذ الفصل بصوته الجهوري لأجد أن هذا الذي يناديه يجلس بجانبي مباشرة!

ولد وسيم ذو شعر ناعم بني وعيون واسعة وصوت خفيض؛ بعد الحصة سألته هل أنت ابن زهير الشايب مترجم كتاب «وصف مصر»؟ فأجابني بكلمة واحدة فقط. نعم. وانتهى الأمر.

في اليوم التالي، فوجئت باستدعاء عاجل لحجرة مديرة المدرسة في الحصة الأولى؛ توجستُ وقلت في سري ماذا بدر مني كي أُستدعى على «غيار الريق هكذا»!! هناك فوجئت بسيدة وقور بيضاء البشرة صوتها فخيم طلبتني بالاسم؛ أخبرتني مديرة المدرسة الأستاذة فريدة جمال الدين أن السيدة عفت الشريف ولية أمر الطالب ياسر زهير الشايب تريد أن تتحدث إليك!

خفتُ وارتعبت، وقلت ماذا فعلت للولد حتى يأتي بوالدته في اليوم الثاني لنا من العام الدراسي؟ هل يريد طردي من مكاني؟ والله لن أترك له مكاني أبدًا.. على جثتي! وخايلتني الظنون والأوهام إلى أن أفقت على صوت السيدة عفت تقول لي مباشرة وبسؤال مندهش: هل تعرف من هو زهير الشايب؟

قلت لها: نعم. مترجم كتاب «وصف مصر»، اتسعتْ عيناها إلى آخرها، وقالت: ومن أين عرفت «وصف مصر»؟ قلت لها قرأت عنه مقالًا في (الأهرام) لأنيس منصور. فوجئتُ بملامح الذهول ترتسمْ على وجه المديرة والسيدة معًا! ثمّ، وبغير اتفاق، قررتا معا أن يرفعا وتيرة الاستجواب دفعة واحدة، فإما أن أكون صادقًا وإما أن في الأمر سرًّا لا بُدَّ وحتما سيكشفانه!

سألتني السيدة عفت: وماذا قرأت في المقال؟ أخبرني عما قرأته عن «وصف مصر»؟

ووجدتني بحماسة جارفة أخبرها بكل ما أوتيت من مهارة في الحديث عن الكتاب، وعما استطعت استيعابه من مقال أنيس منصور (لا أذكر عنوانه الآن؛ وإن كنت أذكر إشادته بالكتاب وترجمته وقيمته وما يحويه من معلومات مهمة للغاية عن مصر وتاريخها وآثارها وكل شيء فيها.. إلخ).

وهنا تبسَّمت السيدة وتوجهت بالحديث إلى الأستاذة فريدة جمال الدين، وقالت لها: «لو كان زهير حيًّا لفرح بما نراه الآن، ولأَدْرَكَ أن ما بذل فيه الجهد والوقت والعمر لم يَضِعْ هباءً».

وطلبت مني زيارتها في بيتها بالعمرانية الشرقية خلف مزلقان القطار لتهديني بعضًا من أجزاء الترجمة العربية التي أنجزها زوجها الراحل الكريم من كتاب «وصف مصر».. وكان رحمه الله قد أخرج تسعة أجزاء كبار من المتن الفرنسي، بالإضافة إلى خمسة مجلدات من اللوحات (ثلاثة منها عن الدولة القديمة واثنان للدولة الحديثة)، ثم جاءت وفاته المفجعة لتقف الترجمةُ عند أعتاب الجزء العاشر؛ ولَمَّا يستكمله بعد.

تقريبًا وقف زهير الشايب أكثر من ثلث عمره الأخير لهذه الإنجاز الضخم، والجهد الجبار الذي تنوء به مؤسسات بأكملها (كلنا نذكر كيف تمت ترجمة أعمال كبيرة مثل «دائرة المعارف الإسلامية» التي قام بنقل أجزاء كبيرة منها لجنة من كبار المترجمين؛ وصار الأمر ذاته في ترجمة الموسوعة الضخمة «قصة الحضارة» في ٤٢ جزءًا للمؤرخ الأمريكي الشهير ول ديورانت).

كان طموح زهير الشايب كبيرًا وهائلًا، لا يملك من عتاد الدنيا سوى إرادته ومعرفته وقدراته اللغوية والتاريخية، وقبل كل هذا إيمان راسخ بنُبْلِ الهدف والغاية من هذا المشروع؛ لقد قُوبِلَ طموح زهير الشايب باستخفاف واستهتار وتسفيه، ولم يصدِّقْ أحد أن يقوم فرد «بِطُولِه» مهما أوتي من قوة ومهارة ونبوغ بترجمة مثل هذا العمل الضخم، الذي يقع في أصله الفرنسي في ٢٨ مجلدًا ضخمًا، عدا مجلدات اللوحات والرسوم والخرائط.

ورغم كل التَّسْفِيهِ الذي واجهه، والعَنَت والأذى الذي مُورِسَ ضده، نجح زهير الشايب بإرادته وعزمه ودأبه في أن ينجز ترجمة المجلدين الأولين إلى العربية؛ وفق منهج صارم ومحدد ومرتب، واستطاع أن يُخرج

إلى قراء العربية المجلد الأول بعنوان (المصريون المحدثون)، والمجلد الثاني بعنوان (العرب في ريف مصر وصحراواتها)، ثم أتبعهما بالمجلد الثالث بعنوان (دراسات عن الأقاليم والمدن المصرية). ثم توالت بقية المجلدات تباعًا حتى المجلد الثامن؛ وصدرت الطبعة الأولى من المجلدات الخمسة الأولى عن مكتبة مدبولي الشهيرة (قبل أن تقرِّر السيدة عفت إنشاء دار الشايب للنشر، لتتولى هي وبمعرفتها إصدار كامل أجزاء «وصف مصر» التي تمَّ إنجازها والاستعداد لإصدار بقية المجلدات).

وصحا الوسط الثقافي ذات يوم ليُفاجَأ براهب فكر حقيقي ينجز بمفرده و«طُولِهِ»، وفي ظروف أقل ما توصف به أنها سيئة، بل محرضة وعدائية ومشحونة بكل مشاعر الحقد والإيذاء تجاه الرجل البسيط الطيب وتجاه مشروعه الذي استخفوا به في البداية واستكثروه عليه في النهاية حتى خاتمته المأساوية، صحا هذا الوسط على خبر فوز زهير الشايب بجائزة الدولة التشجيعية عن ترجمته للجزأين الأولين من موسوعة «وصف مصر».

كانت المأساة تتمُّ فصولًا؛ وبدلًا من أن تكون الجائزة إعلانًا بقيمة الرجل وعظمة ما أدى للوطن والحضارة الإنسانية بنقل هذا الأثر إلى العربية؛ تكالبت عليه النفوس السوداء والأيدي القذرة وتآمرت عليه وعلى مشروعه، ودفعت به إلى نقطة النهاية، ليموت الرجل بذبحة صدرية حادة عقب مؤامرة دنيئة أتت على ما بقي من مقاومته الشريفة في عام [1] ١٩٨١.

---

(١) كتب المرحوم جميل عارف فصلاً مؤثرًا عن مأساة المرحوم زهير الشايب، في كتابه الشهير «بارونات الصحافة في مصر»، المكتب المصري الحديث، القاهرة، د.ت.

ولا أنسى ما حييت الدموع التي روتْ لي بها السيدة عفت الشريف قصة هذا النبيل وقصة ترجمته لـ «وصف مصر»، وما عاناه وما لاقاه. لكن اللـه لا يضيع أجر من أحسن وأجاد واجتهد؛ فأراد سبحانه أن يخلّد ذكر الرجل وأثره؛ ورغم وفاته الفاجعة التي حالت دون إتمام كامل أجزاء «وصف مصر»؛ فإن اللـه قَيَّضَ له من أولاده وبناته ومن قبلهم زوجه الوفية، كي يفوا بالعهد وينجزوا الوعد ويُتموا ما نواه وبدأه أبوهم الجليل.

وتتخصص ابنتاه الكبريان «منى» و«أمل» في التاريخ والآثار واللغة الفرنسية، وتصبح منى أستاذة التاريخ والآثار المصرية القديمة بكلية الآثار، وتكمل هي ما بدأه أبوها، وينتهي المطاف أخيرًا بإنجاز أول ترجمة عربية كاملة للموسوعة الأكبر «وصف مصر»، وتحمل اسم المرحوم زهير الشايب؛ وهي الترجمة التي صدرت في صورتها الكاملة منذ أشهر قلائل فقط عن الهيئة المصرية العامة للكتاب في ٣٧ مجلدًا في كرتونة ضخمة، وقام بتصميم أغلفة الموسوعة الفنان المتألق أحمد اللباد.

ورغم صدور هذه الطبعة من دون أي دعاية أو إعلان أو مظاهر احتفائية تليق بالكتاب وتاريخه وقيمته وقيمة مترجمه، وما أدّاه للثقافة المصرية والعربية، ومن بعده أولاده وبناته، فإنه سيظل خالدًا وباقيًا ومحفوظَ القيمة والسيرة والأثر.

(٣)

وأعود إلى الوصف التفصيلي للكتاب، وكيف تآلفت بحوثه ومواده،

t.me/qurssan

ومقالاته ودراساته، ولوحاته ورسوماته، لتشكل هذه الجدارية الوصفية الهائلة التي عُرفت باسم «وصف مصر».. إن هذا الكتاب أو بالدِّقَّة «مجموعة الملاحظات والأبحاث الموضوعة في مصر أثناء حملة الجيش الفرنسي والمنشورة بأمر صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون العظيم»، هو الأثر العلمي والحضاري والإنساني الأكبر والأعظم والأهم من الحملة الفرنسية على مصر.

إنه صورة علمية دقيقة لمصر والمصريين، كما لم يرها أو يعرفها أكثر المصريين، فلم يدعْ علماء الحملة الفرنسية صغيرة ولا كبيرة إلا سجلوها ورصدوها بمنتهى الدقة والموضوعية و«الشغف».

كُتب «وصف مصر» وجُمِع بواسطة فريق كامل من علماء الحملة الفرنسية، من التخصصات كافةً، سجَّلوا من خلاله ملاحظاتهم ودراساتهم الدقيقة وبحوثهم التفصيلية. وبعد عودة الفريق إلى فرنسا شكَّل وزير الداخلية الفرنسية آنذاك، جان أنطوان شبتال، لجنة ضمت ٨ علماء، جمعوا ونشروا جميع هذه المواد العلمية الخاصة بالحملة، ولا يزال هذا العمل من أهم مصادر كتابة تاريخ مصر القديم والحديث، في مختلف المجالات حتى اللحظة.

نقطة البدء في جمع وتصنيف وظهور هذا الكتاب كانت في سنة ١٨٠٢ عقب جلاء الحملة عن مصر وعودتها إلى فرنسا؛ إذ أصدر نابليون مرسومًا بطبع كتاب (وصف مصر) في المطبعة الإمبراطورية، وكانوا قد عرضوا عليه مجلدات اللوحة الكبيرة التي رسموها للآثار المصرية القديمة، والنبات، والحيوان، والملابس، والأطعمة. واحتوى الكتاب في صورته الأولى على ٤٠٠ لوحة فخمة، و٨٣٧ لوحة نحاسية، و٣٠٠٠

رسم. وقد أدى هذا الاهتمام البالغ من الإمبراطور نابليون إلى التعجيل بطبع «وصف مصر» في سنة ١٨٠٩، وهي الطبعة التي ما زال يتوفر منها نسخ حتى الآن في صورتها التي طُبعت عليها زمن نابليون.

وعن هذه الطبعة يقول الدكتور أحمد زكريا الشلق[1]:

«هذه النسخة هي التي طبعت عام ١٨٠٩م، وهي السنة التي أخرج فيها علماء الحملة الفرنسية، وهم القوام المشكل لأعضاء المجمع العلمي في مصر، آنذاك، مؤلَّفهم الموسوعي الضخم «وصف مصر»، الذي يُعتبر أهم مرجع لكل من تناول أي موضوع يتَّصل بمصر، حيث انتشر علماء الحملة الفرنسية في كل طرف من أطراف مصر يبحثون وينقبون، وجمعوا بحوثا جليلة ستكون فيما بعد مادة كتابهم، والكتب الكثيرة الأخرى التي ظهرت عن تاريخ الحملة من النواحي العسكرية، والفكرية، والطبية، والعلمية.. إلخ.

ويعرف الدكتور الشلق كتاب «وصف مصر» بأنه «يُعَدُّ فريدًا ونادرًا في بابه، وهو الكتاب الذي جمع فيه علماء الحملة الفرنسية خلاصةَ أبحاثهم ودراساتهم عن مصر، تاريخًا وجغرافية، بشرًا وعاداتٍ وتقاليدَ وطقوسًا، جيولوجيا وأنثروبولوجيا، نباتات وحيوانات وحشرات.. وكل ما يخص مصر بعمق تاريخها، وبامتداد طولها من ساحل البحر المتوسط حتى شمال السودان، وعرضها من ساحل البحر الأحمر وتُخُوم الشام حتى الصحراء الغربية والحدود مع ليبيا».

---

(١) راجع: أحمد زكريا الشلق: «الحداثة والإمبريالية ـ الغزو الفرنسي وإشكالية نهضة مصر»، سلسلة التاريخ الجانب الآخر (إعادة قراءة للتاريخ المصري)، دار الشروق، ٢٠٠٦، ص ١٢١، ١٢٢.

 t.me/qurssan

ولا أحد يعرف بعد ذلك كم عدد الطبعات التي ظهرت من «وصف مصر» في كل اللغات، ما عدا العربية، حتى تصدَّى المرحوم زهير الشايب - عليه رحمة الله - لأخذِ الخطوة الأولى الجريئة في مشروع ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية.

يقول أنيس منصور[1] «أنا شخصيا رأيت عشرين طبعة فرنسية. وأربع طبعات يابانية.. ورأيت ملخصات لهذا الكتاب وصورًا ملونة وأفلامًا. ولم يتوقف أحد عن الاهتمام بمصر من ذلك الحين. وفي كل سنة تستطيع أن تتفرج على دور النشر الفرنسية التي تُصدر كل عام كتبًا جديدة عن ملوك وملكات وأساطير ومعابد ومقابر مصر الفرعونية. ولا شيء يدلُّ على صحة المثل الذي يقول: «الحب يصنع المعجزات» مثل غرام الفرنسيين بمصر الفرعونية. وإذا كانت مصر هبة النيل، فإن مصر الفرعونية هبة فرنسا».

(٤)

ويروي أنيس منصور في واحدة من مقالاته العديدة التي خصصها للحديث عن «وصف مصر» (في عموده الشهير مواقف بالأهرام)، والحملة الفرنسية وعلمائها، وعن زهير الشايب، أن نابليون بونابرت - ولأسباب سياسية وعسكرية واقتصادية - رأى أن يجيء إلى مصر بأحسن قوات فرنسا ومعداتها. وأهم من ذلك، اصطحب معه قرابة

(١) أنيس منصور: مقاله في عمود مواقف، جريدة (الأهرام)، الإثنين ٢٦ أبريل ٢٠٠٤، العدد [٤٢٨٧٥]، السنة ١٢٨.

t.me/qurssan

المائتين من علمائها الشبان، الذين يبلغ متوسط أعمارهم ٢٥ عامًا؛ فكان منهم ١٢ من علماء الرياضيات، و١٣ من خبراء البيئة والجيولوجيا والمناجم، و٣ فلكيين، و١٢ من خبراء الطباعة، كانوا مزوَّدين بحروف عربية ويونانية ولاتينية وعبرية، و٨ من خبراء المياه، و١٧ من المهندسين المدنيين والمعماريين، و٩ من خبراء المياه، و١٠ من الأدباء.

وفي ظروف قاسية جدًّا عكف هؤلاء العلماء على وصف مصر، بعضهم كان يرسم وهو جالس على الأرض، وبعضهم فوق الخيول.. وهم في صراع مع الحر والذباب والتراب والأمراض والزمن.

ويمكن لمن أراد المزيد من التفاصيل المدهشة عن هذه المغامرة التي ليس لها مثيل، مراجعة الكتاب القيم الممتع الجميل «علماء بونابرت في مصر»[1] للكاتب الفرنسي الشهير (مصري المولد والنشأة) روبير سوليه، وقد قامت بترجمة الكتاب عن الفرنسية فاطمة عبد الله محمود، وراجعه وقدَّمه الدكتور محمود ماهر طه، وكتب تصديرًا خاصًّا له المرحوم أنيس منصور، وهو صادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب في سلسلة مصريات (تاريخ ـ فن ـ حضارة).

يتناول الكتاب، تفصيلًا، بالعرض والتأريخ والتحليل، سيرة تلك النخبة العلمية والفكرية والفنية الفذة التي اصطحبها معه نابليون في حملته على مصر عام ١٧٩٨؛ كانوا من صفوة المجتمع العلمي الفرنسي. وخلال السنوات الثلاث للحملة الفرنسية، فحص هؤلاء العلماء والخبراء

(١) «علماء بونابرت في مصر»، روبير سوليه، ترجمة فاطمة عبد الله محمود، مراجعة وتقديم د. محمود ماهر طه، تصدير أنيس منصور، سلسلة مصريات، الكتاب رقم [٨]، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

والمتخصصون كل مظاهر الحياة المصرية، وآثارها القديمة، وطبيعتها، وسكانها، وأصبحت تلك الدراسات والأبحاث المجمعة في ٢٤ مجلدًا (في صورتها الأولى)، ثم في ٣٧ مجلدًا (في طبعتها الأخيرة) تُعرف بـ «وصف مصر»، ولقد شارك فى إعداد هذه المجلدات ما يزيد على ثلاثمائة فنان وطابع.

وما زال الحديث موصولا عن «وصف مصر»، وسيظل موصولًا لقيمة واعتبار وعراقة البلد الذي يدور حوله الكتابُ الموسوعة.

t.me/qurssan

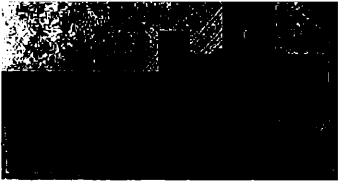

المجمع العلمي وقت تأسيسه

حجر رشيد

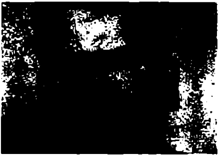

المرحوم زهير الشايب.. مترجم «وصف مصر»

t.me/qurssan

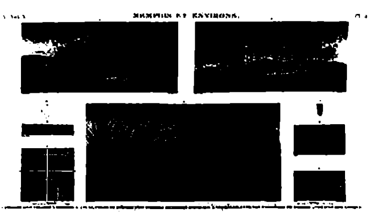

صفحات من «وصف مصر»

t.me/qurssan

٧

محمد علي...
الباشا يبحث عن إمبراطورية!

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١)

في عام ٢٠٠٥ احتفلت المؤسسة الثقافية الرسمية؛ ممثلة في المجلس الأعلى للثقافة، بمرور مائتي عام على تولي محمد علي باشا (الكبير) حكم مصر المحروسة، بإرادة شعبية حقيقية. لم يكن مجرد احتفال تقليدي بحدث تاريخي عابر؛ بل إنه تاريخ دالٌّ على انتقالة كبرى لا في تاريخ مصر وحدها، بل في تاريخ الشرق الأوسط كله.

كانت معجزة محمد علي الخاصة في قدرته على صياغة مستقبل أمة بكاملها، ونقلها نقلة جذرية في كل مجال تقريبًا، وهو الأميّ الذي لم يكن يعرف القراءة والكتابة (وإن سعى إلى تعلمهما وهو في سن الخامسة والأربعين)، ولم يعرف اللغة العربية للشعب الذي حكمه، وفتح أمامه أبواب التحديث والحداثة.

وعلى الرغم من انهيار مشروع الحلم الإمبراطوري لمحمد علي باتفاق لندن ١٨٤٠، الذي حجم الدولة وقلص من حدودها، فإن مشروع النهضة والتحديث لم ينكمشْ؛ ففي الوقت الذي بدأت فيه الجيوش في التراجع كان حجم النخبة المصرية يتنامى، ولم يعدْ قاصرًا على العلماء، أو محصورًا في دائرة الأزهر. انضم إلى قطاع النخبة، الخبراء

t.me/qurssan

العسكريون، وضباط الجيش المصريون، ثم تبعهم من تلقّوا تعليمهم في فرنسا، خاصة بعد التوسع في نظام البعثات، ليضمَّ أفرادًا من خارج الجيش يدرسون العلوم المدينة مثل علوم الإدارة والقانون والاقتصاد.

لقد كان حلم تكوين الإمبراطورية المصرية على يد محمد علي حلمًا قريبَ المنال؛ بل إنه تحقَّق بالفعل وكان مقدَّرًا له أن يرثَ الإمبراطورية العثمانية، لولا تدخلات القوى الاستعمارية التقليدية، كالعادة، لإجهاض أي مشروع كبير في هذه البقعة من العالم.

وكما ألمحنا في فصولٍ سابقة، فقد جاءت الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) كالعاصفة أو الإعصار العنيف، الذي هدم مبانيَ كانت آيلة للسقوط فعجَّل بسقوطها، وحرَّك قوى كانت موجودة، ولكنها كانت تحتاج إلى من يحرِّكها ويُكسبها النشاط والفاعلية، وحركت أوضاعًا آسِنةً لتتخذ في حركتها أشكالًا جديدة، وتنشئ فيما بينها علاقات جديدة.

لقد انهارت صيغة النظام التي كانت حاكمة لمصر في خضم هذا الحراك الشعبي والسياسي الذي شارك فيه المصريون بنهوضهم الثوري، وشاركت فيه القوة العثمانية، وترك هذا الانهيار فراغًا سياسيًّا وتنظيميًّا على مدى السنوات الأربع التالية لرحيل الحملة الفرنسية، وهي حالة عرفتها كل الثورات، عندما تنهار أسس وصياغات وعلاقات الحكم القائمة، وتبدأ أسس وصياغات وعلاقات جديدة تتشكل وتنتظم علاقاتها على نحو آخر، بعض المؤرخين يرى أن من الأوفق تسمية هذه الفترة بـ«الثورة الأولى» التي عرفتها مصر في تاريخها البادئ مع القرن التاسع عشر[1].

---

(١) راجع: طارق البشري: «محمد علي ونظام حكمه»، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٨

وطِبْقًا لهذه الرؤية، فقد أدَّت هذه الحالة الثورية إلى بلوغ محمد علي حكم مصر واليًا عليها من قِبَلِ السلطة العثمانية، ولكن باختيار من الشعب المصري ذاته، ومن خلال نظام محمد علي مع البناء المؤسسي الذي جرى خلال حكمه «تمصّرت مصر» من حيث جهاز حكمها ونظمها، على مدى القرن التاسع عشر كله.

(٢)

بدأت قصة صعود محمد علي سدّة الحكم في مصر، في ظروف جلاء الحملة الفرنسية عن البلاد، وقد كان هو ممن شاركوا في إخراجها، كانت حملة الفرنسيين على مصر أتت في يوليو ١٧٩٨ وخرجت في سبتمبر ١٨٠١، وشارك في إخراجها الجيش العثماني، وقوات بريطانية، وأمراء المماليك المصرية، وجماهير من الشعب المصري، تحركت وقتها ثائرة تحت قيادة علماء من الأزهر وأعيان مصريين، وكان لكل من هذه القوى أهداف ترجو أن تحققها بعد إخراج الفرنسيين.

إن الفرنسيين بقوا في مصر مدة لا تزيد على السنوات الثلاث إلا بشهرين أو ثلاثة، وذلك من بدءِ ما وطئت أرضَ مصر قدمٌ فرنسية، حتى نهاية ما غادرتها آخر قدم عسكرية، ولذلك فإن بعض المؤرخين قد بدا شديد التحفظ على المقولات التي تتحدث أو تشير إلى الأثر «التنويري» أو «التحديثي» للحملة الفرنسية، في ذلك الوقت[1]، ليس فقط من الجوانب التثقيفية أو الحضارية، ولكن أيضًا من جانب قِصَرِ

(١) راجع فصل (مولد الحداثة المصرية.. ليست خالصة لك يا بونابرت!)

المدة، فإن جيشًا غازيًا من حضارة غريبة، وبلغة غريبة، وبتقاليد غريبة، وفي ظل غزو عسكري مسلح يضرب ويقتل ويهدم، وفي ظل مقاومة شعبية، كل ذلك لا يمكن أن ينتج أثرًا ثقافيًا في مدة ثلاث سنوات.

لكن من الصواب أيضًا القول إن الحملة الفرنسية أنتجت آثارًا مهمة، وذلك ما نلمسه في الجانب السياسي، والجوانب الخاصة بموازين القوى السياسية التي تتعامل مع الأحداث المصرية، وهذا ما سيتكشَّف بعد قليل، ولكن لا يمكن في نظر فريقٍ معتبر من المؤرخين أن يكون الغزو الفرنسي ذا أثر في القضايا الثقافية الخاصة بالتنوير والتحديث التي نعرف جميعًا أن التحولات بشأنها تستلزم أوقاتًا أطول، ومجاهدات أشق، وأزمانًا تتوالى.

ولذلك، فنحن عندما نتكلم عن تنوير أو تحديث، إنما يتعين علينا أن نتكلم عن محمد علي ومشروعه الوطني، والذي استمر إلى ما يشارف نصف القرن بتشكيلاتٍ مؤسسية، ونهوضٍ اقتصادي ومعاهد تعليم، يتعين إذن أن نسلِّط الضوء على ذلك، وليس على عملية غزو أجنبي «فاشل»، لم يُكتب له البقاء أكثر من ١٢٠٠ يوم، لا تكفي وليدًا لأن يُحْسِنَ الكلام، وكذلك الأمر في شأن التطور الثقافي في عهد محمد علي، هو شأن التطور ذاته في الفترة ذاتها في الدولة العثمانية بغير غزو فرنسي[١].

(٣)

كان المشروع السياسي للدولة المصرية في النصف الأول من القرن

(١) راجع: طارق البشري: «محمد علي ونظام حكمه»، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٨.

t.me/qurssan

التاسع عشر، والمعبِّر أساسًا عن الطموح الشخصي لمحمد علي الكبير (١٨٠٥ ـ ١٨٤٠)، هو محاولة إعادة إنتاج «الإمبراطورية العثمانية» في صيغة عصرية حداثية. من هنا استعار محمد علي المفردات الإصلاحية لمشروعه من مفردات مشروع الإصلاح التركي؛ التي تتمثل بالأساس فيما يلي:

ـ إنشاء جيش عصري حديث مسلَّح بأسلحة عصرية.

ـ إرسال البعثات إلى أوروبا لتحصيل العلوم العسكرية، والاستعانة بالخبراء الأجانب للإشراف على إنشاء المؤسسات الجديدة.

ـ تطوير الدواوين القديمة، بما يتلاءم مع متطلبات المشروع الطموح.

وكان من الطبيعي أن تكون «فرنسا» هي القِبلة الأساسية؛ بحكم ما تركته من أثر خلال حملة «نابليون».. إيجابي في بعض جوانبه، وسلبي في بعضها الآخر، في وعي النخبة من علماء الأزهر؛ وذلك للتقليل من شأن أي معارضة يمكن أن تُثار في وجه طموحاته من قِبَلِهم.

لقد كان هؤلاء العلماء هم الذين نصّبوا محمد علي حاكمًا على مصر، وبايعوه مشترطين عليه «العدل بين الرعية»، و«إقامة الأحكام والشرائع»، و«مشاورة العلماء في كل الأمور»، وإلا قاموا بعزله، وكان هذا العهد مصدرَ قلق لمحمد علي، لم يتخلَّصْ منه إلا بالتخلص من هؤلاء العلماء المناوئين، باستخدام سلاحي العصا والجزرة.

وكانت المؤسسات الجديدة المعبِّرة عن المشروع الإمبراطوري لمحمد علي هي «المطبعة»، والصحف، بإنشاء جريدة (الوقائع المصرية)، ومكاتب الترجمة، والمدارس العسكرية التقنية؛ كالطب، والتمريض، والمهندسخانة.

كان «المثقف» الذي صاغ تلك الأيديولوجيا الإحيائية هو الشيخ حسن العطار (ت ١٨٣٥) - أستاذ رفاعة الطهطاوي - الذي درس في الأزهر وتركيا ودمشق، قبل أن يعود إلى مصر ويصبح شيخًا للأزهر منذ عام ١٨٣٠ حتى وفاته.

في هذا السياق، يبدو عصر النهضة «المصرية» امتدادًا للكلاسيكية الجديدة في القرن الثامن عشر، فليس الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) إلا امتدادًا تركيبيًّا فذًّا من أستاذه الشيخ حسن العطار ومن تجربة الرحلة إلى باريس.

(٤)

يصف الطهطاوي حالة الوطن عندئذٍ فيقول إن محمد علي حين تولى حكم مصر «لم يستوِل من الأرض إلا على مَوَاتٍ، ولم يحكمْ إلا أحياءً ضِعَافَ الهِمَّةِ هم في الحقيقة - لاختلال الهيئة الاجتماعية - في حَيِّزِ الأموات».

وتجد مصر بداية الطريق للإنقاذ على يد حاكمٍ اختاره الشعب بنفسه، لأول مرة، في ظل الحكم العثماني، وهو محمد عليٍ مؤسس الدولة المصرية العصرية.

ففي خلال سنواتٍ قليلة جدًّا، نجح محمد علي فيما عجزت عنه الدولة العثمانية، على مدى قرون، إذ أنشأ الإدارة المنظمة، وضبط الري، وأقام القناطر والسدود على النيل، وفتح المدارس، وأرسل بعثات الدارسين إلى أوروبا، وحقق طموحه العريض بإنشاء الجيش والأسطول المصريين الكبيرين.

t.me/qurssan

وبذلك كله، وغيره، فتح الباب لسلسلة من التغييرات السياسية، والحضارية، شملت المشرق العربي كله، وبفضل الأمن الذي استتب، وبفضل الطب الحديث، تضاعَف سكان مصر تقريبًا خلال فترة حكم محمد علي التي امتدت ٤٠ سنة، رغم كل الحروب التي خاضها.

وكان لهذه التغيرات الحاسمة أثرها في تفكيك المنظومة الثقافية للمجتمع القديم، وفي قيام منظومة ثقافية جديدة، على الرغم من إرادة محمد علي وخلفائه من أسرته الذين أرادوا، مع الإصلاحات، أن يحكموا مصر على طريقة طُغَاةِ الأستانة.

ولقد كان الرافد الغربي من أهم المؤثرات في التغيير الثقافي، ولكن هذا الرافد لم يَسْقُطْ في أرض جرداء. ومما له دلالته الكبيرة أن الرجل الذي لعب أهم دور في تجديد الثقافة في مصر، كان هو نفسه خارجًا من إطار المؤسسة الأزهرية العريقة، وأنه التقى بالحضارة الغربية حين سافر إلى فرنسا باعتباره مرشدًا دينيًّا للطلبة الذين بعثهم محمد علي إلى فرنسا، ومعنى ذلك أن هاجس الحفاظ على الذاتية الثقافية وعدم الذوبان في الغرب كان يشغل بال ذلك المؤسس الكبير للدولة المصرية.

ومعناه الأهم، أن تلك الثقافة حين عُرضت على المصريين لأول مرة، لم تُعرض لهم عن طريق النقل الأعمى، وإنما من منظور نفسٍ قادرة على التحليل والفرز واستيعاب الجديد في إطار الثقافة الراسخة، وذلك بالبحث عن أوجُه التَّماثُل في التراث مع العناصر الإيجابية من تلك الحضارة الحديثة، وفي بعض الأحيان بالتفسير الجديد للتراث الذي سيجد أقصى مداه فيما بعد عند رائد أزهري آخر وإمام من أئمة الفكر المصري الحديث هو الشيخ محمد عبده. وكان منطلق كل منهما

 t.me/qurssan

أن القيم الخالدة للإسلام تستوعب كل تطور لمصلحة الإنسان متى فهمنا الدين الحنيف على وجهه الصحيح[1].

(٥)

إذن، فقد كانت الشروط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ملائمة أكثر في مصر عن غيرها من البلدان العربية والإسلامية كي تشهد بزوغ نهضة حديثة، فقد قامت الدولة الوطنية المستقلة فيها قبل أن تقوم في أي بلد عربي آخر، وذلك من خلال عدة محاولات بلغت غايتها في القرن التاسع عشر، حين نجح محمد علي في بناء الدولة المصرية الحديثة، بكامل مؤسساتها الإدارية، والتعليمية، والثقافية.

ومهما كانت دوافع محمد علي التي جعلته يُقدم على ما أقدم عليه من إصلاحات في مصر، ثم في الشام عندما مَدَّ حكمه إليه، فلا ريب أن تلك الإصلاحات قد خلقت واقعًا اجتماعيًّا ثقافيًّا جديدًا، كان له الدور البارز في خلق الظروف الموضوعية الملائمة للتجديد الفكري.

ويأتي إدخال التعليم الحديث في مقدمة تلك الظروف الموضوعية التي هيَّأت سبيل التجديد الفكري، وإذا كان بناء الجيش الحديث يمثل محور حركة الإصلاح الذي قام به محمد علي، فإن ذلك تطلَّب تنظيم الإدارة والاقتصاد، مما تطلَّب وجود خبرات وكفاءات لا يستطيع أن يوفرها التعليم التقليدي.

---

(١) راجع: بهاء طاهر: «أبناء رفاعة ـ الثقافة والحرية»، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٦.

t.me/qurssan

وهكذا نشأ التعليم الحديث في مصر، أولًا، ثم في بلاد الشام والعراق. ولما كان محمد علي حريصًا على توفير الكوادر اللازمة للإدارة والإنتاج، ولدور السلطة الجديد في مجال الخدمات، وأن تكون تلك الكوادر من أبناء البلاد، فقد ارتبط التوسع في التعليم بحاجات الحكومة إلى الأفراد للخدمة في مصالحها.

كما تمَّ إيفاد البعثات إلى أوروبا (وخاصة فرنسا) لدراسة العلوم الحديثة: الطب والهندسة والإدارة والقانون، وحَذَت الدولة العثمانية في هذا الجانب من الإصلاحات التي شهدها النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حذو محمد علي في تنظيم المدارس الحديثة، وإيفاد البعثات إلى أوروبا.

ولكن أكبر إنجاز تحقق في عهد محمد علي، فيما يتصل بالعلم والثقافة، كان حركة الترجمة الكبيرة لكتب في مختلف فروع المعرفة إلى اللغة العربية، ويقدَّر عدد الكتب المترجمة التي تمَّ طبعُها في المطبعة الأميرية ببولاق بنحوِ ٢٥٠٠ كتاب.

(٦)

وكان لهذه الحركة أهميتها في إطلالة العالم الإسلامي على علوم الغرب وثقافته، فقد أُعيدت ترجمة ما نُقل إلى العربية من أمهات الكتب إلى اللغتين الفارسية والتركية. ولا ريب أن تلك الترجمات فتحت الباب على مصراعيه أمام من أخرجتهم المدارس الحديثة، وغيرهم من القراء؛ للوقوف على الثقافة الغربية. وإذا كان إيقاع الترجمة في النصف الثاني

من القرن التاسع عشر قد أبطأ، فإن الكثير من أمهات الكتب في الفكر الاجتماعي والسياسي تمت ترجمتها، ونُشر بعضها منجَّمًا على صفحات الجرائد، فأفاد منه قطاع عريض من القراء.

وكانت الصحافة، التي بدأت في القرن التاسع عشر وكثُر عددها في النصف الثاني منه، عاملًا مهمًا لنقل الأفكار الوافدة من الغرب، وتفتيح الأذهان على أشياء جديدة لم تكن مألوفة من قبل كالدستور، وحقوق المواطن تجاه الحكومة، والأوضاع الاجتماعية وغيرها من القضايا التي خلقت أرضيةً خصبة لتجديد الفكر، ونافذة أطل منها جيل جديد من الكتاب تأثَّر بالثقافة الغربية بدرجة أو بأخرى، أو استفزته الثقافة الغربية فراح يكيل النقد لها، ويطرح في المقابل أفكارًا (إصلاحية) مستمدة من التراث الثقافي التقليدي.

فإذا أضفنا إلى ذلك كله نشاط الإرساليات التبشيرية في الشام ومصر، وما أقامته من مدارس تقدِّم ثقافة أوطانها، وتركِّز على تعليم اللغات الأجنبية، مع اهتمام خاص ببعث الأدب العربي القديم في الشام وحدها، إذا أضفنا هذا الدور الذي لعبته مدارس الإرساليات التبشيرية نجد مناخًا عامًّا في الحياة الثقافية العربية في ذلك القرن هيَّأ الفرصة لوفود الثقافة الغربية وفكرها إلى الوطن العربي، بما كانت تمثله من تحدٍّ للثقافة الإسلامية التقليدية، وجاءت الاستجابة له في صورة أطروحات التجديد الفكري التي يعرضها هذا الكتاب.

والعصر عندئذٍ مشحون بروح التحدي، فهو عصر التوسع الأوروبي فيما وراء البحار، بعدما حققت الرأسمالية درجة عالية من النمو بعد الثورة الصناعية، وأصبحت الحاجة ماسَّة للسيطرة على مصادر المواد

الخام، وتأمين الأسواق لتصريف الإنتاج، وفتح مجالات جديدة لاستثمار فائض رؤوس الأموال.

ولعب الفكر دورًا مهمًّا في تهيئة الأرض لحركة التوسع الاستعماري؛ ابتداءً من الفكر العنصري الذي لا يرى الحضارة إلا في الغرب، ويرى في التوسع الاستعماري «رسالة» على الغرب القيام بها لنشر الحضارة بين الشعوب «المتبربرة». وفُسِّرَت نظريةُ التطور عند داروين لتبرير الهيمنة الغربية على العالم.

فلا غرابة ـ إذا ـ أن يهتم المثقفون العرب بهذا الفكر الوافد؛ ليتبيَّنوا موضع الإفادة منه، ومكمن الخطر فيه الذي يجب تجنبه، فهو ـ عندهم ـ هَمٌّ متصل بواقع بلادهم ومستقبلها، وخاصة أن بلادهم وقعت في شراك السيطرة الأجنبية بمختلف صورها، فالاهتمام بالفكر الوافد يختلف باختلاف رؤية صاحب هذا الاهتمام له، وسواء كان مبعثه تجنب ذلك الفكر، أو تبني بعضه، أو البحث عن صيغة فكرية جديدة تجمع بين الموروث والمكتسب، فإن التعرف على تلك الأفكار يصبح ضروريًّا.

وهكذا جاء طرح الفكر الوافد محفِّزًا على انبعاث أفكار التجديد الفكري التي عرفها الوطن العربي في القرن التاسع عشر، الذي يروق لبعض الباحثين أن يصفه بعصر «النهضة»، وهو ما سنتتبع سيرته وتفاصيله في الصفحات التالية.

(٧)

نجحت تجربة محمد علي، بأكثر مما نجح غيره في القرن الثامن عشر،

 t.me/qurssan

في تحديث إدارة الدولة المصرية، وتجديد مؤسسات المجتمع، وفي حَل المعضلة التي كان لا بُدَّ أن تلازم حركة التحديث.

هذه المعضلة تتمثل في أن الذي يريد إصلاح إدارة الدولة، لا بُدَّ أن يصلحها بواسطة أداة لديه، وأدوات الحاكم هي أجهزة الدولة؛ إذ تكون المعضلة أن من يريد تحديث أجهزة الدولة وجيشها لا بُدَّ أن يفعل ذلك بواسطة الأجهزة الموجودة التي يريد إصلاحها؛ أي أن من يريد «التجديد» لا بُدَّ أن يجريه بواسطة «القديم»، أي يكون مطلوبًا من الإدارة القديمة أن تنفِّذ ما من شأنه أن ينفيها!!

وإذا كان النشاط الفكري والثقافي الذي صاحب مشروع محمد علي قد بدأ بالجيش، وبتطويره تطويرًا عسكريًّا حديثًا، فإن هذا الأمر استلزَمَ - فيما استلزم - وجوهَ تحديث أخرى، كانت واجبة لمن صَحَّ عزمه وجدَّ في تحقيق هدفه، فكان لا بُدَّ من تشكيل جديد للجندية يتفق مع أدوات القتال الحديثة، وأساليب تنويعها وتوزيعها، ولا بُدَّ من فنون إدارة جديدة تناسب هذا الشكل، وأساليب تدريب غير مسبوقة، ولا بُدَّ من نفقات، والنفقات تستلزم إيرادات، وهذه تحتاج إلى زيادة الإنتاج بمشروعات جديدة في الزراعة والحرف والصناعات وغيرها، كما أن الجيش يحتاج إلى أدوات قتال جديدة كالمدفع والذخيرة والبنادق وغيرها، وملابس للجند وما شابه، وإن كمال إعداد القوة العسكرية يحتاج إلى ألَّا يكون البلد معتمدًا في سلاحه على الخارج، وإلا استبدَّت الدولة المصدِّرة له بالسلاح وامتلكت إرادته القتالية والسياسية، فلا بُدَّ لأي مشروع من هذا النوع أن يفكر في سيطرته على مصادر التسليح ما أمكنه ذلك.

لذلك كانت العملية عملية تحديث شامل يكون الجيش هو قاطرتها التي

نشدّها في حركتها. ونحن أيضًا نعرف أن الجيش يتكون من بشر، وللبشر عقول يتحركون بها، وهي تحتاج إلى تكوينات ثقافية وتشكيلات فكرية.

صحيح أن محمد علي ذاته لم يكن داعية فكرٍ ولا صاحب إنتاج ثقافي، إنما كان رجل دولة من أعلى طراز في عهده، ورجل الدولة دائمًا يبدأ بالواقع الذي يديره، وحتى إن أراد تغييره فهو يبدأ به، ويتعامل معه بقدر ما يتمكن من تحقيق أهدافه العملية بواسطته، ويغيِّر فيه ويعدِّل بقدر ما تسمح إمكانات الممارسة المستجيبة لحركة الواقع، وفكر رجل الدولة لا يعبَّر عنه بالكتابة، ولا بالخطابة في الأساس، وهو فكر لا نستقيه فقط من أقواله ونصوص عباراته؛ لأنه لا يعمل بالدعوة بقدر ما يعمل بتقرير وجوه واقع جديد، ومن ثَمَّ فنحن نستخلص فكره من أفعاله ومن طرائقه في رد الفعل، ومن قراراته وما ينشئه من مؤسسات وتشكيلات، ونحن مثلًا لا نعرف وطنيتا من دعاويه، ولكن من أنه ينشئ جيشًا قويًّا، وسياساته نعرفها من توجهاته العسكرية والعملية.. وهكذا[1].

(٨)

كانت معجزة محمد علي الخاصة في قدرته على صياغة مستقبل أمة، ونقلها نقلة جذرية في كل مجال، ورغم انهيار مشروع الحلم الإمبراطوري لمحمد علي باتفاق لندن ١٨٤٠ إبقاءً على «رجل أوروبا المريض» في غرفة الإنعاش حتى يتمَّ الاتفاق على قواعد توزيع التركة، فلم ينكمش مشروع

(١) راجع: طارق البشري: «محمد علي ونظام حكمه»، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٨.

النهضة؛ بل تمدد وتنامى. وإذا كان للتحديث أثره في البنية الأساسية للمجتمع المصري، على النحو الذي بيَّناه في الفصل السابق، فإن آثاره العتيدة برزت في حقل الثقافة والفكر، حيث تركت بصماتٍ واضحة على الحياة الثقافية والفكرية، ما زالت بعض آثارها باقية حتى اليوم.

فعندما بدأ محمد علي يضع دعائم جديدة لنهضةٍ اقتصادية وعسكرية، وتنظيم إداري جديد، كان في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى الكوادر الفنية والإدارية التي تستطيع إدارة دفّة الزراعة والصناعة، وما ارتبط بهما من مشروعات، وكذلك الجيش الحديث، ولم يكن أمامه مفرٌّ من الاستعانة بالأجانب، وخاصة الفرنسيين.

غير أنه أدرك أن استمرار الاعتماد على الأجانب وحدهم يُعرِّض تجربتَه للخطر، وإرادتَه السياسة للضغوط، لذلك عمل على تربية كوادر مصرية تحلّ - تدريجيًا - محل الأجانب، وكان السبيل لهذا تزويد فريق مختار من أبناء البلاد بالثقافة اللازمة؛ لإعدادهم لتولي المهام المرتقبة، وقدَّر محمد علي أنه من العبث الاعتماد على الأزهر في إعداد الأطباء والمهندسين والضباط، كما أنه وجد من الصعب أن يحوِّل الأزهر عن نظامه التقليدي، كمركز للثقافة الإسلامية، التي كانت بدورها تعاني من الجمود والتخلف في ظل الحكم العثماني، ويطعِّمه بالنظم التعليمية الحديثة، دون أن يُثير حفيظة العلماء، مما يترتب عليه إثارة للشعور الديني عند سَواد الناس، فآثر أن يترك النظام التعليمي التقليدي (الكتاتيب، والأزهر) على حاله؛ ليجد فيه الناس التعليم الذي يشاءون، وأنشأ نظامًا تعليميًّا حديثًا مقتبَسًا من النظم الأوروبية، يقدِّم نوعًا من الثقافة يختلف تمامًا عن الثقافة التقليدية. وبذلك، أصبحت هناك ازدواجية في

t.me/qurssan

مصادر الثقافة، وتنافُر بين الثقافة التقليدية والثقافة الحديثة، انعكست آثارها على الحياة الثقافية والفكرية.

وقامت سياسة محمد علي في التعليم على انتزاع أبناء البلاد من الأوساط الإجتماعية التي نشأوا فيها، واحتجازهم في المدارس، وإخضاعهم لنظام عسكري صارم، وتنشئتهم على نحوٍ يغرس فيهم رُوح التعالي على مواطنيهم، بل غيَّر «الباشا» بعض أسماء التلاميذ إلى أسماء تركية، وأوقع العقوبات على الطلاب والمدرسين الذين ينادون الطلاب بأسمائهم القديمة، فهم يُعَدُّون لتدعيم «الحكام»، وليس من مصلحة النظام أن يظل هؤلاء على ارتباط بالجذور الاجتماعية التي أنبتتْهم.

ورغم حرص محمد علي في بعثاته التي أوفدها إلى أوروبا (وخاصة فرنسا) على ألَّا يحتكَّ الطلاب بتلك المجتمعات الغربية، وأن يعودوا بحصيلة علمية تؤهلهم لخدمة الدولة، فإن تلك البعثات هيَّأت الفرصة للتعرف على ثقافة أوروبا عصر التنوير، وأقامت الجسور بين مصر (بل الشرق العربي) والثقافة الأوروبية، وانعكس ذلك كله في كتابات الرواد من أمثال رفاعة الطهطاوي وتلاميذه، وفي الكتب التي تُرجمت وأُلفت في الطب والهندسة والفلك والرياضيات والتاريخ والجغرافيا والعلوم العسكرية، فبدأت اللغة العربية تتصل بعلوم كانت ـ منذ أجيال ـ قد تقطعت بينها وبين العربية أسباب الصلات.

(٩)

في ذلك الوقت، وحتى قبل صعود محمد علي إلى سدَّة الحكم،

اتصل المثقفون المصريون كالجبرتي، والشيخ الخشّاب، والشيخ حسن العطار، بالعلماء الفرنسيين الذين صحبوا بونابرت خلال حملته على مصر. ورحل العطار إلى سوريا، وتركيا، وألبانيا، ورحل الطهطاوي إلى باريس، ورحل الشيخ عياد الطنطاوي إلى روسيا، ورحل سواهم إلى ألمانيا، وايطاليا، والسويد.

ونستطيع القول باطمئنان إن هذه الأسماء هي التي شكّلت نواة الفكر التحديثي في مصر التنوير والنهضة؛ لكن من بين هذه الأسماء يتمتع الشيخ حسن العطار بمكانةٍ خاصة تستدعي أن نَسْتَجْلِيَ موقعه ودوره وتأثيره في حركة التنوير والنهضة المصرية البازغة آنذاك.

t.me/qurssan

محمد علي باشا الكبير

t.me/qurssan

t.me/qurssan

٨

الشيخ حسن العطار..
بُزوغ التحديث!

«الشيخ الأزهري المتحرر، البعيد عن الجمود والتحجر، عاصر المماليك والفرنسيين ومحمد علي، ومارس التدريس في الأزهر لعلوم اللغة والمنطق والفقه، وكانت حلقته تغصّ بالطلاب والمريدين الذين كانوا يتركون حلقات غيره في الأزهر، ويتكاثرون على حلقته...»

(حسن العطار، لـ محمد عبد الغني حسن، نوابغ الفكر العربي، دار المعارف)

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١)

وُلد الشيخ العطار[1] سنة ١٧٦٦، ودرس في الجامع الأزهر، واتصل بالفرنسيين خلال الفترة التي قضوها في مصر، ورحل إلى تركيا، وتزوج امرأة من ضواحي إستامبول، ودرس الطب في أزمير، وزار الإسكندرونة عام ١٨٠٤، ورحل إلى دمشق سنة ١٨١٠ وإلى فلسطين بعدها، ثم عاد إلى مصر ليصبح شيخًا للأزهر، وكان من أنبه تلاميذه وأعظمهم خطرًا وتأثيرًا ونبوغًا رفاعة رافع الطهطاوي، الرائد الأول بلا منازع للفكر المصري والعربي الحديث، وكان الشيخ العطار هو الذي رشَّحه للسفر مع أول بعثة مصرية إلى فرنسا.

كان العطار شاعرًا وكاتبًا، ترك ديوانًا يشهد بشاعريته، كما ترك كتابًا في الإنشاء يضم ما كتبه من نماذج يستهدي بها الكُتَّاب في المخاطبات، والرسائل الإخوانية، والخطب، والإجازات العلمية، والكتابة الديوانية،

---

(١) راجع سيرة حسن العطار، وترجمات موجزة له في: ـ «قاموس الأدب العربي الحديث»، مادة «حسن العطار»، حررها حسين عبد العظيم، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥، ص٢٢٦.

ـ عبد الله عزباوي: «الفكر المصري في القرن الثامن عشر.. بين الجمود والتجديد»، سلسلة التاريخ الجانب الآخر (إعادة قراءة للتاريخ المصري)، دار الشروق، ٢٠٠٦

t.me/qurssan

وحتى الوثائق والصكوك! والعطار هو أول من حقق في العصر الحديث «ديوان ابن سهل الأندلسي»، ولو تصفحنا كتاب «الأغاني» للأصفهاني لوجدنا تعليقاتٍ منسوبة له عليه.

ولا شك في أن العطار تعلَّم الكثير من شيخه مرتضى الزبيدي الذي كان يدرِّس لطلابه في الأزهر كتاب «فقه اللغة» للثعالبي، و«مقامات الحريري»، ويشرحها، ويعلِّق عليها، وكان يقرأ معهم المعلقات مع شرح الزوزني عليها، فضلًا عن أنه كان شاعرًا أيضًا، ومن أعذب ما يقرأ الإنسان له مراثيه في زوجته، وهي عاطفة تدلُّ على مدى ما بلغه مثقفو ذلك العصر من رهافة وتحضُّر.

(٢)

اسمه بالكامل حسن محمد محمود؛ الملقب بالعطار بالقاهرة، كان والده عطارًا فكان الابن يساعده في حانوته، لكنه كان شغوفًا بالعلم، فكان يذهب خُفية إلى الأزهر لحضور الدروس، فلما رأى والده نبوغه وسرعة تفوقه أعانه على الدراسة، فجَدَّ في التحصيل والدراسة على أيدي نخبة من كبار العلماء، منهم الشيخان: محمد الأمير ومحمد الصبان، وغيرهما. أجازه أساتذته للتدريس والفتوى بعد زمن قصير؛ لما كان يتمتع به من حافظة قوية وبصر حاد يستطيع القراءة على ضوء القمر أو الشموع، كما كان كثيرَ الاستعارة للكتب والاستيعاب لها والتعليق عليها بهوامش بخط يده، مثل كتاب: «تقويم البلدان في الجغرافيا» لإسماعيل أبي الفداء، وكتاب «طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، وغيرهما.

وحينما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨، فرَّ حسن العطار إلى أسيوط، فعانى هناك الفقر والاضطراب، ومرض الطاعون الذي اجتاح مصر عام ١٨٠٠. وكتب رسالة إلى صديقه المؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتي وصف فيها الطاعون وأعراضه وآراءه في مقاومته، وهذه الرسالة تدلُّنا على أنه كانت له معرفة بالطب قبل اتصاله بعلماء الحملة الفرنسية الذين اتصل بهم بعد عودته إلى القاهرة. وكان يدرس لهم اللغة العربية، وقد أطلعوه على كتبهم وآرائهم وتجاربهم العلمية، ولا سيما كتب العلوم الرياضية والأدبية والآلات الفلكية والهندسية، على أن ذلك لم يشغلْه عن التدريس في الأزهر؛ إذ كان يقوم بتدريس شرح الأزهرية في علم النحو للشيخ خالد (الأزهري).

في عام ١٨٠٢ خرج العطار من مصر فارًّا إلى ألبانيا، ولعل اتصاله بعلماء الحملة، وتصريحه بأن مجيء الحملة الفرنسية يُعَدُّ مكسبًا علميًا وبركة؛ لأنها فتحت أعين العلماء على حقائق خفية، قد عرَّضه للاضطهاد بعد ذهاب الحملة الفرنسية عام ١٨٠١.

وفي عام ١٨١٠ انتقل من ألبانيا إلى الشام التي مكث بها خمس سنوات في التدريس وقراءة شرح الأزهرية. وفي عام ١٨١٥ عاد إلى مصر في ولاية محمد علي باشا الذي أجَلَّ الشيخ، وكان يستشيره ويُطلق يده في النهضة العلمية التي كان يحلم هو بها، ففتح الشيخ العطار الأبواب للعلوم الحديثة، وأشرف على إنشاء المدارس، كما عاد للتدريس في الأزهر، وكان من تلاميذه النجباء رفاعة الطهطاوي الذي آنس فيه الشيخ ذكاءً وانكبابًا على العلم فقرَّبَه إليه، وحفَّه برعايته وفتح له بيته وقلبه وأذنه، ولما كان العطار ميالًا بطبيعته إلى العلوم العصرية، فقد أودع هذا الميل في نفس تلميذه رفاعة الطهطاوي، مما أهَّله لأن يتمَّ اختياره

للبعثة العلمية في باريس، التي رشحه لها أستاذه العطار، وأوصاه بأن يسجِّلَ كل ما تقع عليه عيناه في فرنسا، وأن يستجلب معه كل ما تقع عليه يداه من ذخائر الكتب.

كما أن الشيخ العطار هو الذي شجَّع الطهطاوي على الترجمة وتأسيس مدرسة الألسن (كلية الألسن حاليًّا)؛ لأن العطار كان قد سافر كثيرًا إلى الخارج وأجادَ بعض اللغات الأجنبية، مثل: الألبانية، والتركية، والفرنسية.

كما زار كثيرًا من الأقطار العربية لإلقاء محاضرات في شتى العلوم والفنون التي أخذ من كل منها بحظ وافر؛ حيث إنه لم يَقْنَعْ بالعلوم الدينية؛ بل نَهَلَ كل العلوم العصرية الحديثة، مثل: الفلك والهندسة والطب والتشريح ورصد النجوم وعمل المَزَاوِل الليلية والنهارية والأسطرلابية، كما كان شاعرًا مُجيدًا وكاتبًا عميقًا، لهذا أسند إليه محمد علي تحرير أول صحيفة مصرية هي «الوقائع المصرية»، فأشرف عليها ورأس تحريرها، وكتب آراءه الداعية لإدخال العلوم الحديثة وتنقية التراث العربي.

ولما ذاع صيته اختِير شيخًا للأزهر عام ١٨٣٠، واستمر هكذا حتى وفاته عام ١٨٣٥، مخلِّفًا وراءه كثيرًا من المصنفات والحواشي والرسائل في شتى العلوم والفنون. ومن مصنفاته:

«حاشية العطار على التهذيب في علم المنطق»، و«شرح الكامل للمبرد» و«رسالة في علم الكلام»، و«رسالة في كيفية العمل بالأسطرلاب»، و«نبذة في علم الجراحة»، و«مقالات في الطب والجراحة»، وديوان شعر بعنوان: «ديوان العطار» يضم أشعاره التي تتميز بالسهولة والبساطة والبُعد عن التكلُّف الذي ساد عصره، مما يضعه في عداد أوائل المجددين في لغة الشعر العربي الحديث.

(٣)

وكما ذكرنا من قبل، كانت المؤسسات الجديدة المعبِّرة عن المشروع الإمبراطوري لمحمد علي هي «المطبعة»، و«الصحف»، وإنشاء جريدة «الوقائع المصرية»، والمدارس العسكرية التقنية؛ كالطب والتمريض والمهندسخانة.

وتمثلث الإيديولوجيا، أو الأساس الفكري التحديثي الذي ساند المشروع وسقط مع سقوطه، في إحياء «علم الكلام» ذي الصبغة العقلانية التقليدية المحافظة «الماتريدية» بصفة خاصة، ليحلَّ محلَّ علم «الحديث» (في صورته التقليدية الجامدة) في موقع الصدارة والفعالية؛ لأنه كان مطلوبًا من الأيديولوجيا الجديدة أن تؤدي وظيفة مزدوجة مركَّبة لا تقدر العلوم الموروثة في صورتها الجامدة على الوفاء بها، مهما كانت أدوات التفسير والتأويل عميقة وناجعة.

كان الدور المطلوب تبرير مشروع التحديث وتسويغه من منظور ديني عقلاني نسبيًّا ـ من جهة ـ، والتصدي ـ من جهة أخرى ـ لسحب البساط من تحت أقدام المشروع «الوهابي» في شبه الجزيرة العربية، والذي كان يمثِّل تهديدًا مباشرًا لمشروع محمد علي الإمبراطوري. وكان لكل مرحلة من المراحل المذكورة كذلك نسقٌ خاص من المؤسسات الثقافية. ولم يكن الطهطاوي إلا امتدادًا تركيبيًّا فذًّا من أستاذه الشيخ حسن العطار[1].

(١) لمن أراد مزيدًا من التفصيل عن سيرة الشيخ حسن العطار، مراجعة كتاب بيتر جران الشهير «الجذور الإسلامية للرأسمالية» الفصول من الرابع إلى العاشر، وكتاب محمد عبد الغني حسن «حسن العطار» سلسلة نوابغ الفكر العربي (الكتاب رقم ٤٠)، دار المعارف، ١٩٦٨، والفصل القيم الذي عقدته الأستاذة فريدة النقاش في كتابها المهم «أطلال الحداثة في مصر» الصادر عن دار الهلال قبل سنوات عدة.

t.me/qurssan

صورة متخيَّلة للشيخ حسن العطار

t.me/qurssan

٩

رفاعة الطهطاوي..
جالب النور والحضارة

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١)

«رفاعة يا طهطاوي .. يا جدنا العزيز

يا أول الخطاوي .. من القاهرة لباريز

اقرأ كانت بداية القرآن المجيد

واحنا رفعنا راية العلم والتوحيد

والعلم طبيب مداوي» ...

بهذه الكلمات كان مدحت صالح يصدح بصوته الجميل الفتيّ في تتر المسلسل النادر «رفاعة الطهطاوي»، الذي كان يُعرض على شاشة التليفزيون المصري، قبل ما يزيد على خمسةٍ وثلاثين عامًا! كنت صغيرًا لم أكمل السابعة أو الثامنة، لكن الغريب أنني كنت مشدودًا للمسلسل، أتابع أحداثه بشغف، وربما أكاد أحفظ أحداثه عن ظهر قلب لدرجة أنني كنت أردد دون أن أعي بالضبط معنى «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»! طبعا لم أكن أعرف ما هو «الإبريز»، ولا ما هي «باريز»، ولا أي شيء!

t.me/qurssan

كبرت قليلًا وكبر معي شغفي بهذه الشخصية الفريدة؛ بصورتها التخيلية الشهيرة التي تجسد ملامح هذا الصعيدي النابه الطيب بعمته الملفوفة بدِقَّة وصبر، ولحيته الأزهرية الأنيقة، واتساع عينيه المدهش بكل ما فيهما من شغف وفضول ولهفة للمعرفة والتقدم والعلم والحضارة!

وانعقدت بيني وبين هذه الشخصية العظيمة أواصر محبة وصداقة وعشرة وملازَمة، بدأت منذ كنت في السابعة ولَمَّا تَنْتَهِ حتى الآن!

تجاوز اسم رفاعة الطهطاوي(١)، لديّ، الشعارات الرنانة والكلام الإنشائي المحفوظ عن كونه «أبو النهضة المصرية الحديثة»، و«رائد التنوير الحديث»، و«المعلم المصري الأول»، و«مؤسس مدرسة الألسن»، و«أبو الترجمة العربية الحديثة».. إلى آخر ما استحقَّه هذا الصعيدي العبقري بكَدِّهِ وتعبه واجتهاده، إنما في الأساس مثّل لي الاسم معانيَ وقيمًا مهمة، أظن أنني كوَّنتها واستوعبتها على مدار سنين طويلة، وأنا أقرأ عن الطهطاوي في وجوهه المتعددة، ثم أقرأ ما كتبه الطهطاوي من كتب ومؤلفات، وما تركه من ترجمات، وما ساهم فيه إشرافًا وتحريرًا على

(١) راجع الترجمات الموجزة التالية لرفاعة الطهطاوي؛ في:

- «قاموس الأدب العربي الحديث»، إشراف وتحرير حمدي السكوت، مادة «رفاعة الطهطاوي»، حررها أحمد درويش، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥، ص٢٨٧، ٢٨٨.

- «قاموس عاشق لمصر»، روبير سوليه، ترجمة عادل أسعد الميري، الكتاب ١٨٠٠، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١، الشخصية رقم ١٣٧ (رفاعة رافع الطهطاوي)، ص٤٦٣-٤٦٦.

- «المائة الأعظم في تاريخ الإسلام»، حسين أحمد أمين، طبعة دار الكرمة الأولى، القاهرة، ص٢٦٢، ٢٦٣.

مطبوعات، ثم أدرس بعناية الأثر الذي تركه الطهطاوي منذ ظهوره في النصف الأول من القرن التاسع عشر وحتى الآن.

مع كل مرحلة من عمري، كنت أدرك صعوبة الإمساك بضخامة الإنجاز والإنتاج وعمق القيمة وجوهرية الدور الذي لعبه الطهطاوي في مسيرة التحديث والتنوير والنهضة المصرية في القرنين الأخيرين.

(٢)

بدأت الرحلة مبكرًا مع الدراما قبل القراءة؛ فبعد مشاهدة المسلسل الدرامي الذي أشرت إليه ـ وهو بالمناسبة قدَّم لي معرفة ممتازة بحياة الطهطاوي ـ ثم البرنامج الإذاعي الخاص الذي قام ببطولته الفنان الكبير عبد الرحمن أبو زهرة، شُغفت بقراءة كل الكتب المبسطة الموجهة للناشئين والشباب عن سيرة الطهطاوي وحياته؛ الذي كنا نعرف عنه ونحن في التعليم الأساسي أنهم يطلقون عليه «أبو التنوير المصري الحديث»؛ لكن ماذا قدَّم وماذا فعل؟ وما الأفكار التي دعا إليها. وما الجهد الذي بذله كي ينال هذه الرتبة المتقدمة في تاريخ الثقافة المصرية والعربية؟

إن هذا كله مما يستدعي البحث والحفر والتنقيب؛ وهو ما بدأتُه مبكرًا جدًّا مع كتاب بهاء طاهر المعنون «أبناء رفاعة ـ الثورة والحرية».. أبدع ما في هذا الكتاب أنه قدَّم لي آنذاكَ خلاصةً مركَّزة ومقطَّرة ومكثفة لأهم الأفكار التي دعا إليها الطهطاوي، وبعض الجهود العظيمة التي بذلها لتحديث التعليم والثقافة والفكر في مصر النهضة؛ القرن التاسع عشر.
كان أول ما لفت نظري هو وعي الطهطاوي المبكر بقيمة الوطن،

ومعنى الوطنية، والدعوة إلى المواطنة! كانت الدعوة إلى تلك الأفكار في وقت باكر، وعلى يد من؟ مثقف أزهري مستنير تلقى كل أشكال العلوم الدينية التقليدية في الأزهر الشريف، ثم أتيح له السفر إلى فرنسا إمامًا لإحدى البعثات التعليمية التي كان يرسلها محمد علي إلى أوروبا، ويقضي هناك ما يقرب من ٦ سنوات كاملة؛ لكنها لم تكن كغيرها من سنوات عمره!

لقد تحوَّل الطهطاوي في هذه السنوات الست إلى حفنة مجرَّدة من الحواس المستقبلة الفاعلة المتأملة لكل ما يدور حوله من أحداث ووقائع؛ يسمع ويرى ويقرأ ويكتب ويسأل ويسجِّل ويدوِّن بدهشة عظيمة، حَدَتْ بالمرحوم صلاح عبد الصبور إلى أن يُطلق عليه لقب «المندهش الأعظم».

كان رفاعة عظيم الشغف وعظيم الفضول وواسع المعرفة للدرجة التي استطاع فيها أن يُلِمَّ بأفكار ومبادئ الثورة الفرنسية، وأن يُدرك ما تمخضت عنه من تكوين مؤسسي، وتغييرات واسعة وشاملة في الجهاز الإداري والفكر السياسي للدولة الفرنسية؛ لم يترك رفاعة شيئًا رآه أو سمع به أو سمع عنه إلا وسجَّله بين دفتي كتابه الأشهر في تاريخ الكتب النهضوية؛ أقصد كتابه المهم «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»[1] عن السنوات التي قضاها في فرنسا.

(١) صدر الكتاب في طبعات عدة، وبتحقيقات متعددة، وكتب له مقدمة أكثر من دارس ومتخصص ما بين مؤرخ وعالم اجتماع ولغوي وأديب وناقد.. إلخ، لكن من بين طبعات «تخليص الإبريز» المتعددة، أفضِّل الطبعة التي صدرت عن دار الكتب والوثائق القومية، وكتب لها المقدمة المؤرخ والأكاديمي الراحل الدكتور يونان لبيب رزق، وهناك النص الكامل طبعًا في طبعة (الأعمال الكاملة) التي حققها وقدم لها محمد عمارة وصدرت عن دار الشروق في ٥ مجلدات.

t.me/qurssan

وكان هذا الكتاب ضربة البداية أو الانطلاقة الكبرى في ظاهرة العناية بالترجمة من الثقافة الفرنسية إلى العربية التي شهدها القرن التاسع عشر، كما يقول المؤرخ والعالم الجليل الدكتور محمد صابر عرب، الذي قرَن هذه العناية بنشر رفاعة الطهطاوي لكتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، الذي صدر للمرة الأولى في عام ١٨٣٤.

يقول الدكتور صابر عرب عن الكتاب «ولا أعتقد أن كتابًا آخر في أدب الرحلات قد حظي بهذا القدر من الاهتمام، فلقد تلقَّفَه جمهور القراء بالبحث والدراسة، ولعل مصدر العناية به أنه قد نقل المجتمع الفرنسي إلى القارئ العربي؛ وخصوصًا في جوانبه الفكرية والاجتماعية، وكان بمثابة الدرس الأول الذي أتاح لقراء العربية أن يقفوا على سر تقدُّم الغرب وتخلف الشرق».

بالمناسبة، كان الدافع إلى تأليفه هذا الكتاب، هو نصيحة وطلب أستاذه وأبيه الروحي الشيخ حسن العطار، وكان هو أيضًا الذي أشار على محمد علي باشا بالموافقة على استقدام إمام أزهري «رفاعة» يلازم طلاب البعثة المتجهة إلى فرنسا ليؤمهم في الصلاة؛ وفي الوقت نفسه يكون طالبًا محتمَلًا حال ثبوت نبوغه وتفوقه! ولم يضِّيع الطهطاوي الفرصة، وأثبت أنه أهم وأنبغ طلاب هذه البعثة، بل قُدِّرَ له أن يكون هو بشير الاستنارة والتمدن والفكر الحديث في الثقافة المصرية والعربية.

وكان لزاما عليّ أن أقرأ المزيد عن حياة الطهطاوي وسيرته منذ ميلاده بالصعيده، وتلقيه العلم في الأزهر الشريف، وسفره إلى القاهرة، ثم إلى فرنسا، إلى بقية محطات حياته الحافلة بالأحداث والأعمال وعظائم الأمور والإنجازات إلى وفاته عام ١٨٧٣.

ودون الخوض في تفاصيل ربما تُغني عنها الإشارة دون الإفاضة، واللمحة دون الإسهاب، فقد كفتني ثلاثة كتب البحث عن مزيد بيان عن سيرة الطهطاوي، وحياته وأعماله ومؤلفاته.. إلخ؛ وهي التي أنصح بها هنا لمن أراد أن يقرأ تفصيلًا عن سيرة هذا الرائد العظيم.

الكتاب الأول، هو الذي كتبه المؤرخ الراحل جمال الدين الشيال، وصدر في سلسلة (نوابغ الفكر العربي) عن دار المعارف (الكتاب رقم ٢٤)؛ بعنوان «رفاعة رافع الطهطاوي»؛ والكتاب الثاني، صدر في سلسلة أعلام العرب بعنوان «رفاعة الطهطاوي - رائد فكر وإمام نهضة» للدكتور حسين فوزي النجار، وهو كتاب شامل حافل بالمعلومات والتوثيق والتأريخ الدقيق لحياة الرائد النهضوي الكبير.

أما الكتاب الثالث، «حلية الزمن بمناقب خادم الوطن.. سيرة رفاعة رافع الطهطاوي»، الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة (تراث النهضة)، من تأليف صالح مجدي بك، وتحقيق د. جمال الدين الشيال، ففيه ترجمة مفصَّلة دقيقة وافية لرفاعة الطهطاوي، ودراسة لحياته في مراحلها المختلفة من الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة، وتعليمه في طهطا، ثم الأزهر ثم باريس، والوظائف التي تولاها والمناصب التي تقلَّدها، والأعمال والجهود العلمية التي بذلها في التأليف والترجمة، والكتاب بمادته التي اشتمل عليها يمثِّل فعلًا مرجعًا وثيقًا لكلِّ مَنْ أراد التعرف على تفاصيل هذه الشخصية الرائدة.

ومع ذلك فلا بأس هنا من أن نستخلص من الكتب الثلاثة المشار إليها بيانًا تعريفيًّا موجزًا ومكثَّفًا لسيرة الطهطاوي، قبل عرض أفكاره وآثاره العلمية والثقافية، وبيان دوره التأسيسي في مسيرة وسيرة الضمير

المصري عبر العصور. وقد كان رفاعة الطهطاوي قَلْبَ الحركة الثقافية في مصر في ذلك الوقت، ومصدر الإشعاع الفكري فهو الذي أنشأ مدرسة الألسن، وتولَّى نِظَارَتَها والتدريس بها والإشراف عليها، وهو الذي أنشأ قلم الترجمة الملحَق بها، وهو الذي اختار أعضاءه من بين النابغين من تلاميذه خريجي الألسن، وهو الذي اختار لهم الكتب التي ترجموها وأشرف على تصحيح هذه الكتب وتحريرها ومراجعتها بعد ترجمتها.

(٣)

وُلِدَ رفاعة رافع الطهطاوي في مدينة طهطا بصعيد مصر لأسرة كانت تتقلب بين يُسْرِ الحال وضِيقِه. انتقل إلى القاهرة (١٨١٧) ليتلقى العلم في الأزهر، ولينتقل بين شيوخه قارئًا للمتون والشروح الأساسية، حتى التقى بالشيخ حسن العطار، فتأثر به كثيرًا، وظل الشيخ يرعى تلميذه، خلال دراسته بالأزهر وبعد فراغه منها، ويوجِّهه إلى قراءة العلوم العصرية إلى جانب علوم التراث.

وتألق رفاعة في عمله واعظًا بالجيش المصري (١٨٢٤)، وهو العمل الذي ساعده - كما يقول الرافعي، المؤرخ - على الانتقال من بيئة الأزهر إلى بيئة الجيش النظامي، مما أحدث تطورًا في حياته وذهنيته، وطريقة نظرته إلى الأمور التي أصبحت عملية ومرئية.

وظل يعمل في الجيش نحو عام، حتى قرر محمد علي باشا إيفادَ أربعين طالبًا في بعثة إلى فرنسا لدراسة الحقوق والسياسة، والطب، والجراحة، والتاريخ الطبيعي، والكيمياء، والفنون الحربية والبحرية

والزراعة والحيل (الميكانيكا)، واختيرَ رفاعة لمرافقتهم إمامًا يذكِّرهم بالدين، ويؤمهم في الصلاة، بناءً على ترشيحه من قِبَلِ الشيخ العطار. وسافر رفاعة مع أعضاء البعثة إلى فرنسا، وهو السفر الذي فتح صفحة جديدة في حياته، وفي حياة الثقافة المصرية والعربية معًا.

ومع أن المهمة الرسمية لرفاعة، كانت تقف عند حدود الإمامة الدينية لأفراد البعثة، ووعظهم والإشراف على سلوكهم، فإن توجيهات أستاذه الشيخ العطار وطموحات رفاعة الكامنة في أعماق نفسه، قد فتحت الآفاق أمام الشيخ الأزهري بلا حدود. وكان من أوائل نصائح الشيخ العطار لرفاعة أن يدوِّن كل ما يراه في رحلته، ليقدِّم للمكتبة العربية كتابًا يصف فيه هذا الإيوان النفيس.. مدينة باريس.

ولم يُضِعْ رفاعة وقتًا، فتناول قلمه منذ تحرك المركب الشراعي بالبعثة من القاهرة متجهًا إلى الإسكندرية، ليصف ويحلِّل ما يراه؛ عبر النيل، ثم عبر البحر المتوسط وجزائره المتناثرة، وصولًا إلى مارسيليا، ومنها عبر عربات الخيول إلى باريس. وفيها يبدأ البرنامج الدقيق للبعثة، تحت إشراف «مسيو جومار»، أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر، وأحد مؤلفي موسوعة «وصف مصر»، ومن كبار عاشقيها. والتحق رفاعة بالبرنامج اللغوي لتأهيل أعضاء البعثة اختيارًا، وأظهر تفوقًا ملحوظًا في امتحان نهاية العام، استحقَّ معه خطاب شكر من مشرف البعثة، مع هدية في شكل كتاب من سبعة مجلدات.

ولم يتوقف رفاعة عن التحصيل، مما لفت إليه نظر شيخ المستشرقين الأوروبيين آنذاك في القرن التاسع عشر، وهو «سلفستر دي ساسي»، الذي تخرَّجت على يديه جماعات من المستشرقين من علماء الحملة الفرنسية،

إضافة إلى رواد الاستشراق الألماني والنمساوي والهولندي والإسباني.

وتوثقت الصلة بين رفاعة ودي ساسي، الذي كان يُتابع عن كثب تدوين رفاعة لملاحظاته عن الحضارة الفرنسية، في كتابه الذي سماه فيما بعد «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»[1] ودوّن فيه رفاعة بعض ملاحظات دي ساسي التي أبداها له شفاهة أو كتابة، كما كان رفاعة موضع تقدير مشرف البعثة «مسيو جومار»، الذي كتب إلى محمد علي عن نبوغ ذلك الإمام الذي يتجه إلى التخصص في فن الترجمة، وأثنى على ترجمته لكتاب «مبادئ العلوم المعدنية»، وللتقويم الذي وضعه جومار لمصر وسوريا ١٨٢٨.

وظل اهتمام رفاعة بالترجمة مستمرًّا خلال مدة بعثته، فترجم اثني عشر عملًا متفاوتة الحجم، متنوعة الموضوعات، في أصول المعادن، وأخلاق الأمم، وأصول الحقوق الطبيعية، وتاريخ الإسكندر الأكبر، وعلم الهيئة والميثولوجيا، وعلم سياسة الصحة، والهندسة، كما ترجم في «تخليص الإبريز» مقطوعات من دستور فرنسا، ومقالًا عن التاريخ، وتقريرًا عن حرب الدولة العثمانية لروسيا. ونقل رفاعة انطباعاته عن نظام الصحافة والمسرح، ودور المرأة في الحياة العامة، وأهمية الالتزام بالقوانين في الحياة السياسية.

---

(١) راجع تعريفا موجزا ومكثفا بالكتاب ومحتواه وبنيته.. إلخ، في:
- «قاموس الأدب العربي الحديث»، إشراف وتحرير حمدي السكوت، الطبعة الثانية، مادة «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، حررها أحمد درويش، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥، ص ١٦٢، ١٦٣.

 t.me/qurssan

وعاد رفاعة من بعثته (١٨٣١)، فاستُقْبِلَ استقبالًا حسنًا من الأوساط العلمية، ومن الأوساط السياسية في بادئ الأمر، وتقلَّب في العمل بين مدرسة الطب، ومدرسة المدفعية، ومدرسة الألسن، التي كان قد أنشأها (١٨٣٥)، بعد موافقة محمد علي على اقتراحه بتأسيسها. وكان خريجوها من العناصر المهمة التي عملت على ازدهار حركة الترجمة في مصر في العصر الحديث.

ولكن حركة الترجمة توقفت في عصر عباس، ونُقل رفاعة إلى السودان لإنشاء مدرسة ابتدائية بها، وكان هذا إقصاءً لمفكر كبير، لم يسترِحْ عباس لآرائه في محاربة الاستبداد التي ظهرت، بشكل غير مباشر، من خلال ترجماته، ثم عاد رفاعة إلى مصر في عهد سعيد ليستأنف من جديد نشاطه في التعليم، والترجمة، وفتح الأبواب أمام تعليم البنات، وتطوير الصحافة من خلال إشرافه على «الوقائع المصرية»، وإعادة تنظيمها وتحويلها إلى جريدة أسبوعية، ثم من خلال رئاسته لمجلة «روضة المدارس» التي كانت بداية مهمة للصحافة الأدبية في مصر، وظل رفاعة يشرف على تحريرها حتى عام ١٨٧٣.

وتوفي رفاعة الطهطاوي في ٢٧ مايو ١٨٧٣ بعد خمسة وسبعين عامًا رَادَ فيها الحياة الفكرية والتعليمية في مصر والشرق العربي.

(٤)

لكن هذه الإضاءة التعريفية الموجزة لا تغني أبدًا عن الإلمام والإلماع إلى محطات أساسية في مسيرة الرائد النهضوي الكبير، ولا عن التوقف

ولو بإيجاز إلى أدواره التنويرية العظمى في الترجمة، والتأليف، ونشر العلوم والمعارف، وتربية التلاميذ، وإنشاء المجلات، وتصنيف الكتب التعليمية والتثقيفية بدأب وصبر وإخلاص منقطع النظير.

ومراجعة بسيطة لقائمة كتب ومؤلفات الطهطاوي[1] تؤكد تشعُّب وموسوعية مجالات وإسهامات الرجل الذي أسَّس أول مجلة ثقافية أدبية تعليمية موجَّهة للطلاب والناشئة في العصر الحديث، وأول من كتب تأليفًا معاصرًا في السيرة النبوية الشريفة «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز»، وهو كذلك صاحب الكتابين الكبيرين في التربية والتعليم؛ «المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين»، والآخر «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية»، كل ذلك فضلًا عن كتابه الأشهر «تخليص الإبريز».

---

(١) صدرت أعماله الكاملة في خمسة مجلدات جامعةٍ عن دار الشروق قبل سنوات عدة، بتحقيق وتقديم ودراسة الدكتور محمد عمارة.

 t.me/qurssan

رفاعة رافع الطهطاوي

t.me/qurssan

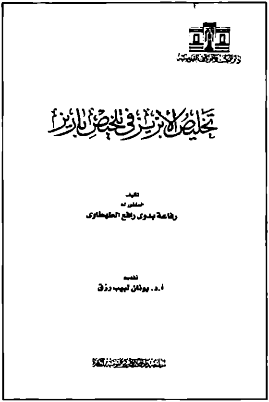

كتاب تخليص الإبريز في تلخيص باريز

t.me/qurssan

t.me/qurssan

١٠

الطهطاوي..
قراءة في مصادر الفكر والسيرة!

t.me/qurrssan

t.me/qurssan

(١)

الجد رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) هو أول السلالة المباركة في شجرة الفكر المصري الحديث؛ إنه الصعيدي الأزهري الذي كان العين الأولى التي أطلَّت على أوروبا ودُهِشَتْ معرفيًا من كل مظاهر التقدم والتمدن والعَصْرَنَةِ والحداثة والحضارة التي شاهدها وبُهِرَ بها طيلة ست سنوات قضاها في باريس.. فاترينة الدنيا و«أم الحضارة» في العصر الحديث!

ولا ينبغي أن نمرَّ مرور الكرام عند شخصية رفاعة، ولا ينبغي أن ننشغل فقط بالتعريف بسيرته ومحطات حياته الرئيسية، بل الأهم ـ من وجهة نظري ـ هو الوقوف عند المحطات الكبرى في فكر الطهطاوي، وكيفيات تشكُّله وتطوره وتأثيراته فيما تلا من أجيال، وموقعه من النهضة المصرية العظيمة التي شهدها القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين!

لكن قبل التعرُّض تفصيلًا لمسارات الفكر الطهطاوي وغرسه لبذور المعرفة والحداثة والتعليم وتحرير المرأة بالدعوة إلى تعليمها واستعادة حقوقها، فضلًا عن إسهاماته في إنشاء المؤسسات التعليمية، والمطبوعات

t.me/qurssan

الصحفية والتثقيفية، والترجمة طبعًا، أقول قبل التعرض لكل هذا، فإنني، وعلى عادتي، أستميح قارئي عذرًا بأن يأذن لي في إشراكه معي في بعض من الحديث الذاتي عن أسباب اتصالي ومعرفتي وشغفي برفاعة الطهطاوي العظيم.

ولماذا ظلت أعماله وكتبه وما كُتب عنه تصاحبني لأكثر من خمس وعشرين سنة وحتى الآن!

(٢)

تكاد تكون شخصية رفاعة الطهطاوي، تقريبًا، الشخصية النهضوية الوحيدة التي تعرفتُ عليها وقرأت عنها وبدأت رحلة اكتشاف سيرتها وأفكارها، قبل أن أتمَّ العاشرة من عمري!

لا أتصور الآن أنني قرأت هذا الكمّ الهائل من الكتب والدراسات والمؤلفات عنه وعن قيمته وأثره وعن عبقريته الطيبة الوادعة المتواضع، ولا أفهم لماذا لم أستثمرْ قَدْرًا بسيطًا من هذه القراءات الغزيرة في إنجاز أطروحة أكاديمية عنه، وما أكثر الذين أنجزوا رسائل ماجستير ودكتوراه طبعوا عليها اسمه، ولم يقرأوا أو يُتموا قراءة كتاب واحد له! عمومًا هذا الحديث ذو شجون وله مناسبة أخرى!

أما الآن فما يعنيني هو أنني بدأتُ ـ بعد إرجاء طويل جدًّا ـ الكتابة عن رفاعة الطهطاوي.. وما الذي يمكن أن يُكتب عنه الآن؟!

هل أعيد كتابة سيرته؟!

لا أظن أن هناك ضرورة مُلِحَّةً لإعادة كتابة سيرة معاصرة للطهطاوي، فهناك كتبٌ أكثر من رائعة توفَّرَتْ على تسجيل سيرة رفاعة الطهطاوي والتأريخ لحياته (أشرت إلى نماذج منها في الفصل السابق)، ومع ذلك ما أبعد هذه السير وهذه التفاصيل عن معارف وأذهان من يجب أن يتعرفوا عليها ويدرسوها بحقها! ولكي تتأكد بنفسك من هذا الزعم، فانزل إلى الشارع واستوقف رجلًا أو امرأة، شابًّا أو شابة، تلميذًا في نهاية المرحلة الإعدادية أو الثانوية، أو باحث دكتوراه في إحدى الجامعات المصرية، واسأل أيًّا منهم: ماذا تعرف عن رفاعة الطهطاوي؟ ومن يكون؟!.. فلننتظر الإجابة كيف تكون!

إذن، هل أحاول التركيز على بيان ما قدّمه من جهود وأعمال جعلته بحق أَبًا التنوير المصري الحديث أو رائد التنوير المصري والعربي الحديث وأبا التعليم المصري وأبا الترجمة إلى العربية في العصر الحديث.. إلخ، أو أي لقب آخر أُطلق عليه هو به جدير وحقيق؟!

للأمانة، وللتاريخ، فهناك الكثيرون ممن سبقوني إلى هذا، وهم كوكبة فذة وأسماء محترمة وجادة، توفَّرَتْ على دراسة الجوانب المختلفة والمتشعبة والمتداخلة في فكر الطهطاوي؛ وأجدني أستشعر ـ بصورة ما ـ أن هناك ضرورة لذكر نماذج من هذه الأعمال والإشارة إليها والتنويه بما قدَّمَتْهُ من إضاءة وكشف عن أفكار الطهطاوي، وعن أثره، وعن جوهرية الدور المعرفي والتنويري الذي أدّاه للفكر المصري الحديث وللثقافة العربية عمومًا.

t.me/qurssan

(٣)

باختصار، يمكن تصنيف وترتيب ما تمَّت كتابته عن الطهطاوي في المائتي سنة الأخيرة إلى ثلاث مجموعات:

الأولى: هي الكتب التعريفية العامة التي توفرت على كتابة سيرة تفصيلية، وترجمة ذاتية مفصلة، وتأريخ موثَّق لحياة الرجل (وقد أشرنا إلى الثلاثة الأهم منها في الفصل السابق). لكن يمكن أن نضيف ضمن هذه المجموعة من الكتابات التي أرَّخَتْ للطهطاوي الفصولَ والمواد التي ضمنت كتب معاجم الشخصيات وقواميس الأعلام، والفصول المفردة في الكتب التي تعالج الموضوع ذاته، وسأشير إلى نماذج مهمة منها أو ما أعتبرها الأهم ضمن ما قُدِّمَ عن الطهطاوي:

- الصفحات التي كتبها الفرنسي المتمصِّر روبير سوليه في كتابيه المتعين «قاموس عاشق لمصر»[1]، و«مصر ولع فرنسي»؛ إذ قدم سوليه، وهو الفرنسي ثقافة ولغة، والمصري النشأة والمولد، تلخيصًا وافيًا وممتعًا، ليس فقط لسيرة الطهطاوي ومحطاته الكبرى؛ بل أيضًا لطبيعة الدور المعرفي الذي لعبه كجسر انتقال ومَعْبَرٍ ثقافي بين الثقافتين الغربية والعربية، وركز سوليه على الأفكار التي حاول الطهطاوي أن يبذرَ بذرتها في تربة الثقافة العربية وآتت أُكُلَهَا بعد حين، بالإضافة إلى حديث عن رفاعة باعتباره الفرانكفوني الأول في الثقافة العربية والمصرية الحديثة.

- وهناك الصفحات التي خصصها الدكتور جابر عصفور في

(١) «قاموس عاشق لمصر»، ترجمة عادل أسعد الميري، الكتاب ١٨٠٠، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١، الشخصية رقم ١٣٧ (رفاعة رافع الطهطاوي)، ص ٤٦٣ - ٤٦٦.

t.me/qurssan

كتابه «من أعلام التنوير» (مكتبة الأسرة، ١٩٩٦)، بعنوان «ذكرى رفاعة الطهطاوي، ١٢٠ عامًا على الوفاة». ومثلها أيضًا الصفحات التي خصَّصها الدكتور شبل بدران للحديث عن أفكار الطهطاوي التربوية والتعليمية في كتابه «رواد التنوير الفكري»...

- ويمكن أيضًا أن نعدّ كذلك الصفحات التي كتبها عنه المرحومُ عبد العال الحمامصي (أحد كتّاب مجلة أكتوبر الراحلين) في كتابه السهل الممتع «أقلام في موكب التنوير»، فإنها تنتمي إلى هذه الدائرة من الكتب التعريفية، التي أتصور أنها تمثّل مدخلًا بسيطًا ومطلوبًا لمن يبغي التعرف للمرة الأولى على شخصية تُدعى «رفاعة الطهطاوي».

(٤)

المجموعة الثانية من الكتب أو الفصول والدراسات التي خصصها أصحابها للحديث عن الطهطاوي، تجاوزت فكرة التأريخ وكتابة السيرة إلى التحليل، وقراءة الكتب، واستخلاص الأفكار، أو تتبُّع نشأة وتطور فكرة بذاتها في أعمال الطهطاوي.

ربما أقصد بفصول ودراسات هذه المجموعة المقدمات القيِّمة والدراسات المهمة التي كتبتها حفنةٌ من كبار المتخصصين في الأدب، والاجتماع، والفلسفة، والتربية، والتاريخ، والأنثروبولوجيا، والحضارة؛ لتسليط الضوء بعناية على جوهر الفكر الطهطاوي وإسهاماته العميقة في كل المجالات المذكورة وغيرها.

 t.me/qurssan

وميزة هذه المقدمات والدراسات، في نظري، أنها تمثِّل مستوًى أعلى من المجموعة السابقة؛ إذ تركِّز على بُعْدٍ معين أو جانب بذاته من جوانب الفكر الطهطاوي؛ إنها دراسات مركَّزة يمكن أن نقول عنها إنها كاشفة عن مرايا الفكر والإبداع الطهطاوي؛ سنعرف منها تفاصيل وحيثيات إطلاق هذه الألقاب على الطهطاوي: مُعلمًا، مترجمًا، صحفيًّا، رئيس تحرير، تربويًّا، إداريًا، مؤرخًا، مؤلفًا، محرِّرًا للمرأة، ديمقراطيًّا اشتراكيا، أو في نظر البعض ليبراليًّا سياسيًّا واجتماعيًّا... إلخ.

سنجد، مثلًا، أن معظم الطبعات التي صدرت من كتب الطهطاوي (خارج دائرة الأعمال الكاملة التي اضطلع بتحقيقها ونشرها والتقديم لها محمد عمارة)، إن لم تكن كلها، قدّم لها بمقدمة طويلة أو دراسة متخصصة أحد الأساتذة الكبار في مجالهم؛ ولنأخذ كتابه الأشهر «تلخيص الإبريز في تلخيص باريز»، الذي صدرت منه خلال المائة عام الأخيرة طبعات عدة، وسأتوقف عند الطبعات التالية فقط لأهميتها من وجهة نظري، وأهمية المقدمات والدراسات الملحَقة بها:

ـ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب في تسعينيات القرن الماضي (١٩٩٣)، وقدَّم لها الأساتذة د. أنور لوقا غبريال، د. أحمد أحمد بدوي، وعبد الوهاب سلامة.

ـ طبعة دار الكتب والوثائق القومية، وقدَّم لها المؤرخ الراحل المرحوم يونان لبيب رزق، المؤرخ الراحل القدير.

ـ وهناك الطبعة التي صدرت عن مكتبة الإسكندرية، وأخرى عن دار الفكر العربي (وهي الأقدم) وقد قدَّم لها بدراسة طويلة الدكتور محمود فهمي حجازي، وسنتطرق إليها بعد قليل لصدورها منفصلة في كتاب بعد ذلك.

سنجد الأمر نفسه يتكرَّر مع كتابيه المرجعيَّيْن المهمين «المرشد الأمين في تربية البنات والبنين»، و«مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية». فالكتاب الأول صدر في أكثر من طبعة؛ وقدَّم له كل من: الدكتور عماد أبو غازي، وحلمي النمنم، والدكتورة منى أبو زيد، وكل مقدمة منها ركزت على بُعْدٍ تنويري بذاته، منها ما ركَّز على البعد التربوي الاجتماعي، ومنها ما ركز على بعد التنشئة الفكرية والسياسية، ومنها ما ركز على البعد التنويري التثقيفي. وأما الكتاب الثاني فقد قدَّم له كل من حلمي النمنم، وعبده إبراهيم علي، وبالطريقة ذاتها.

وسأختتم أمثلة دراسات هذه المجموعة بكتاب «مواقع الأفلاك في مغامرات تليماك» لفينلون، الذي ترجمه رفاعة الطهطاوي عن الفرنسية، وقد صدرت طبعة منه عن دار الكتب والوثائق القومية، قدّم له بمقدمة تحليلية كاشفة الناقد والأكاديمي صلاح فضل، محللًا الكتاب وبنيته وقيمته الفنية والتاريخية... إلخ.

(٥)

المجموعة الثالثة الأخيرة، وهي أعلى مستوى من الدراسات والكتب التي خُصِّصَتْ لاستجلاء ودراسة وتحليل فكر الطهطاوي، وإنجازه الكبير في تاريخ الثقافة العربية والفكر المصري الحديث، هي المجموعة التي نُطلق عليها «الدراسات الأكاديمية المتخصصة»، أو «الدراسات التحليلية الناقدة»؛ وهي بطبيعتها تستدعي قارئًا نوعيًّا؛ باحثًا، ذا طبيعة خاصة، يملك شغفًا معرفيًّا وهمًّا فكريًّا ومشروعًا ثقافيًّا، وبالتالي، فإنه

 t.me/qurssan

يمتلك الحد الأدنى من القدرة الذهنية والوعي المدرَّب على التعاطي مع هذه النوعية من الكتابات والمؤلفات.

لدينا أمثلة عديدة وكثيرة على هذه النوعية؛ سأكتفي منها بإشارات ولمحات لما أعدّه منها الأهم:

ـ لعل دراسة الدكتور محمود فهمي حجازي «أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي»[1] قدّمت نموذجًا علميًّا مبهرًا في استخلاصاته المقطرة لأفكار الطهطاوي السياسية والفكرية والتربوية والعلمية والتعليمية، وعرضه الناصع السلس لها، وفي ظني أنها قد فتحت الباب واسعًا لمن أراد التوسع في دراسة كل هذه الأفكار أو المجالات تفصيلًا من واقع الرجوع إلى كتابات الطهطاوي التأسيسية، وتحليل نصوصه ذاتها في كتبه المرجعية الكبرى.

ـ وهذا ما فعله بالضبط الخبير التربوي الكبير سعيد إسماعيل علي، في كتابه «الفكر التربوي العربي الحديث»، الصادر في سلسلة عالم المعرفة الكويتية، فقد قدَّم تحليلًا وافيًا لأفكار الطهطاوي في دوائر التربية والتعليم، والمرأة، وتثقيف النشء، من واقع نصوصه. وركَّز الأكاديمي والخبير التربوي على وضع هذه الأفكار في سياق الحركات والتيارات الفكرية البازغة آنذاك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى نهاية الربع الأول من القرن العشرين.

ـ أيضًا هذا ما قدمه الدكتور عزت قرني أستاذ الفلسفة الراحل في

(١) محمود فهمي حجازي: «أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي»، دار غريب، القاهرة، د.ت.

t.me/qurssan

كتابه «الحرية والعدالة في فجر النهضة العربية الحديثة»، إذ يدور ثلث كتابه تقريبًا، ومن واقع قراءة وتحليل كتب الطهطاوي الثلاثة المهمة «تلخيص الإبريز»، و«المرشد الأمين»، و«مناهج الألباب المصرية» حول أفكار الطهطاوي السياسية والفكرية؛ حول نظام الحكم والعلاقة بين الحاكم والمحكوم والموازنة بين هذه العلاقة كما رآها بعينه في فرنسا وما رزحت تحته الدول العربية والإسلامية عبر عصورها التاريخية المظلمة، وما يتصل منها بمفهومي الحرية والعدالة.. إلخ.

ـ وفي كتابه «العرب والتحدي»، الصادر في سلسلة عالم المعرفة الكويتية أيضًا، يلخِّص محمد عمارة[1] بعضًا من أفكار الطهطاوي فيما يخصُّ العلاقة بالغرب والأخذ بأسباب الحضارة والتقدم والاستنارة منهم، ويوضح أن الطهطاوي يدعو قومه إلى أن يبدأوا من حيث انتهى الغرب الأوروبي، كما بدأ هذا الغرب من حيث انتهى أسلافنا الذين أخذ عنهم علوم حضارتنا المزدهرة وفنونها، مع تحديد ميدان التأثر بعلوم الدنيا، دون علوم الدين وفلسفته. كما دعا كذلك إلى استلهام تراثنا الصالح للعطاء، بعد ملاءمته لظروف الزمان والمكان، ومنبهًا على أن التلمذة على الغرب في الحضارة لا يعني ولا يمكن أن يبرِّرَ التبعية له أو التفريط في أي جانب من جوانب الحرية والسيادة والاستقلال.. بل لقد رأيناه يؤكد أن الحرية الحقيقية للأمة لا يشهد بها تمتُّعها هي بالحرية، بل إن الشاهد الأصدق عليها هو احترام هذه الأمة لحريات غيرها من الأمة والشعوب «فمن محاسن حرية الأمة أنها تفرح أيضًا بحرية غيرها من الأمم، وتتأذى من استعباد أمم الممالك الذين لا حرية لهم».

(١) الذي اضطلع بتحقيق ودراسة الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي، ورواد النهضة والتنوير، قبل تحوُّله الفكري وانضوائه تحت راية التيار المحافظ المتشدد.

t.me/qurssan

ويوضح أيضًا أن الطهطاوي كان من المناوئين لـ «الرابطة العثمانية» التي اعتبرها واحدة من العلائق التي تشدُّ العرب إلى ظلام العصور الوسطى، وتَحُولُ بينهم وبين الانعتاق من إسار التخلف واللحاق بالعصر الحديث، ولذلك لم يكن غريبًا أن نلمح لدى الطهطاوي ـ رغم علاقته العضوية بجهاز الدولة الذي كان مرتبطًا، على نحو ما، بالسلطنة العثمانية ـ تزكيةً للعروبة، وثناءً كثيرًا على العرب، ونقدًا للرابطة العثمانية، وفرحًا بالضربات التي وجَّهَها محمد علي والجيش المصري للعثمانيين.

ـ وأخيرًا، هناك سلسلة المقالات التحليلية المطوَّلة التي كتبها الدكتور جابر عصفور، ونشرها منذ ما يزيد على عشرين سنة، عن رفاعة الطهطاوي واستكشافاته للحضارة الغربية ومكوناتها الحديثة، وركَّز فيها على نظرته للآخر، واستجابته لعلوم ومعارف هذا الآخر (الأجنبي/ الأوروبي/ الفرنسي)... وهي للأمانة، والحقيقة، من أعمق ما كُتِبَ عن هذا الرائد المدهش!

(٦)

ما الذي يمكن أن نُبرزه في إنجاز الطهطاوي في مسار حركة الفكر المصري الحديث والثقافة العربية الحديثة عمومًا؟

للأمانة والتاريخ، فإن الأدوار التي لعبها الرجل والإسهامات التي قدَّمها والإنجازات التي تركها أكثر من أن تُحصى على كل المستويات، وفي مجالات عدة ومختلفة ومتباينة؛ وإذا بحثت عن أوجُه الريادة في الترجمة والتعليم وإنشاء المؤسسات والمطابع ودور النشر والمجلات،

فستجد الطهطاوي هو البطل الأول بلا منازع.

وإذا فتشت عن البذور الأولى للصحافة والكتابة التاريخية والتربية وتيسير العلوم ووضع المناهج التعليمية، فستجد الطهطاوي علمًا مفردًا شامخا! وإذا قمتَ بالتنقيب عن جذور الأفكار السياسية الحديثة وفكرة الدولة ومدنيتها ومؤسساتها الحديثة والبحث في نظم الحكم ومحاولة التوفيق بين الأفكار المستوردة والأنظمة الحديثة وبين مبادئ الفكر الإسلامي، وما توصلت إليه اجتهادات الفقهاء عبر العصور، ستجد الطهطاوي وقد أدلى بدلوه في كل ذلك ويزيد.

لقد بذل رفاعة الطهطاوي جهدًا كبيرًا في الربط بين الثقافتين، وفي استخلاص ثقافة عربية جديدة تجمع بين إيجابيات الموروث وإيجابيات المكتسب، وتُلَبِّي حاجات المجتمع في مرحلة التحول إلى العصر الحديث.

مدنية الدولة الحديثة

بلُغَةِ السينما، وفي استعادةٍ لتقنية «الفلاش باك».. عندما ذهب الشيخ الشاب رفاعة الطهطاوي ليؤدي دورَه إمامًا للبعثة التي أرسلها محمد علي باشا، سرعان ما اتَّسَعَ بهذا الدور ليغدو طالبَ علم نادرَ المثال، يتفوَّق على أقرانه، ويُقبل في حماسة نادرة على أن يعرف أسرار هذه الدنيا المتقدمة التي ذهب إليها، ويتعرف فيها على كل شيء لم يعرفه، عملًا بالمبدأ القائل «الحكمة ضالة المؤمن»، و«اطلبوا العلم ولو في الصين».

ولم يترك عقل الإمام الشاب مظهرًا من مظاهر الدولة الحديثة أو وجهًا من أوجُه التقدم فيما رآه دولة مدنية إلا وتوقف عنده، مستخدمًا

 t.me/qurssan

ميراثه العقلاني، معتمدًا على مبدأ التقبيح والتحسين العقليين اللذين ورثهما عن المعتزلة، فأخذ ما قبله عقله المسلم المفتوح، ابتداءً من الدولة المدنية الحديثة التي تقوم على أسس جديدة، أدرك بؤس غيابها عن وطنه، خصوصًا حين رأى وفهم معنى أن تكون الأمة مصدر السلطات، والفصل بين السلطات الثلاث (التشريعية والقضائية والتنفيذية)، والتمييز الحاسم بين الديني والدنيوي، ليس إلغاءً للديني أو تقليلًا من شأنه، وإنما كان ذلك تأكيدًا للدنيوي الذي أصبح عقدًا اجتماعيًّا قائمًا على التراضي الذي يؤسِّس للدستور والقوانين التي تتجسد بها مبادئ الحرية والمساواة والعدالة، ومن ثَمَّ معاني المواطَنة الحديثة التي تحلُّ محل مفهوم الرعية، كما يحلُّ العقد الاجتماعي محل العقد الديني، ومن ثم رَدّ مصدر السلطات إلى المواطنين الأحرار المتساوين في الحقوق والواجبات بلا تمييز من دين أو جنس أو لون، وليس إلى الوصاية الإلهية التي تَفْرِضُ عليهم، كالقدر، ملوكًا وحكومات ثيوقراطية قائمة على التمييز واللامساواة.

وكانت المقارنة بين واقع التخلف الشرقي، مقابل إمكانات التقدم الغربي، دافعًا لأن يطرح رفاعة على نفسه - مثل غيره الذي لحقَ به من رواد النهضة العربية الحديثة - السؤالَ الحاسم عن فوائد الدولة المدنية الحديثة التي رأى معجزات تقدُّمها في أقطارها الأوروبية، علمًا صاعدًا، وإبداعًا راقيًا، وسلوكًا متحضرًا، وعمارة لا مثيل لها، وخلقًا فاضلًا لا عهد له به في سلوك الرجال والنساء، فحلم أن يصل مجتمعه (الذي رأى مدى تخلفه في مرآة الآخر) إلى مثل ما وصلت إليه فرنسا من تقدم، بدا صاعدًا واعدًا مغويًا في الوقت نفسه.

وكانت بداية الحكم ونهايته على ما رآه، ولفت انتباهه، عقل يقظ مستنير لشيخ أزهري شاب، ظل نبعًا لا ينضب من الأسئلة المؤرِّقة التي أنتجتْها إقامته للدراسة في باريس، التي أصدر عنها كتابه التأسيسي «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» بعد عودته إلى القاهرة.

وكانت إجاباته عن الأسئلة التي طرحها على نفسه مهتدية بالمبدأ العقلاني الإسلامي الذي أدَّى به إلى أخذ النافع لإنهاض وطنه وتجنُّب ما لم يَرَهُ نافعًا، فأقبلَ على كتاب «روح الشرائع» لمونتسكيو (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) الذي رأى فيه ما يشبه الميزان العقلي بين المذاهب الشرعية والسياسية. وكان قبوله هذا الميزان يعني تقبُّله مبدأ (الفصل بين السلطات) الذي أكده «مونتسكيو» في كتابه عام ١٧٣٤ قبل أن يصل رفاعة إلى باريس باثنين وتسعين عامًا، منطلِقًا فيه مما سبق أن أكده الفيلسوف الإنجليزي الشهير جون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) الذي دعا إلى الفصل بين القوى والحكومة المقيدة، حفاظًا على حرية الأفراد من ناحية، وتأكيدًا للنظام الذي يفرضه القانون من ناحية موازية. وكان تقبُّل رفاعة لأفكار مونتسكيو سبيله إلى الإيمان بحتمية الدولة المدنية لصنع مستقبل التقدم في وطنه الذي آلَمَهُ تخلُّفه الذي أصبح أكثر وعيًا به.

وهو الأمر الذي لم ينفصلْ عن صعود الإيمان الذاتي بأهمية الفصل بين السلطة الرُّوحِيَّة، والسلطة المدنية، ما ظل هذا الفصل مبقيًا على الدين، غير متناقض مع الشريعة الإسلامية، دافعًا إلى التقدم المقرون بالعدل.

وكانت النتيجة انفتاحَ عقل رفاعة على أفكار المجتمع المدني الذي هو مجتمع مؤسسات، يمكن أن يقوم على مبادئ داخل التقاليد العقلانية الإسلامية، ويظل غير مناقضٍ لها، خصوصًا في نفيه حكم الإكليروس

(رجال الدين). ولم ينفصلْ عن هذه النتيجة تقبُّلُ رفاعة لأهمية الدستور بوصفه تعاقدًا مدنيًّا، يحقِّق الاستقرارَ والنظام في كل أمة، خصوصًا من حيث هو الشريعة البشرية التي تنظِّم أمورَ الدولة المدنية، وتفصلُ بين سلطاتها، وتصونُ كلَّ أطرافها ومواطنيها، مقترنة بنظام نيابي حر، يكفل الضمانات لكل الأفراد، ولا معنى للدستور من غير وعوده.

أول دستور باللغة العربية

حقًّا «ما أسعد الأمة التي يحكمها العقل والعدل»، ذلك ما تعلَّمه رفاعة وذَكَرَه في «تخليص الإبريز»، تعلَّم معنى الدستور والقانون والفصل بين السلطات والتسامح وحق الاختلاف وحرية التعبير وضرورة مقاومة الظلم، وكانت البداية يوم أن جلس في غرفته المتواضعة، في مدينة باريس، بيده قلم، وفي صدره حماسة الخارجين من الثورة الفرنسية، وأمام عينيه وثائق يتعلَّم منها معنى العدل في سَوْسِ الأمم، هكذا، ترجم ما عرفه عن تدبير الدولة الفرنسية هديةً إلى شعبه العربي المسلم، ووصيةً إلى ولي النِّعَمِ محمد علي الذي أرسله ليتعلم من الفرنسيس أسباب تقدمهم.

ولم يكن من المصادفة ـ والأمر كذلك ـ أن يكون أول «دستور» باللغة العربية هو الدستور الذي ترجمه رفاعة الطهطاوي في أواخر الثلث الأول من القرن التاسع عشر، قبل عودته إلى مصر عام ١٨٣١، وهو الدستور الذي يؤكد أن ملك فرنسا ـ ومن ثَمَّ كل ملك ـ ليس مطلق التصرف، وأن لُوِيز الثامن عشر «بضم اللام وكسر الواو» الذي ألّف هذا الدستور القانون الذي أسماه «الشرطة» La Sharte يمكن أن يكون مثالًا يُحتذى، هذا الدستور وإن كان غالب ما فيه ليس في

t.me/qurssan

كتاب اللـه تعالى، يؤكد أن العقول البشرية يمكن أن تهتدي بذاتها إلى أن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد، فالعدل أساس العمران، ولا عمارة إلا بالعدل، وأبلغ الأشياء في تدبير المملكة تسديدها بالعدل، وأول مادة في هذا الدستور أن البشر متساوون أمام القانون، وأن من حق كل واحد منهم الوصول إلى أي منصب أو رتبة، ويعني ذلك أن الدعوى الشرعية تُقام على الملك وينفَّذ عليه الحُكْمُ كغيره، وأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوي في الأحكام والقوانين، بحيث لا يَجُورُ الحاكم على إنسان، وأن حرية كل إنسان مباحة، وحقه مكفول في أن يُظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله، مما لا يضرُّ غيره، فيعلم الإنسان سائرَ ما في نفس صاحبه خصوصًا الورقات اليومية المسماة بـ«الجورنالات» و«الكازيطات» «الأولى جمع «جرنال» (جريدة)، والثانية جمع «كازيطة» (مجلة)».

فإن الإنسان يعرف منها سائر الأخبار المتجددة سواء كانت داخلية أو خارجية، أي داخل المملكة وخارجها.

وإذا كانت الترجمة هي قناع الشيخ رفاعة الذي تخفَّى وراءه ونقل كل ما كان يريد توصيله إلى من يطالع ما كتب، تأكيدًا لحلمه الجميل في أن تنتقل أمته من مستوى الضرورة إلى مستوى الحرية، فإن الكتابة الذاتية كانت وسيلة موازية لهذا القناع، لقد بدأت رحلته التنويرية بالرحلة إلى فرنسا، وقبل الرحلة نبَّهه أستاذه الجليل الشيخ حسن العطار إلى ضرورة تدوين ما شاهده في كتاب، هكذا انبثقت فكرة «تخليص الإبريز في وصف باريز»، وذلك بالمعنى الذي جعل الكتاب استخلاصًا لأسباب تقدُّم الفرنسيين، ووصفًا للمظاهر الفعلية لهذا التقدم، وكما

كان السفر «مرآة الأعاجيب» - على نحو ما قال الشيخ حسن العطار في تقديمه كتابَ تلميذه بعد أن فرغ منه وعاد إلى مستقَرِّه - كان السفر تحوُّلًا للوعي، وتغيرًا في الفكر، وارتحالًا من منظور إلى منظور، وكانت الكتابة تسجيلًا لهذا التحول، خطوة، خطوة.

الوطن.. المواطنة

لعل أول خطوة في الانقلاب الفكري الكبير الذي أحدثه رفاعة الطهطاوي عقب عودته من فرنسا هي بعث مفهوم «الوطن»، في مقابل مفهوم «الأمة» الفضفاض، وكانت الدولة العثمانية تحكم باسم هذا المفهوم الأخير الذي يشمل الأمة الإسلامية كلها من الناحية النظرية، ولم يكن الحكم بهذا القناع الدينيّ يعني شيئًا أكثر من الوحدة في نطاق العبودية؛ لأن تلك الدولة كانت أبعد ما تكون عن روح الدين وعن حقيقته، بما سادها من الظلم والاستبداد والفتك المنظَّم برعاياها.

وكان محمد علي قد نجح في الاستقلال بمصر من الناحية الفعلية، بل حارب الدولة العثمانية الشائخة حتى أوشك أن يهزمها لولا أن أنجدتها إنجلترا مرة أخرى فتعاونتا معًا على إرغامه على التراجع، وعلى القضاء على أمله في قيام دولة قوية تضم الولايات العربية من الدولة المتهاوية، غير أنه استطاع على الأقل أن يحتفظ لمصر باستقلالها الذاتي.

ومع إنجازات محمد علي الكبيرة، انتبه الطهطاوي إلى أن هذا الوطن يستحق أكثر بكثير مما آل إليه تحت الحكم العثماني. وبدأ يرجع إلى التاريخ، ويحدِّث المصريين عمّا كانت عليه بلادهم في عصورها الزاهرة؛ يقول

t.me/qurssan

«فمما اختُصَّت به مصر من بين الممالك أن كل مملكة تستنير برهة ثم تطفئ وتُشْرقُ شمس بهجتها ثم تختفي.. فأما مصر فأغرب شيء بقاء شمس سعدها وارتقاء كوكب مجدها، إنها بقيت سبعين قرنًا حافظة لمرتبتها العليا»، وخلص من ذلك إلى نتيجة محددة هي أن «حب الأوطان فضيلة جليلة، لا سيما إذا كان الموطن منبت العز والسعادة والفخر كديار مصر، فهي أعز الأوطان لبنيها، وهي مستحقة برّها منهم بالسعي لبلوغ أمانيها وذلك من ناحيتين: أنها أمّ لساكنيها، وبر الوالدين واجب عقلًا وشرعًا على كل إنسان، والثانية أنها ودودة بارة بهم».

وهنا نجد عند الطهطاوي الارتكاز على التراث الديني لبعث مفهوم «الوطن» الذي غاب عن أذهان المصريين قرونًا طويلة، ومن هذا المنطلق الديني نفسه يوجِّه ضربة إلى واحد من المفاهيم المتخلفة في المنظومة العثمانية الباغية: «فَرِّقْ تَسُدْ». إذ إن وحدة الوطن تعني بالضرورة وحدة أبنائه والمساواة بينهم أيا كان الدين الذي يعتنقونه، فهو يرى أن حكمة الله قد اقتضت أن يكون أبناء الوطن متحدين في اللغة وفي العيش في مكان واحد، وهذا يعني أنه سبحانه وتعالى قد أعدَّهم للتعاون على إصلاح وطنهم، وعلى أن يكون بعضهم بالنسبة إلى بعض كأعضاء العائلة الواحدة.

ولكي يتحقق ذلك يجب أن تكون للمواطن حرية تامة في المجتمع، «فانقياده لأصول بلده يستلزم ـ ضمنًا ـ ضمان وطنه له التمتع بالحقوق المدنية والتميز بالمزايا البلدية،» ويخلص من ذلك إلى أن «جميع ما يجب على المؤمن لأخيه المؤمن يجب على أعضاء الوطن في حقوق بعضهم على بعض لما بينهم من أخوَّة الوطنية..».

إنها كلمات ومفاهيم جديدة تدخل في مجال الثقافة السياسية.. الوطن، والأخوة الوطنية، والحرية والمساواة، ولكنها تظل مجرد كلمات؛ إذ يحتاج الأمر إلى وقت حتى يتخرج في المدارس عدد كافٍ من المثقفين، وحتى تظهر الصحف الوطنية المتعددة، وحتى تصهر الأحداثُ الوعيَ الوطني وتوجِّهه.

ويمكن أن نقول إن الجهد الهائل الذي بذله الطهطاوي في المجالات الثقافية المتعددة ـ التعليم والصحافة والتأليف ـ كان يشبه اليقظة بعد السبات الطويل. وكان الأمر يحتاج إلى وقت لكي تفيق الأمة وتستوعب أقوال الطهطاوي والرعيل الأول من رواد النهضة. وحين ندرك أن هذا الوقت لم يتجاوز ربع القرن تقريبًا منذ وفاة محمد علي (أو بالأحرى منذ هزيمة ١٨٤٠) فنحن نستطيع أن نقدِّر الجهد الهائل الذي بذله هؤلاء الروّاد. فحين بدأ رفاعة يكتب أعماله في الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر، إنما كان يضع عينه على جمهور في المستقبل، أو ينتظر بالأحرى هذا الجمهور الذي كان يتعلم أيامها في المدارس الجديدة التي أنشأها في عهد الوالي الكبير.

(٧)

كانت هذه مجرد إطلالة سريعة على ما بذره الطهطاوي من أفكار حديثة في التربة المصرية، والعربية، حول الدولة المدنية الحديثة؛ وحول الوطن والمواطنة والحقوق والحريات. لقد كان الوعي الذي اكتسبه الطهطاوي في تلك الفترة وعيًا ناشئًا فتيًّا سابقًا عصرَه بسنوات طويلة،

t.me/qurssan

واستطاع في فترة وجيزة أن يستوعب كمًّا هائلًا من الأفكار الإنسانية والثقافية والسياسية والتطورات المجتمعية المذهلة التي رآها في فرنسا وتفاعل معها التفاعل الإيجابي الأمثل، وعمل على نقل هذه التجارب وخلاصة هذا التفاعل إلى أبناء أمته وشعبه. ولعل هذه الحمولة المعرفية والإنسانية التي ضمَّنها كتابه الأهم والأبرز «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» هي ما يحفظ للكتاب قيمته المتجددة دائمًا.

نعم كان رفاعة الطهطاوي رائد التجديد في الفكر المصري والعربي الحديث في القرن التاسع عشر، بما قدَّمه من أفكار جديدة التمس لها أصولًا في الثقافة الإسلامية، متخذًا لها من الفكر الغربي فروعًا وأغصانًا. وكان له بادرة القول بتطوير المجتمع العربي الإسلامي على أسس تحقِّق تقدُّمه على طريق الحضارة بأسلوب انتقائي يركِّز على الجوانب المادية، وما ارتبط بها من مجالات معرفية، ويتعامل بحذر مع النظريات والأفكار الوافدة؛ تاركًا للأجيال الجديدة مهمة التطوير واستكمال طريق التحديث والنهوض بحثًا عن وطن تتحقق فيه العدالة والمساواة والحرية.

t.me/qurssan

١١

الخديوي إسماعيل...

والتحديث الثاني في النهضة المصرية

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١)

كان المجتمع المصري، منتصف القرن التاسع عشر، يَمُوجُ بحركةٍ تحديثية واسعة على كل المستويات، استهلَّها محمد علي باشا الكبير الذي تولَّى حكم مصر خلال الفترة (١٨٠٥ ـ ١٨٤٠). صحيح أنها توقفت خلال حكم عباس الأول، وفَتُرَت خلال حكم سعيد، لكنها تواصلت وتوهجت، وعلى نطاق واسع، فترة حكم الخديوي إسماعيل، الذي يُطلق عليه المؤسس الثاني لنهضة مصر الحديثة.

كانت هذه فترة حاسمة من تاريخ مصر في العصر الحديث، إنها الفترة التي أراد الخديوي إسماعيل أن يجعل فيها مصر قطعة من أوروبا، فأنشأ القاهرة الخديوية أو القاهرة الإسماعيلية أو ما نعرفه الآن بـ«قاهرة وسط البلد» التي تمتد بطول الشريط الموازي لنهر النيل من جهة الغرب، بدءًا من القصر العيني جنوبًا وحتى ميدان رمسيس شمالًا، يحدها من جهة الشرق جبل المقطم وطريق صلاح سالم الشهير.

ستشهد هذه الفترة تأسيسَ أضخم بنية تحتية في مصر على كل المستويات؛ في تخطيط الشوارع والميادين والمنشآت والمؤسسات العامة والخاصة والإنارة والبدء في مد شبكات المياه النظيفة وإقامة المشروعات الضخمة،

t.me/qurssan

ستشهد مصر الحفلَ الأسطوري المبهر لافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩.

إنها قاهرة الخديوي إسماعيل التي كانت فيها القاهرة الحديثة تضارع عواصم أوروبا الكبرى (باريس ـ لندن - فيينا.. وغيرها) حداثةً وبهاءً وسطوعًا ومدنية. كانت كل الظروف تمهِّد وتساعد على اجتياز الخطوة الثانية من خطوات بناء مكانة مصر، وهو ما حدث بالنسبة لإسماعيل، الذي تفهَّم تمامًا أو أدرك ضرورة تفهُّم الظرف التاريخي المناسب للمضي قدمًا في إتمام عملية التحديث التي بدأها جده الكبير.

(٢)

سار الخديوي إسماعيل على خطى جده الباشا محمد علي في إقامة قاعدة اقتصادية حديثة لمصر وزيادة الإنتاج الزراعي، وخصوصًا القطن، ولكن من خلال الاستدانة باهظة التكاليف لإنشاء الجسور وحفر القنوات والمشروعات الزراعية. ولعبت مشروعات الري الكبرى؛ كترعة الإسماعيلية، وترعة الإبراهيمية، وشبكة الترع الأخرى، دورًا مهمًّا في إتاحة الري الدائم، وزيادة الإنتاج الزراعي، زيادة أفقية ورأسية، استفاد بها ملاك الأراضي الزراعية، فكان لذلك كله أثر ملموس على المجتمع الريفي خاصةً، وعلى التطور الاجتماعي في البلاد عامةً.

كما قام إسماعيل بتوسيع وتحديث نظام الإدارة الذي أقامه محمد علي باستحداث نظام الجمارك بإشراف الأوروبيين، وأصلح مصلحة البريد، وأحدث انقلابًا في التشريع، واجتهد في منع الرِّقِّ والسُّخْرَة، وبلغت ميزانية التعليم في عهد إسماعيل ٨٠ ألف جنيه، أُضيف إليها

، مل الأراضي التي اسْتُرِدَّتْ من شركة قناة السويس، ليصير التعليم مجانًا، وليحصل الطلاب على ما يحتاجونه.

وخلال سنوات حكم إسماعيل جرى ما أسماه المؤرخ الراحل يونان لبيب رزق «الاجتياح الأوروبي» لأرض الكنانة، حتى وصل عدد الأجانب المقيمين في مصر قرب نهاية عصره إلى ٦٨ ألفًا، وهو الاجتياح الذي فرضتْه وصنعتْه تطورات اقتصادية عديدة، منها:

بناءُ السكك الحديدية الذي بدأ منذ عصر عباس واستمرَّ في عهد خلَفَيْهِ، حتى إن طول خطوطها بلغ ١٣٠٠ كيلو متر عام ١٨٨٠، كما بلغ خطوط طول التلغراف ٥٢٠٠ كيلو متر، وزيادة مساحة الأراضي المزروعة بالمحاصيل النقدية نتيجة لمشاريع الري التي أمكن تنفيذها خلال تلك الفترة، حتى بلغ طول قنوات الري ٨٤٠٠ ميل، هذا فضلًا عن افتتاح قناة السويس للملاحة العالمية ١٨٦٩، وما ترتَّب على ذلك من تعاظُم المصالح التجارية والمالية لرجال الأعمال الأوروبيين في البلاد.

وكان إقدام إسماعيل على إلغاء الرق متغيرًا مهمًّا في بنية النخبة التركية الحاكمة، التي كانت تجدد دماءها حتى نهاية عهد سعيد وأوائل عهد إسماعيل باستيراد العناصر التركية والشركسية للخدمة في سلك ضباط الجيش ومراكز الإدارة، مما كان له أثرٌ كبير على تكوين النخبة الحاكمة، فتح الباب تدريجيًّا لاندماجها في أعيان الريف من المصريين، وإن كان إلغاء الرق لم يَقْضِ نهائيًّا على استخدام الرقيق الأسود في الخدمة المنزلية، فقد ظلَّت التجارة السرية في الرقيق الأسود قائمة رغم أنف القانون حتى التسعينيات من القرن التاسع عشر.

 t.me/qurssan

ويمكن القول إن عصر إسماعيل شهد «تنمية اقتصادية» حقَّقَتْ نجاحًا بارزًا في مجال الزراعة، وإخفاقًا كبيرًا في ميدان الصناعة، فالعصر -عندئذٍ- عصر التوسُّع الإمبريالي بعد نُضْجِ الرأسمالية الصناعية في أوروبا، والتنمية التي سعى إسماعيل إلى تحقيقها تمَّت في إطار الليبرالية الاقتصادية النسبية التي فُرِضَتْ على مصر عند نهاية حكم محمد علي، في ظل زحف رؤوس الأموال الأجنبية على مصر، الذي بدأ عهد سعيد، وبالتالي كان مجال النجاح في قطاع الزراعة مطلوبًا لخدمة المصالح الرأسمالية العالمية التي كانت في حاجة إلى المواد الأولية (وخاصة القطن المصري) بقَدْرِ حاجتها إلى فتح السوق المصرية أمام منتجاتها الصناعية، ومن ثَمَّ كان الفشلُ نصيبَ محاولاتِ إسماعيل لتحقيق التنمية في مجال الصناعة.

(٣)

أراد إسماعيل لمصر أن تكون «قطعة من أوروبا»، فانطلق لتحقيق حُلمه بحماسة البنَّائين العظام، مستلهِمًا تخطيطَ باريس الجديدة التي صاغها «هاوسمان». واستعان إسماعيل بوزير أشغاله «علي باشا مبارك» ومساعده «محمود باشا الفلكي» على تحقيق الحلم، ولم يطلبْ من وزيره تدميرَ بنية المدينة القديمة، بل البدء في وضع أساس المدينة الجديدة، من حيث تنتهي القاهرة القديمة، في الفضاء المفتوح نحو الغرب المكاني والحضاري.

توسَّعَت القاهرة وفق تخطيط عمراني «نموذجي» بمعايير العصر، وكذلك كان شأن الإسكندرية، وأُنْشِئَتْ مدينتا بورسعيد والإسماعيلية،

t.me/qurssan

ونوسَّع ثغر السويس، وساعد مد شبكة الخطوط الحديدية لتربط الصعيد بالدلتا، وأطراف الدلتا بالقاهرة والإسكندرية، على نمو بعض المدن الإقليمية مثل طنطا وكفر الزيات والمنصورة والمنيا وأسيوط وغيرها من مدن الأقاليم، بحسب المؤرخ الكبير رؤوف عباس.

لكن تظل دُرَّةُ العمران الحضري في عصر إسماعيل هي «القاهرة الحديثة»، أو «القاهرة الخديوية»، الباقية والشاهدة على أكبر منجَز عمراني حضاري تركه إسماعيل، فإلى جانب الأحياء القاهرية القديمة المعروفة، أنشأ أحياءً جديدة في «الظاهر والفجالة وشبرا والإسماعيلية حتى قصر الدوبارة»، كما توسَّعت المدينة ناحية الغرب، خاصة بعد مَدِّ الكباري والجسور، فكان الكوبري الذي ربط الروضة بالجزيرة، وآخر ربط الروضة بالقصر العيني، وثالث ربطها بمصر القديمة.

وفي نفس الوقت نشأت أحياء تركَّز فيها الأجانب، بدأت بالأزبكية، ثم انتقلت إلى جاردن سيتي، التي خُطِّطَتْ على النمط الإنجليزي (الشوارع الدائرية المتقاطعة)، والزمالك وهليوبوليس (مصر الجديدة) التي خُطِّطَتْ على النمط الفرنسي (الشوارع المتقاطعة والبيوت ذات البواكي).

أما حي الإسماعيلية (منطقة وسط البلد الآن) فكانت بداية المدينة الجديدة، أو «القاهرة الرُّومِيَّة» كما أسماها بعض المؤرخين، تلك القاهرة التي سرعان ما جذبت إليها مؤسسات الحكم وقصور الحكام والمراكز التجارية، والحدائق التي كانت نموذجًا موازيًا للحدائق الباريسية الشهيرة، مستهلَّةً زمنًا جديدًا من الحراك الجغرافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي.

على أن أهم إنجازات إسماعيل على الإطلاق هي تلك النهضة غير المسبوقة في العلوم والفنون والآداب، التي تزامنتْ، وكانت في الوقت نفسه نتيجة للحراك الاقتصادي والاجتماعي الحاصل في بر مصر، بعدما نشط إسماعيل في إنشاء المدارس بدرجاتها كافةً (التجهيزية والابتدائية والخصوصية) وأعاد ديوان المدارس، وعهد به إلى أبي التعليم في مصر علي باشا مبارك، الذي نظَّم المكاتب الأهلية ووضعها تحت إشراف الحكومة، فازداد إقبال الناس على الدفع بأبنائهم إلى المدارس، وأنشئت لأول مرة مدرسة لتعليم البنات (السيوفية)، ومدرسة دار العلوم لإعداد المعلمين المتخصصين، وعادت حركة البعثات العلمية لأوروبا إلى استئناف نشاطها من جديد بعد توقُّفِها.

أسس إسماعيل كذلك «الكتبخانة» أو دار الكتب المصرية، وهي الأولى من نوعها في العالم العربي، وقاعة للمحاضرات العامة، والجمعية الجغرافية الملكية، والمتحف المصري (الأنتكخانة)، وجمعية المعارف، وغيرها من المؤسسات المعنية بنشر المعارف والعلوم في رُبُوعِ المحروسة.

(٤)

رغم كل ما قام به إسماعيل من إصلاحات على طريق الديمقراطية والتحديث العصري، ورغم قيادته «نهضة حقيقية» في مصر، وإليه يرجع الفضل في الكثير من الإنجازات الحضارية التي شهدتها، فإنه لم يَنْجُ من فَخِّ الوقوع في دائرة المواجهات على جبهات عدة، فالحفاظ على ذلك الكيان الناهض فرض عليه «التزامات مالية» أفرغت الخزينة

، اضطرَّته للاقتراض، وبالتبعية اضطر إلى أن يخوض - سياسيًّا واقتصاديًّا - المعارك المستمرة ضد الباب العالي في الآستانة، والإنجليز، والدائنين الأوروبيين، وفشل إسماعيل في إبقاء الأزمات داخل دوائرها المحدودة، ووقع فريسة للتردد بين الإذعان للتدخل الأوروبي، أو الاعتماد على الدولة العثمانية، أو على الشعور الوطني المصري، الذي كانت له الغَلَبَة في خياره، فانتهى الأمر بعَزْلِهِ، وحل مجلس شورى النواب في العام ذاته (١٨٧٩)، وبعدها بثلاثة أعوام ستقع مصر فريسة للاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢.

انتهى سعي الخديوي لتحديث مصر من أجل أن تصبح «قطعة من أوروبا» إلى السقوط في براثن «استعمار أوروبا»، لكن لم ينقطع تجسد الحلم بعزل إسماعيل، أو موته منفيًّا وهو في الخامسة والستين من عمره، فلم يكن حلم «الباشا الحفيد» محصَّنًا بما يحقِّق لتجسده الاستقلال على أرض الواقع، أو الحضور الوطني الحر في التاريخ وبالتاريخ، بل كان الحلم يتضمن بذرة «التبعية» التي سرعان ما نمت، وتكاثرت نتائجها السلبية التي ظلت تهدِّد الاستقلال، وتؤكد الحضور الاستعماري الذي ازداد ضراوة، خصوصًا في اللحظات الحاسمة من صراعات الحلم ونقائضه، أو لحظات الهيمنة الأجنبية التي أحالت الحلم إلى كابوس متكرر، لا تنتهي كوارثه التي لا تزال تتبطَّن وعوده.

ومهما كانت سلبيات عصر إسماعيل، فإن إنجازاته الاقتصادية لعبت دورًا مهمًّا في التطور الاجتماعي الذي شهدته مصر حتى الربع الأول من القرن العشرين، بما لها وما عليها، وليس أفضل من الكلمات الدالة التي سجَّلها مؤرخ الحركة القومية، عبد الرحمن الرافعي، في كتابه المرجعي، لتُوجِزَ «عصر إسماعيل»:

«كان إسماعيل حقًّا عظيمًا في موقفه، شجاعًا في محنته؛ فشجاعته جعلته يغامر بعرشه في سبيل مقاومة الدول الأوروبية جمعاء.. فآثر المقاومة على الاستمساك بالعرش، وقليل من الملوك والأمراء من يضحُّون بالعرش في سبيل المدافعة عن حقوق البلاد؛ فالصفحة التي انتهى بها حكم إسماعيل هي بلا مراء من الصحائف المجيدة في تاريخ الحركة القومية؛ لأنها صفحة مُجَاهَدَة وإباء وتضحية، وهي لعمري تضحية كبرى، ولهذه التضحية حقها من الإعجاب والتمجيد».

t.me/qurssan

الخديوي إسماعيل

t.me/qurssan

t.me/qurssan

١٢

قناة السويس...
هدية مصر إلى البشرية

«إني أريد القناة لمصر، ولا أريد مصر للقناة»!

الخديوي إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩)

«نعم. ها هو خليج السويس العتيق، فضاء من الحصباء، وصحراء مكفهرة ومقفرة، سوف يخضعه البحر لسلطانه، ويطيل سواحلنا. إن عشق هذا البحر للبحر الآخر، هو كعشق اللآلئ لصدور الحسناوات، هنالك ستذهب سفننا تتنزه نزهة الخطّاب، ويهوي إليها من نحبهم من البشر» ..

(نص لرفاعة الطهطاوي ورد في الأصل الفرنسي من كتاب «افتتاح قناة السويس ـ رحلة الملوك»)

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١)

كلمتان فقط؛ «قناة السويس»، تثيران في نفس كل مصري مشاعر جياشة لأسبابٍ مختلفة؛ أولًا لدور المصريين الأجداد في حفرها وما لاقوه في سبيل ذلك، ولارتباطها بالكفاح الوطني لنيل الاستقلال، وكذا رد العدوان الإسرائيلي منذ ١٩٥٦.

إنها قصة طويلة جدًّا، عمرها يمتدُّ لأكثر من مائتي عام، تفاصيل ووقائع وبطولات وملاحم، سجلتها كتب كثيرة، عشرات المجلدات، مئات الخرائط وآلاف اللوحات والصور، وما لا يُحصى من الحكايات! في ٢٠١٥ استعادت مصر بعضًا من بهاء وشرف وفخر بعض هذا التاريخ، وهي تستعيده دون فخر أو اجترار، لكن برضا ونظرة أمل وتفاؤل إلى المستقبل، بعدما أعادت بعضًا من سيرة كفاحها الأول، معلنة افتتاح (قناة السويس الجديدة) أو الممر الملاحي الجديد الموازي للقناة الأم، مجرى تمَّ شَقُّهُ وحفره في سنة واحدة فقط!

لكن قبل ذلك التاريخ بتاريخ، كان ثمة سردية كبرى تتخلق وتتشكل في وجدان البشرية وقلب الحضارة؛ ربما يكون في إيراد فصول منها علامات دالة على ما كان وسيكون لسنين طويلة قادمة!

فلنبدأ الحكاية منذ البداية!

t.me/qurssan

(٢)

ارتبطت نشأة المدن الثلاث المعروفة بمدن القناة؛ بورسعيد، السويس، الإسماعيلية، بتأسيس وحفر قناة السويس، التي شهدت في حينها صراعات عنيفة ومواجهات بين إمبراطوريات العالم الكبرى آنذاك. برزت قيمة موقع مصر الجغرافي كنقطة التقاء وعبور للطرق البحرية التي تصل أوروبا بالشرق الأوسط والأدنى، فظهرت فكرة شَقِّ قناة تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر.

وفي القرن التاسع عشر، تصارعت الإمبراطوريتان الفرنسية والبريطانية على مناطق الاستحواذ والنفوذ، كانت فرنسا أول بلد أوروبي كبير يلفت الأنظار إلى مصر وموقعها الفريد، فخاض بونابرت المغامرة وجاء بحملته الشهيرة «الحملة الفرنسية» (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) ليؤسس مستعمرة فرنسية في قلب العالم.

فشلت الحملة وغادر بونابرت، لكن بقي منها ما تركته من آثار علمية ودراسات مهمة عن مصر، برزت منها دراسة المهندس الفرنسي «لوبير»، حول إمكانية شق برزخ السويس؛ حفر قناة تربط بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، الأمر الذي سيختصر الطريق إلى الهند إلى النصف. احتفظت فرنسا باهتماماتها الكبيرة بشق مجرى ملاحي يربط بين البحرين الأبيض والأحمر، وانصبَّت على الدراسات العلمية والنظرية عن طريق اللجان العلمية، وتحمَّس بعض رجالها، وعلى رأسهم القنصل الفرنسي السابق بمصر «فرديناند ديليسبس»، الذي استطاع بعد جهود والتفافات إقناع والي مصر آنذاك محمد سعيد باشا بالموافقة على حفر القناة.

t.me/qurssan

ومنذ كانت الفكرة جنينًا يتخلّق في رأس أحد مهندسي الحملة الفرنسية، وصولًا إلى المغامر الفرنسي «فرديناند ديليسبس» الذي نقل الفكرة من عالم الخيال إلى أرض الواقع، وصولًا إلى تاريخ من السُّخرة والدم والاحتلال، إلى أن تَمَّ تأميم القناة على يد الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، شكّل كل ذلك رحلة طويلة تستحق عناء البحث والقراءة والتأمل، سنكتفي هنا بإشارات لافتة وحكايات عن كتب روت سردية قناة السويس، كلٍّ بطريقته ومدخله ورؤيته، وعن أبرز رجالاتها وأحداثها منذ كانت فكرة إلى أن صار هناك مجرى ملاحي جديد يوازي القناة الأم.

(٣)

على متن سفينة فرنسية، قطعت المسافة بين مارسيليا وميناء الإسكندرية في عشرة أيام، كان البحر المتوسط خلالها هائجًا، وقف القنصل الفرنسي السابق «فرديناند ديليسبس» يتأمل عنف حركة الأمواج في الوقت الذي كانت رأسه تضطرمُ بعنف مماثل، وهو يكابد حلمًا سيصبح واحدًا من أكبر المغامرات الإنسانية في التاريخ.

استعاد ذكرياته الأولى عندما وقعت عيناه للمرة الأولى على الدراسة التي أعدَّها مهندس عبقري من علماء الحملة الفرنسية اسمه «لوبير»، حول إمكانية حفر قناة تربط بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، واستولت هذه الآفاق الجسورة على أحلامه.

في اليوم السابع من نوفمبر عام ١٨٥٤ من وصول السفينة إلى

الإسكندرية، وصل الاضطراب الذي انتاب القنصل السابق إلى ذروته، وتجمعت الأفكار التي تلاطمت برأسه معلنة أنه ارتبط ومنذ هذه اللحظة برهان سيجازف من أجله بما تبقى من عمره، وسيضحي لأجله بفك الارتباط بماضيه وذكرياته في بلده فرنسا، ولأجلها أيضًا!

بعد عشرين عامًا قضاها بعيدًا عن المحروسة، ها هو يعود إلى أرض الفراعنة حاملًا مشروعًا هو الأكبر، والأضخم، والأكثر تأثيرًا في تاريخ العالم والبشرية بأسرِها، تيقن أن هذه الرحلة ستقرِّر مصيرَ ما تبقَّى من عمره.

بعد خمسة عشر عامًا من هذا التاريخ، ستشهد البشرية احتفالًا أسطوريًا مهيبًا بشَقِّ مجرًى ملاحي يربط بين البحرين المتوسط والأحمر، ملحمة الإنسان والمكان، عبقرية الموقع والموضع، وسيعلن للعالم افتتاح قناة السويس في ١٧ نوفمبر ١٨٦٩.

منحة العقول التي فكرت إلى مصر، وهدية المصريين إلى العالم، دفعوا ثمنها رجالًا ونساءً وبطولات لم تسجَّلْ على الورق، لكنها حُفِرَتْ في الذاكرة.. ولن تُمحى.

عن هذه الشخصية العجيبة التي ارتبط اسمها بتاريخ قناة السويس، سلبًا أو إيجابًا، دارت موضوعات كتابين مهمين أصدرهما المركز القومي للترجمة بالقاهرة، يدوران بالكامل حول شخصية «فرديناند ديليسبس»؛ الكتاب الأول «ديليسبس وقناة السويس - عبقرية الإنسان والتاريخ» لمؤلفته لورا لونج، وترجمة محمد فريد حجاب، وهو كتاب يتتبع السيرة الذاتية لديليسبس منذ ميلاده وحتى وفاته، والذي اعتبرتْه أحد كبار المغامرين في التاريخ.

في هذا الكتاب الذي جمع بين السرد التاريخي والحس الأدبي، سنعرف شيئًا كثيرًا عن هذه الشخصية المثيرة، كان قد تلقّى منحة من نابليون لاستكمال تعليمه، وأتمَّه بنجاح ظاهر، عمل قنصلًا لسنوات طويلة في مصر، وخدم بتألُّق في مواقع عديدة. ثم ضرب الحظ ضربته، ولعبت السياسة كما ينبغي لها أن تكون، فقربت الدبلوماسي الطموح من والي مصر وحاكمها آنذاك محمد سعيد باشا[1]، ليخطو نحو تحقيق حلمه خطوات واسعة.

الكتاب الثاني «ديليسبس الذي لا نعرفه» لأحمد يوسف، وترجمتْ وثائقَه ومخطوطاته أمل الصبان، وعلّق عليه المؤرخ الراحل رؤوف عباس، الهدف الأول من هذا الكتاب هو إتاحة الفرصة لكل المصريين للاطلاع على ما اطّلَع عليه المؤلف في باريس من وثائق وأرشيفات ومخطوطات وصور وأفلام ولوحات وخرائط تحفل بها أرشيفات جمعية أصدقاء قناة السويس، وفرديناند ديليسبس.

هذا الكتاب مثّل خلاصة كل ما سبق، إضافة إلى المقابلاه الشخصية التي أجراها المترجم مع شخصيات فرنسية بارزة لعبت دورًا مهمًّا في تاريخ القناة. يحفل هذا الكتاب بصور فوتوغرافية مثيرة ونادرة للمصور الفرنسي هيبوليت أرنو تعود إلى منتصف القرن التاسع عشر، وتحتِّم إعادة النظر في تاريخ القناة من جديد.

---

(١) حكم مصر بين سنتي ١٨٥٤ و١٨٦٣.

(٤)

كان افتتاح قناة السويس للملاحة في ١٧ نوفمبر ١٨٦٩، حدثًا عالميًا بكل المقاييس، وأراد الخديوي إسماعيل حفيد محمد علي باشا الكبير، أن يَظْهَرَ بأقصى مظاهر العظمة والأبهة والفخامة أمام ملوك وأمراء وسفراء أوروبا، فاستدعى ممثلي الصحافة العالمية، ورجالات العلوم والصناعة والفنون والتجارة، ليشاهدوا بأعينهم ما لم يَرَوْهُ في حياتهم من قبل، ليشهدوا احتفالات أسطورية بافتتاح القناة لم يسبق لها نظير في العالم من قبل.

جاء حفل افتتاح القناة كما خطط إسماعيل ورَسَمَ، وأكثر.. جاء تتويجًا لنجاح هذا العمل الخارق والمعجز، مما دفع الإمبراطورة الفرنسية «أوجيني» أن تكتب إلى زوجها الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث، فور وصولها إلى مصر، معبِّرة عن دهشتها، كتبت تقول: «وصلت إلى بورسعيد بسلام، استقبال باهر لم أشهد مثيلًا له قَطّ طوال حياتي».

أراد إسماعيل أن يجعل من احتفالات افتتاح قناة السويس للملاحة حدثًا خالدًا لا يُنسى، فكلّف الرسّام المشهور «إدوارد ريو» بإعداد كتاب فخم يهديه للملوك وعظماء المدعوين الذين حضروا الاحتفالات.

هكذا جاء كتاب «افتتاح قناة السويس - رحلة الملوك» كتابًا تذكاريًا جليلًا، يمثّل أحد أهم الكتب الموضوعة في تراث قناة السويس، ويُبرز مظاهر الاحتفال الأسطورية المبهرة التي خلبت ألباب ملوك وأمراء أوروبا والعالم، تخليدًا لنجاح مصر في وصل الشرق بالغرب، كما يُبرز هذا الكتاب التوثيقي النادر الصعوبات والتحديات التي واجهت

t.me/qurssan

منفذي المشروع وتمَّ التغلب عليها بفضل كفاح ومثابرة وصبر العمال المصريين، وتضحياتهم الجليلة.

الكتاب يتكون في الحقيقة من مجلدين معًا، كان الغرض منه تخليد ذكرى احتفالات قناة السويس، ويتضمن الكتاب أربعين لوحة رسمها بالألوان المائية الفنان الفرنسي «إدوارد ريو» تذكِّر الرؤوس المتوجة بحفلات بهرتهم روعتها ودقة تنظيمها. لقد أراد حاكم مصر المستنير بهذا الكتاب توثيقَ حدثٍ فريد ليحتلَّ مكانة مرموقة فى سِجِلِّ ذاكرة العالم.

ساهم في صياغة كتاب الإهداء كل من الكاتب جوستاف نيقول، والمؤرخ ماريوس فونتان، ومن يطالع الكتاب سيجد تآلف الأسلوب مع ألوان اللوحات المائية لريو، ويبرز سرد الأحداث الإنجازات التي تحققت على أرض مصر بفضل نضال وكفاح ومثابرة العمال المصريين من جانب، وما عرفته أشغال الحفر من تطور وابتكار آلاتٍ وماكينات حديثة للتغلب على الصِّعَابِ في الصحراء الجرداء.

تصوِّر لوحات «إدوارد ريو» أيامَ الاحتفال الخمسة، ورحلة عبور القناة من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر، من بورسعيد إلى السويس، وتوضِّح كيف وُلدت المدن في الصحراء القاحلة، وكيف قامت الورش، وتوضِّح أيضًا نشاط السكان المحليين، والمثابرة لإنهاء العمل.

صدر الكتاب باللغة الفرنسية في طبعة فاخرة من القطع الكبير جدًّا[1]، واشتمل على نصوص شديدة الندرة لم تَرِدْ في غيره من الكتب التي أرَّخَتْ لقناة السويس.

---

(١) مقاس ٣٩ × ٥٥,٥سم.

 t.me/qurssan

من تلك النصوص النادرة التي أوردها كتاب «رحلة الملوك» في أصله الفرنسي، ما قاله الرائد التنويري العظيم رفاعة الطهطاوي، معبرًا عن معاناة شق قناة السويس كضرورة لخدمة ورفاهية البشر، بما معناه: «يا مصر لكِ المجد والعزة.. فسوف نعيد فتح قناة عمر بن الخطاب العتيقة، فقد كان لأجدادنا فيما مضي شرف تنفيذ هذا العمل الخارق. إن شق الخليج لواجبٌ مقدس. تتقلب الأرض وتزمجر ما بقي الخليج موجودًا. افتحوا فيه طريقًا.. إن شَقَّ بطن الخليج لمؤلمٌ، ولكن بعد ذلك ستزول آلامُنا إلى الأبد».

هناك نص آخر (منسوب لرفاعة الطهطاوي أيضًا) جاء فيه: «نعم. ها هو خليج السويس العتيق، فضاء من الحصباء، وصحراء مكفهرة ومقفرة، سوف يخضعه البحر لسلطانه، ويطيل سواحلنا. إن عشق هذا البحر للبحر الآخر، هو كعشق اللآلئ لصدور الحسناوات، هنالك ستذهب سفننا تتنزه نزهة الخُطّاب، ويهوي إليها من نحبُّهم من البشر».

يقول المترجم عباس أبو غزالة إن عمله في هذا الكتاب «رحلة الملوك» يأتي في إطار عمل موسوعي عن ثقافة وتراث قناة السويس، بدأها بترجمة أطروحة الباحثة الفرنسية نتالي مونتل، وعنوانها «حفر قناة السويس.. دراسة في تاريخ ممارسة التقنية»، ثم ترجم كتاب «دليل رحلة ضيوف الخديوي إسماعيل لزيارة آثار مصر» بمناسبة افتتاح قناة السويس ١٨٦٩، وأخيرًا استكملَ جهد ترجمة الكتابين السابقين بترجمة كتاب «رحلة الملوك».

(٥)

في ١٥ يونيو من العام ١٩٥١ ناقش الدكتور مصطفى الحفناوي رسالته العلمية التي تقدَّم بها إلى كلية الحقوق بجامعة باريس لنَيْلِ درجة الدكتوراه في تاريخ قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة، ووضعها القانوني والسياسي على الأراضي المصرية، وانتهى في بحثه إلى ضرورة أن تكون القناة ممرًّا ملاحيًّا عالميًّا، يكفل للسفن كافةً المرور بها، وأن تكون محايدة ولا تخضع لأي صراعات دولية، على أن تكون تحت السيادة المصرية وبإدارة مصرية.

صحيح أن هناك من سبق الدكتور مصطفى الحفناوي في كتابة أطروحات ودراسات علمية حول القناة، مثل محمد طلعت حرب باشا في رسالته عن قناة السويس، ومثل الدكتور حسين حسني برسالته عن التاريخ السياسي لقناة السويس، لكن تبقى رسالة الحفناوي «قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة» التي تُرجمت إلى العربية وظهرت في ٤ مجلدات كبيرة[١]، أوفى وأشمل مرجع عن تاريخ قناة السويس وما مرّ بها من تطورات ودار حولها من نزاعات حتى منتصف الخمسينيات من القرن الماضي.

كانت هذه الرسالة الضخمة التي اطَّلَعَ عليها الزعيم الراحل جمال عبد الناصر هي حجر الأساس الذي بنى عليه قرارَه التاريخي بتأميم قناة السويس في ٢٦ يوليو ١٩٥٦، أولى عبد الناصر اهتمامًا كبيرًا لعمل

(١) صدرت منها طبعة جديدة بمناسبة احتفالات المصريين بالقناة الجديدة، عن مكتبة الأسرة.

t.me/qurssan

الحفناوي، واستدعاه أكثر من مرة للقائه والتَّحَاوُرِ معه حول القناة، وضرورة نشر الوعي اللائق بها في صفوف الناس، وتركيز الأضواء على ما اشتملت عليه رسالته من حقائق ومعلومات ووثائق لم تتوافر لغيره بعد أن اطَّلَعَ على وثائق القناة في باريس، الأمر الذي كان مزعجًا بشدة لدوائر المراقبة في الدول الأوروبية، خاصة فرنسا وبريطانيا.

إذن فقد أراد الحفناوي في رسالته الجليلة دراسةَ وبحث المركز القانوني والدولي لقناة السويس، وفق أصول وقواعد القانون الدولي، وفي ظل المعاهدات والاتفاقيات الموقَّعة بهذا الشأن، وأثبت الحفناوي أن القناة ملك خاص لمصر[1]، بحكم المواثيق التي عقدها «خالد الذكر» الخديوي إسماعيل، عاهل مصر الذي شق القناة.

وفرَّق الحفناوي بين فكرتين محوريتين في بحثه؛ الأولى هي ملكية القناة والسيادة عليها، وهذا ما لا جدال فيه ولا تهاون من أن مصر وحدَها ولا شريك لها في هذه الملكية وتلك السيادة. الفكرة الثانية وهي الخاصة بوظائف القناة باعتبارها مرفقًا عالميًّا يُنتفع به في خدمة الملاحة العالمية، وهذه (أي وظيفة القناة) لا ينبغي بأي حال من الأحوال أن تؤثِّر على الوضع القانوني للبلد الذي تجري فيه القناة، ولا أن تقيِّدَ حقوق هذا البلد وسيادته.

اعتبر الحفناوي أن الخلط بين هاتين الفكرتين هو السبب وآفة الآفات في ماضي قناة السويس وحاضرها ومستقبلها، وهو مصدر جميع المشكلات التي أثارتها القناة في حينها. ولهذا خصَّصَ الجزء الأول

(١) كان هذا الكلام سنة ٥١، أي قبل حركة الضباط في يوليو ٥٢، وقبل قرار التأميم في ٥٦ بخمس سنوات.

t.me/qurssan

من كتابه الضخم لـ «تاريخ القناة وأصول مشكلاتها المعاصرة». يقول الحفناوي في نهاية الجزء الأول من كتابه:

«أردت بهذا الجزء الأول من كتابي الكشف عن مأساة لعلها أخطر مأساة وأقسى مؤامرة عرفها التاريخ، وما كان بوسعي، وأنا مصري، أن ألتزم في التعبير الحدود الجافة، فكنت وأنا أعرض فصول تلك الحوادث المروعة متأثِّرًا لدرجة لا أستطيع معها كبح جماح العاطفة والشعور، وليست عاطفة المصري الحزين على بلاده فحسب، بل عاطفة رجل قانون يمْقَتُ الظلم، وتَثُورُ نفسه كلما رأى هذا القانون يُمتهن ويُستهان به».

وتجدر الإشارة إلى أن كتابًا آخر شديد الأهمية صدر في مصر عام ١٩٦٨، عن دار الكاتب العربي بمصر، وعنوانه «قناة السويس ـ أهميتها السياسية والاستراتيجية وتأثيرها على العلاقات المصرية البريطانية (١٩١٤ ـ ١٩٥٦)»، للمؤرخ الدكتور محمد عبد الرحمن برج، وهو من الكتب التي لا غنى عنها لمن أراد التوسع ومعرفة المزيد من المعلومات والتحليلات المفصَّلة في هذا الجانب من موضوع دراسة القناة. هذا الكتاب لم يُطبع سوى هذه الطبعة القديمة، وأظن أن المهتمِّين بدراسة القناة وقراءة شيء عن تاريخها وسياقها السياسي، خاصة خلال فترات الاشتعال وصراع الإمبراطوريات الاستعمارية، في حاجة شديدة ومُلِحَّةٍ إلى طبعة جديدة من هذا الكتاب المهم[1].

(١) يمكن إجمال الكتب التي تعرض لها الفصل كما يلي:
١. ديليسبس وقناة السويس ـ عبقرية الإنسان والتاريخ ـ لورا لونج.
٢. ديليسبس الذي لا نعرفه ـ أحمد يوسف.
٣. «افتتاح قناة السويس: رحلة الملوك»، ترجمة عباس أبو غزالة، المركز القومي للترجمة، وهو الذي اشتمل على صور ورسومات افتتاح القناة التي أوردناها في الكتاب.

 t.me/qurssan

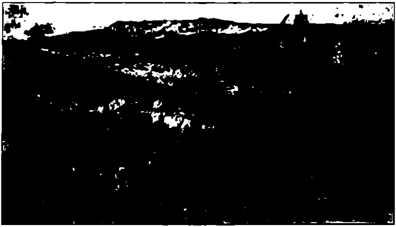

حفر قناة السويس

٤. «حفر قناة السويس: دراسة في تاريخ ممارسة التقنية» - نتالي مونتل.
٥. «دليل رحلة ضيوف الخديوي إسماعيل لزيارة آثار مصر» ترجمة: عباس أبو غزالة، المركز القومي للترجمة.
٦. «قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة» (٤ أجزاء)، الدكتور مصطفى الحفناوي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٥.
٧. «قناة السويس - أهميتها السياسية والاستراتيجية وتأثيرها على العلاقات المصرية البريطانية (١٩١٤ - ١٩٥٦)» - محمد عبد الرحمن برج.

t.me/qurssan

١٣

الأفغاني..
المُصْلِح الذي ظُلِمَ حَيًّا وميتًا!

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١)

في تاريخنا الفكري والثقافي، ما أكثر الشخصيات التي تعرَّضَتْ لظلم بيِّنٍ بسبب جرأتها، وبسبب أفكارها، وبسبب أدوارها المؤثرة التي تجاوز حدود زمنها. وفي تاريخنا الفكري الحديث لن نجد شخصية تعرضت لمثل ما تعرضت له شخصية السيد جمال الدين الأفغاني المصلح المجدد صاحب أول صيحة مقاومة فكرية ضد الاستعمار وضد الاستبداد السياسي والاقتصادي، ومؤسس مدرسة التجديد والإصلاح والنهضة في الفكر العربي والإسلامي، التي سيتخرج فيها من قُدِّرَ لهم أن يكونوا طليعة هذه النهضة، ليس في مصر وحدها؛ إنما في العالَمَيْن العربي والإسلامي.

وليس هناك اختلاف بين مؤرخي الفكر الإسلامي الحديث، والفكر العربي المعاصر، على إطلاق مفهوم «الإصلاح الديني» على تلك الحركة النشطة التي أعطاها قوةَ دفع كبيرة جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧)[1]، وتلاميذه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

(١) راجع ترجماتٍ مكثفة لـ جمال الدين الأفغاني في:
ـ «قاموس الأدب العربي الحديث»، إشراف وتحرير حمدي السكوت، الطبعة الثانية، مادة «جمال الدين الأفغاني»، حررها حسين عبد العظيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥، ص ١٩٥، ١٩٦.

t.me/qurssan

تبلور فكر الإصلاح في ذلك القرن، على يد كوكبة من المثقفين المفكرين؛ أمثال رفاعة الطهطاوي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد إقبال.

وإذا بحثنا ونقَّبْنَا جيدًا وأمعنَّا البحث والتنقيب ما استطعنا، فلن نجد اسمًا من الأسماء التي شغلت مصر والشرق العربي كله خلال ما يقرب من نصف القرن (بالتحديد القرن التاسع عشر) إلا وله علاقة بهذا الرجل؛ علاقة صحبة أو مودة أو تلمذة أو تأثُّر. ولن تجد مجالًا من مجالات العمل العام في تلك الفترة إلا وجدتَ لهذا الرجل قدمًا فيه، وأثرًا في أصحابه، في السياسة والأدب والفكر والصحافة والثورة.

كان محمد عبده تلميذَه وصفيَّه، وكان البارودي رائد الشعر الحديث ومجدده من أخلص تلاميذه، وعبد الله النديم الزجال ونديم إسحق الناثر ويعقوب صنوع المشخصاتي كلهم كانوا من أصحابه وخلصائه، وكان الزعيم الكاريزماتي سعد زغلول من مستمعِيه.

كل هذه الشخصيات الكبيرة والمؤثرة في تاريخ النهضة الفكرية الحديثة، وسواها، كانت تدور حول جمال الدين الأفغاني كأنه الكوكب المتألق المُشِعّ، وهم التوابع الخُلَّص، أو كأنه كما وصفه محمد عبده «حقيقة كلية تجلَّت في كل ذِهْنٍ بما يلائمه، أو قوة روحية قامت لكل قُطْرٍ بما يُشَاكِلُهُ».

ـ «المائة الأعظم في تاريخ الإسلام»، حسين أحمد أمين، طبعة دار الكرمة الأولى، القاهرة، ٢٠١٩، ص٢٧٣ ـ ٢٧٥.

t.me/qurssan

(٢)

كانت شخصية السيد جمال الدين الأفغاني محلَّ جدل كبير وواسع ومثير، بل غامض أيضًا في تاريخ الفكر الإسلامي الحديث، ليس على صعيد السيرة الذاتية فقط، إنما أيضًا على صعيد الأفكار والتأثير في مجريات حركة الإصلاح الديني التي شهدتها مصر في القرن الثامن عشر.

وأثارت شخصية الأفغاني اهتمامَ العديد من المؤرخين في الشرق والغرب على السواء، فراح البعض يقيم الدليل على أصوله الفارسية الشيعية تارة، وراح البعض الآخر يقيم الدليل على أنه كان يعمل لحساب بريطانيا تارة أخرى، وروسيا تارة ثالثة، والدولة العثمانية تارة رابعة، وهي كلها جهات تناقضت مصالحها وتضاربت، ولا يستقيم منطق قبولها استخدام من عمل لصالح خصومها.

ومهما كان الأمر، فقد كان السيد جمال الدين الأفغاني شخصية فريدة في عصرها يحيطها الكثير من الغموض، كما يصفها المرحوم الدكتور رؤوف عباس، تنقَّل بين فارس، وأفغانستان، والهند، والحجاز، وإسطنبول، ومصر، ولندن، وباريس، وبطرسبورج في روسيا، طالت إقامته في بعضها، وقَصُرَتْ في بعضها الآخر، وغادرها في معظم الأحوال مطرودًا مُبْعَدًا بسبب نشاطه السياسي، ولم يحطَّ عصا الترحال إلا في مصر التي عاش فيها ثماني سنوات كانت من أخصب سني حياته، إن لم تكن أهمها على الإطلاق، وكذلك إسطنبول التي قضى فيها سنوات عمره الأخيرة، ومات ودُفِنَ بها، عندما استدعاه السلطان عبد الحميد الثاني، ليستغلَّ دعوته للجامعة الإسلامية لخدمة أغراضه السياسية، فعاش

 t.me/qurssan

تلك السنوات (أسيرًا في قفص من ذهب) مُحاطًا بجواسيس السلطان، ممنوعًا من التحرك والسفر، حتى قضى نَحْبَهُ.

ولقد تناوشت شخصية السيد الأفغاني الأقلام والكتابات، ومن أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، تعددت فيها الصور والإشكالات حتى التناقض؛ فمن قائل إنه أحد مجددي الإسلام، ورافع لواء التجديد والإصلاح، والمنادي الأول بالاستيقاظ من السبات الحضاري لأمم الإسلام، ومن قائل بأنه كان عميلًا وخائنًا، ودسيسة على الإسلام والمسلمين، وأنه كان يقول بقول الدهرية، وينكر الخلود بعد الموت، وأنه كان «ماسونيًّا»، بل وصل الأمر إلى اعتباره «صهيونيًّا» أيضًا!! فضلًا عمَّا اتُّهِمَ به من الانخراط في أنشطة حركية سرية؛ تراوحت بين المعارضة السياسية الملتهبة والتنظيم المسلح!!

وهناك من نأى بنفسه عن التطرف والغلو واجتناب الأحكام التي بلا دليل، وقرر التركيز على أفكار الرجل من واقع كتبه ومؤلفاته، وما ثبت يقينًا أنه صادر عن الشيخ الأفغاني.. وهو ما أميل إليه وأعتبره الأقرب إلى الصواب.

(٣)

لقد كُتب الكثير جدًّا بالعربية، وبلغاتٍ أخرى كثيرة عن الأفغاني؛ وإذا غَضَضْنَا البصر عما يقوم منها على النقل والتقليد وترديد روايات وشبهات بلا دليل أو نظر عقلي، فيمكننا أن نقسمها إلى طائفتين:

الأولى؛ هي التي أرّخت وسجلت وقائع حياة وسيرة وأفكار السيد

الأفغاني، وفق رؤية علمية واضحة ومصادر معتمدة وموثوق فيها، ، بمنهج واضح، ولدينا للأمانة عددٌ معتبَر من الكتب المرجعية في هذه الدائرة. راجع مثلًا ما كتبه محمد عمارة باستفاضة في تقديمه ودراسته للأعمال الكاملة للأفغاني، التي أخرجها في ٤ مجلدات، وما نشره من كتب منفصلة عن السيد الأفغاني، حوالي ٣ كتب كاملة، وهي بالمناسبة تغني وتفيض، وكذلك الباب القيّم الذي خصَّصه المرحوم أحمد أمين للسيد الأفغاني في كتابه المهم «زعماء الإصلاح في العصر الحديث»، وترجم له ترجمة تفصيلية وافية لم يَتْرُكْ فيها مجالًا لمزيد، ولا أنسى الفصل المركَّز القيّم الذي كتبه المرحوم الدكتور عثمان أمين أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب جامعة القاهرة عن جمال الدين الأفغاني، في كتابه المرجعي «رواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي». وما كتبه أيضًا أستاذ الفلسفة المعروف الدكتور حسن حنفي، بعنوان «مئوية السيد جمال الدين الأفغاني» وفصّل فيه القول عن سيرة وأفكار جمال الدين الأفغاني.. وعدا ذلك، الكثير.

أما الطائفة الثانية فهي التي تضمُّ الكتب والمقالات التي اتهمت السيد الأفغاني في دينه، ونسبه، وجنسيته، وبالجملة نظرت إليه لا باعتباره أحد مجددي الإسلام ورافعي لواء النهضة والتمدن في العصر الحديث؛ بل باعتباره باطنيًّا شيعيًّا ملحدًا (هكذا!) متآمرًا على الإسلام وأهله! وللأسف فقد قُدِّرَ لهذا التيار أن يَشغُب على سيرة جمال الدين الأفغاني، وأن يؤثِّرَ في جموع البسطاء والمتدينين؛ لأنه يقوم في انتشاره وتأثيره على السماع لا القراءة، وعلى النقل لا التثبت، وعلى الانتقاء لا الفحص والتدقيق.

t.me/qurssan

رَادَ هذا الاتجاه، وللغرابة، اسمان؛ أحدهما يُعَدُّ ممثلًا للمرجعية الفكرية السلفية المحافظة في أشد صورها محافظةً وانغلاقًا، وهو المرحوم الدكتور محمد محمد حسين الأستاذ بجامعة الإسكندرية، في كتابيه «الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر»، و«الإسلام والحضارة الغربية»، وعنه ردَّد آراءه واتهاماته للسيد الأفغاني كلُّ دعاة السلفية المعاصرة، وكل رجال الدين والوعاظ وخطباء المساجد الذين يهاجمون حركة التجديد الفكري الإسلامي في العصر الحديث، وينظرون إليها بعين الرِّيبَةِ والشك.

أما الثاني، وللغرابة الشديدة، فكان ليبراليًّا مغاليًا في ليبراليته، وهو الدكتور لويس عوض أستاذ الأدب الإنجليزي، ومؤرخ الفكر المصري الحديث، وهو مثقف مصري كبير وقدير، وله أعمال تشهد بواسع اطِّلاعه وغزارة معرفته، لكن عُرف عنه تطرُّفه في آرائه القومية، وجنوحه الشديد في قراءة وتفسير حركةَ الفكر العربي الحديث من منظور قومي ضيق للغاية. ولقد حَمَلَ لويس عوض على جمال الدين الأفغاني حملةً عنيفة بسبب دعوته للجامعة الإسلامية والرابطة الدينية! وإن كان في الحقيقة قد انتبه لخطورة المضمون الراديكالي الدعوي في النصف الأول من حياة الأفغاني التي شهدت بروز هذه الأفكار والدعوة إليها والعمل على نشرها في كل مكان!

(٤)

وفي العموم، فقد تلخصت شبهات المهاجين للسيد الأفغاني في عدد من الأمور؛ منها:

أولًا: التشكيك في نسبه وأصله، وادعاء أنه لم يكن أفغانيًّا، ولم يكن سُنيًّا، بل وُلد في إيران، وكان شيعيًّا باطنيًّا «رافضيًّا» بلغة السلفيين المتشددين، ولعل هذه الشبهة هي أكثر الشبهات التي يتمسك بها دعاة السلفية المحافظة؛ لأنهم يعتبرون دعوة السيد الأفغاني للثورة، وتغيير الأنظمة السياسية المستبدة، والانفتاح على الغرب الأوروبي، والأخذ من معارفه وتجاربه الحديثة، تتعارض، بل تتضادّ بالكلّية، مع مواقفهم، ولهذا فهم يشددون تمامًا في كل أحاديثهم عن الأفغاني على هذه النقطة. ويمكن هنا الاكتفاء بنص أُورِدُهُ عن الشيخ الراحل محمد الغزالي، في كتابه «علل وأدوية»، وهو من رجال الدين المعاصرين الذي حظون بشعبية واسعة حتى بعد رحيله في أوساط المتدينين من العوام والبسطاء، يقول:

«قلتُ لرجلٍ يكره جمال الدين الأفغاني: ما قيمة التشكيك في انتماء جمال الدين لبلدٍ ما؟ ليكن أفغانيًّا أو إيرانيًّا أو سودانيًّا! فهل يستمد الرجل شرفَه من وطن وُلِدَ به! إنما يستمد عظمته من سيرته وتراثه والأصداء البعيدة التي تركها في العالم الإسلامي فأيقظته من سبات. قال: إنه إيراني يستخفي بنِحْلَتِهِ الشيعية وراء نَسَبٍ زائف! ومبدأ التقية عند الشيعة يُتيح له ذلك!

قلتُ: إن أصدقاء جمال الدين وأعداءه نقَّبوا في أقواله وأفعاله وخطبه وكتبه فلم يروا ذَرَّةً من تشيُّع إلا للإسلام والسلف الصالح، ولم يروا نبرةً من حماس إلا لاستعادة الحضارة الغاربة وإنعاش أُمَّتِها المسكينة. إن نفس الرجل تساقطت أنفُسًا وهو يكافح الذل والجهل والذهول والتفرق وسائر العلل التي أكلت كيانَنا. وما عُرِفَ عنه تعصُّب لمذهب

كلامي أو فقهي أو جنسي، كان الإسلام وحده شغله الشاغل حيث ولى وجهه في آسيا أو إفريقيا أو أوروبا. قال: هذا من إتقانه لتمثيل دوره، فقلت مقاطعًا: هذا الكلام يشبه اتهام كارل ماركس بأنه رأسمالي تخفَّى وراء فلسفة صنعها أو صُنِعَتْ له كي يخدم الأغنياء وأرباب العمل. دَعْ عنكَ هذا اللَّغْوَ، ولننظر في عمل الرجل لا في نسبه».

ثانيًا: أنه كان ماسونيًّا متصلًا بالدوائر الماسونية في أوروبا، وأنه كان عضوًا في المحفل الماسوني في الشرق، وللأمانة فإن هذا الأمر لم يكن سرًّا ولم يكن أبدًا في ذلك الوقت شبهةً مثيرة للجدل والرِّيبَة! والثابت تاريخيًّا أن السيد الأفغاني انضم بالفعل إلى المحفل الماسوني الشرقي، وقد أورد تفاصيل هذا الموضوع أحمد أمين في كتابه «زعماء الإصلاح في العصر الحديث». ولقد رد هذه التهمة أيضًا الشيخ محمد الغزالي في كتابه «علل وأدوية» قائلًا نصًّا:

«قالوا: كان منتسبًا لأحد المحافل الماسونية، ولا أنفي هذا، وإنما أسأل: في أي كتاب إسلامي شُرِحَتْ آثام الماسونية وحُذِّر المسلمون منها قبل عصر الأفغاني؟ إنه خُدع بكلمات الإخاء، والحرية، والمساواة، كما خُدِعَتْ أمتنا اليوم في المؤسسات العالمية الكثيرة، والمهم أنه منذ ظهر إلى أن مات ـ عليلًا أو قتيلًا ـ لم يُؤْثَرْ عنه إلا العملُ على استنهاض المسلمين، وإحياء جامعتهم وحضارتهم ورسالتهم.. وذاك حسبه من الشرف».

ويكرِّر في موطن آخر ذات الدفاع: «خطأ بُولِغَ في تضخيمه! والماسونية نِحْلَةٌ ما كان أحد يدري خباياها، كانت تُخَادِعُ بشعار الحرية والإخاء والمساواة، فلما دخلها جمال الدين، وأحس أن أعضاءها مزوِّرُونَ شَنَّ عليهم الحرب وفَضَّ محفلَهم وأسَّسَ محفلًا آخر يقول فيه ما يريد».

ثالثًا: أنه كان مُلْحِدًا! وهذه التهمة من أعجب التهم التي وُجِّهَتْ إلى السيد الأفغاني، كان الأفغاني يجيد عدة لغات، وكان محدِّثًا لبقًا، وخطيبًا مفوّهًا، ولكنه كان قليل الإقبال على الكتابة، فلم ينشر سوى رسالة صغيرة في «الرد على الدهريين»، وهذه وحدها تَبْعُدُ به كل البعد عن تهمة الإلحاد! وأخرى في الرد على محاضرة للمستشرق الفرنسي رينان عن «الإسلام والعلم»، وبعض الافتتاحيات التي كتبها لمجلة «العروة الوثقى» التي أصدرها في باريس بالاشتراك مع تلميذه محمد عبده.

ويُذكر أن المناظرة الشهيرة التي جرت بين الأفغاني ورينان جرت وقائعها في مايو ١٨٨٣؛ حيث رد السيد الأفغاني في جريدة المناقشات Le journal des débats على محاضرة إرنست رينان Ernest Renan التي ألقاها يوم ٢٩ مارس ١٨٨٣، وأكد فيها رينان أن الإسلام كان سببًا في تخلُّف الشعوب المسلمة. وقال الأفغاني في رده إنه ليس هناك تعارض بين الوحي، أو النقل، والعقل، وبما أن القرآن يُلزم باستمرار المؤمن في فهم العالم بالتدبُّر؛ فالإسلام إذن هو الذي سمح بوجود روح الفلسفة عند العرب. وبالتالي، لا يوجد ما يمنع من تطور القدرة العقلية في نظم علمية. ويَكْمُنُ جمود العقول في التيار المحافظ والتقليد العقيم، وليس في الإسلام نفسه.

وإجمالًا، فقد وصلتنا معظم أفكاره من خلال ما كتبه تلاميذه من مقالات نُشرت بالصحف، ويُجمع من عرفوه عن قرب على «إخلاصه لعقيدته وغيرته على الدين، وبساطته وتقشفه، مع حِدَّةٍ في الطبع، وعناد فيما يراه الحقَّ. وقف الجانب الأكبر من حياته للدفاع عن حياض الإسلام التي اخترقتها سهام التوسع الغربي»، كما يقول المرحوم رؤوف عباس في تاريخه للفكر العربي الحديث.

t.me/qurssan

(٥)

ولا يمكن الفصل بين ما قدَّمه جمال الدين الأفغاني والمضي في الطريق الذي سبقه إليه رفاعة الطهطاوي، وذلك بإعادة تأكيد الوصل بين الحكمة والشريعة، تطويرًا لفهم الشريعة وتحريرًا للعقل من قيد النقل والتقليد، على نحو ما فعل الفيلسوف ابن رشد. وكانت النتيجة فهم الأفغاني هذا الوصل في ضوء صعود العلم الواعد في زمنه، والتقدم المتزايد للدولة المدنية في أوروبا، خصوصًا بعد استقلالها الكامل عن السلطة الدينية، جاعلًا من ذلك مدخلًا للبحث عن مخرج لمأزق التخلف المريع الذي رأى عليه أمم الإسلام.

وكان ابتداء ذلك إيمانه بقدرة العقل الإنساني الحر على مجاوزة شروط الضرورة، ومن ثم قدرة الإنسان على أن يستجلي بعقله، ذاتيًّا، ما غمض وخفي من أسرار الطبيعة، ويسيطر عليها، فلا حدَّ لقدرة هذا الإنسان إذا أطلق سراح العقل، فالعقل «لا يلبث طويلًا، بعد أن يتحرر من قيوده، حتى يطير أسرع من العقبان، ويغوص في أعماق البحار يسابق الحيتان، ويسخِّر البرق بلا سلك لحمل أخباره، ويتحادث عن بعد أشهر مع غيره كأنه قاب قوسين أو أدنى، ولا يبقى مستحيلًا عليه إيجاد مطية توصله للقمر أو الأجرام الأخرى».

وقد أردت نقل عبارات الأفغاني بنصِّها من «خاطراته» التي يؤكد فيها رؤياه لإمكانات التقدم الإنساني في المستقبل، وذلك من قبل أن يغزو الإنسان الفضاء، أو يصل إلى القمر وغيره من الكواكب، وقبل الفضائيات والأقمار الصناعية.

t.me/qurssan

ويمضي الأفغاني مؤكدًا بعد ذلك أنه ما من أحد يدري ما يمكن أن يأتيه الإنسان في مستقبل الزمان، إذا ثابر على السير لكشف أسرار الطبيعة التي ما وجدت إلا للإنسان، وما وجد الإنسان إلا لها. وكانت النتيجة العودة إلى الوصل الرشدوي (نسبة إلى ابن رشد) بين الحكمة والشريعة، بوصفه وصلًا بين العلم الجديد والشريعة. لكن بما يؤكد نوعًا من الثنائية التي تفصل وتصل بينهما في علاقة تكاملية، لا يقل الفصل فيها أهمية عن الوصل.

ولذلك أعلن الأفغاني مبدأ الفصل بين السلطتين: الزمنية المدنية، والروحية الدينية، مؤكدًا تصاعد حضور الدولة المدنية في وعيه. وهو ما دفعه إلى تأكيد أن الهيئة البشرية لا يمكنها أن تستغني عن سلطتين: روحية وزمنية، وأن كلتا السلطتين تهدف إلى غاية واحدة، أما السلطة المدنية بملكها أو سلطانها أو حاكمها، فإنها تستمد قوتها من الأمة، فالأمة مصدر السلطات بهدف قمع الشر، وصيانة حقوق العامة والخاصة، وتوفير الراحة للجميع بالسهر على الأمن، وإعمال القانون، وتوزيع العدالة المطلقة في التعامل مع المواطنين. أما السلطة الدينية الروحية فهي ما لكل دينٍ من النفوذ المعنوي على من يدينون به، وهي أنفذ من قوة السلاطين في بعض مواقفها وأقوى من يقظة الشرطة، وعدل القاضي على منصة القضاء.

وإذا تكاملت علاقة التفاعل بين السلطتين، ولم يحدث بينهما تعارض عدائي، أو محاولة فرض وصاية قمعية من أحدهما، تحقق التقدم، ومضت الأمة في طريق صاعد من وعود المستقبل، فيسير الدين في غايته الشريفة التي تحمدها السلطة الزمنية المدنية، وتسير السلطة الدينية في طريقها

الهادف إلى العدل المطلق والسعادة الإنسانية التي تحمدها السلطة المدنية وتدعمها بالقطع، ولا تتنازع السلطتان إلا إذا خرجت كلٌّ منهما عن المحور الملازم لها، والموضوعة لأجله، فتحدث الكوارث التي تقترن بالاستبداد والقمع، قمع السلطة الزمنية لمواطنيها حين لا تجد رقيبًا من مؤسسات أو حسيبًا من شرع، واستبداد السلطة الدينية إذا سيطرت عليها فئة ضالة، متعصبة، تزعم احتكار الدين، أو النيابة عنه بما يقيم تطابقًا وهميًّا بينها وبينه، فتقمع المخالفين لها الذين تصمهم بوصمة الكفر، وتخيفهم بعذاب الدنيا والآخرة.

(٦)

ولقد انتقل هذا الفهم التكاملي للعلاقة بين السلطتين، من جمال الدين الأفغاني إلى تلاميذه الذين تحلقوا حوله من مشايخ الاستنارة وأفنديتها الذين نجحوا في انتزاع بعض الحقوق الدستورية للأمة التي ظلت مصدر السلطات في وعيهم.

وكان إنشاء مجلس شورى النواب عام ١٨٦٦ في عهد الخديو إسماعيل خطوة على الطريق، سابقة على مجيء الأفغاني إلى مصر عام ١٨٧١، وانخراطه في حركة الاستنارة الثورية التي قام بها نواب الأمة المصرية والمدافعون عن حقوقها، داخل مجلس شورى النواب الذي نظر إليه الأفغاني وتلامذته بوصفه أساس المدنية والنظام، والسبب الموجِب لنيل الحرية التي هي ـ كالمساواة ـ أصل التقدم والترقي، والحافز الأول على بناء العدل الذي يسوي بين الجميع.

(٧)

يجمع مؤرخو الفكر الإسلامي الحديث والفكر العربي المعاصر، على إطلاق مفهوم «الإصلاح الديني» على تلك الحركة النشطة التي أعطاها قوة دفع كبيرة جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧)، وتلاميذه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. تبلور فكر الإصلاح في ذلك القرن، على يد كوكبة من المثقفين المفكرين؛ أمثال رفاعة الطهطاوي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد إقبال. وعلى الرغم من اختلاف انتماءاتهم المذهبية، فإنهم سَعَوا جميعًا إلى الاجتهاد من أجل تحقيق الإصلاح الذي يُعبِّر عن «العودة والتجديد في ذات الوقت»، إصلاح يرفض الاستعمار والاحتلال، ويعترف بقيم الحضارة الغربية، ويتعامل مع تحديات العصر بموضوعية وعقلانية. لذا يؤكد الفكر الإصلاحي على أهمية التعليم والاجتهاد ووحدة المسلمين المعرفية والثقافية والفكرية.

وكان السؤال المباشر والجوهري: من أين يبدأ الإصلاح؟ ومَن الذي يحدِّد شروطه وملامحه وأولوياته؟ وهل يبدأ الإصلاح سياسيًّا أم يبدأ ثقافيًّا وفكريًّا؟ وما دور «الدين» عمومًا، و«الإسلام» على وجه الخصوص، في مشروع الإصلاح للخروج من النفق المظلم الذي تخبطت فيه الأمم والشعوب الإسلامية لما يزيد على القرون الثلاثة؟

يمكن وصف خطاب جمال الأفغاني، بحسب المرحوم نصر أبو زيد، من حيث منحاه الإصلاحي الشامل من جهة، ومن حيث قدرته على محاورة الآخر، ولو من باب السجال، من جهة أخرى، بأنه «خطابٌ

t.me/qurssan

تقدمي»[1]. وهو كذلك، من حيث إنه خطاب يسعى لتأكيد قيم الحرية، والمساواة، والعدل، ويريد استنهاض الشعوب لاسترداد مجدها والسيطرة على مصيرها.

أما من حيث «الوسيلة» التي يسعى بها إلى استنهاض الأمة، وسيلة العودة إلى الجذور والأصول الصافية، فهو خطاب «سلفي». ولكن شتان بين «سلفية» النهوض والتجديد والتقدم، وبين «سلفية» تقليد الأسلاف واتباع خطواتهم حذوك النعل بالنعل.

كذلك لم يكن الخطاب الإصلاحي للشيخ محمد عبده مختلفًا في منطلقاته العامة عن خطاب «الأفغاني»، وإن اختلف معه في التفاصيل الدقيقة، لقد كان تأثير الأفغاني عميقًا في الشيخ محمد عبده، وهو تأثير أكثر وأكبر من تأثيره في كل من لاقاهم وتتلمذوا على يديه، وأثَّر فيهم خلال سنوات إقامته السبع في مصر. لقد استطاع عبده أن يحوِّل أطروحات الأفغاني العامة إلى خطة عمل فكري ثقافي شاملة.

ويمكن القول بثقة إن محاولات الأفغاني لإعادة فتح أبواب الاجتهاد في الفكر الإسلامي، آتت أُكُلُها على يد محمد عبده سواء منها ما يتصل بالمساواة بين المسلم، وغير المسلم، أو بالمساواة بين الرجل والمرأة. أقام عبده هذه المساواة على أُسس التأويل العقلاني للنصوص الأساسية.

---

(١) ويمكن هنا الاستشهاد بنَصِّ المناظرة التاريخية بين الأفغاني ورينان حول الإسلام والعلم.

t.me/qurssan

(٨)

يمكن اعتبار شخصية جمال الدين الأفغاني في مقدمة حركة الإصلاح. وكان مناضلًا لا يكلُّ من أجل قضية تجديد الفكر الإسلامي. «وكان ذا توجه جدلي سياسي أكثر منه مُنظِّرًا حقيقيًّا»، قضى كل حياته في السفر من بلد إلى آخر، «بسبب المكائد السياسية، من أفغانستان إلى الهند، من مصر إلى فارس، من لندن أو باريس إلى موسكو، وسان بطرسبرج والقسطنطينية، مشمولًا بالرعاية أحيانًا، وبالشك أحيانًا، وكان مصيره المنفى»[1].

وفي بداية عام ١٨٧٠، تردد على جامعة الأزهر، وبدأ يجمع حوله عددًا كبيرًا جدًّا من الطلاب والمفكرين، تبهرهم الكاريزما التي يتمتع بها، وموهبته كخطيب وشغفه. وفي القاهرة، عام ١٨٧٢ على وجه التقريب، تعرف على الأستاذ الإمام محمد عبده، الذي اعتبر هذا اللقاء بمنزلة أهم حدث في حياته: «وبوصول هذا الحكيم، والحقيقة المجسدة، لأستاذنا المبجَّل السيد جمال الدين الأفغاني، الذي استمر في حصد ثمار العلم، أشرقت علينا شمس الحقيقة، وشرحت لنا المشاكل المعضلة».

في كتابه عنه «الثائر الإسلامي جمال الدين الأفغاني»[2]، يروي الأستاذ الإمام الشيخ المجدِّد محمد عبده عن أستاذه الأفغاني، قائلًا:

«كان من أثر الهزَّة التي أحدثها جمال الدين الأفغاني في مصر، أنه حرَّرَ العقولَ من الجهل والأوهام، ووجَّهها إلى التفكير والتأمُّل، وفتح فيها

---

(١) راجع: «تطور الفكر المصري الحديث» د. رؤوف عباس.

(٢) صدر في كتاب الهلال منذ سنوات بعيدة.

t.me/qurssan

نوافِذَ تطلُّ على الحضارة الإنسانية والثقافة العالمية، وأقنعها بضرورة التعرُّف على مصدر قوة أوروبا الطامعة في الشرق، والعمل على أن نكون أقوياء لنواجِه القوةَ بالقوة، ولم يقف عند هذا، بل أثَّرَ في أسلوب الكتابة، فكان ينادي بأننا لسنا في حاجةٍ إلى الكلمات اللغوية، ولكننا في حاجةٍ إلى الكلمة التي «تنقر حبة القلب».

وقبل إقامة الأفغاني في مصر كان الأدباء يحصرون مواهبهم في مدح الكبير، والتغنِّي بمآثر الوزير، فإذا خرجوا من هذا النطاق نظموا الشعرَ الماجن، وتباروا في تبادُل الهجاء بقصائد أو مقطوعات نثرية، تعتمد على التلاعُب باللفظ والإغراق في المجون؛ ليُضحِكوا أربابَ الجاه ويتلقَّوا منهم الهدايا! وجاء الأفغاني فجعل للأدب هدفًا، وحوَّله من تسليةٍ وترفٍ إلى تعبيرٍ عن آمال الشعب وانفعالٍ بمآسيه، وجعل من الكلمة سلاحًا ونشيدًا وأغنية.

وكان الأديب المؤرخ اللبناني سليم العنجوري يقيم في مصر، وكان من أصدقاء الشيخ، وقد وصفه فقال: «كان جمال الدين الأفغاني يقطع بياض نهاره في داره، حتى إذا جنَّ الظلامُ خرج متوكئًا على عصاه إلى مقهًى قربَ الأزبكية، وجلس في صدر جماعة تلتفُّ حوله على هيئة نصف دائرة، ينتظم فيها اللغوي، والشاعر، والمنطقي، والطبيب، والكيماوي، والتاريخي، والجغرافي، والمهندس، والطبيعي، فيتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه، فيحلُّ عقد أشكالها بلسانٍ عربيٍّ مُبِين، لا يتلعثم ولا يتردَّد، بل يتدفَّق كالسيل من قريحةٍ لا تعرف الكلال، حتى إذا اشتعَلَ رأسُ الليل شيبًا قفل إلى داره، بعد أن ينقدَ صاحبَ المقهى كلَّ ماله في ذمة ذلك الجَمْع الأنيق».

فما هذا الشيء الجديد الذي وجده الإمام الشيخ محمد عبده عند جمال الدين الأفغاني فاطمأن إليه واهتدت نفسه؟

يجيب المرحوم أحمد أمين في كتابه المرجعي المهم «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» مُفصلًا:

«[إنه] هو ما عند جمال الدين من أصولٍ كلية هي عمادُ الفلسفة، يُرجع إليها كلَّ ما يقرأ من صفحات الكتب، وهي الحَكَمُ في صحة ما يصح، وبطلان ما يبطل، ثم شخصية قوية تجزم في الحكم ولا تتردد تردد الشيخ حسن الطويل، ثم ربط جزئيات الحياة العلمية والعملية كلها برباط واحد، يفتح النوافذ كلها بعضها على بعض حتى تتألف منها وحدة؛ فالتصوف، والفلسفة، والدنيا العامة، ودنيا الشخص، هذه كلها لا يصح أن يكون كلٌّ منها حجرة مغلقة على نفسها، بل لا بد أن تتقابل وتتناغم، وتؤلف دورًا موسيقيًّا واحدًا، فإذا تم هذا صح نظر الإنسان وزال عنه كثير من الشك المؤلم والحيرة المضنية، وبتَّ فيما ينفع وما يضر، وما يعمل وما يدع، ووضحت أمامه الأعلام، واستنارت السبل.

أما جملة تصح وجملة لا تصح، ومؤلف أخطأ ومؤلف أصاب، ومنطق في الكتاب ولا منطق في العمل، ونظرية في التصوف ينقضها نظرية في الحكمة، وأقوال في الزهد يسلم بها في حينها، وأقوال في الحث على الانغماس في الحياة يسلم بها في حينها أيضًا، فهذه كلها نظرة البدائيين الذين لا يستطيعون أن ينظروا إلا إلى السطح دون الأعماق، والأعراض دون الجوهر، والأشكال دون الحقيقة.

وفوق هذا كله كان يأخذ بيد تلاميذه فيرفعهم إلى مستوى يسيطرون فيه على الكتاب ولا يستعبدهم الكتاب، ويسمون عن قيود الألفاظ والجمل إلى معرفة الحقيقة في ذاتها، ولو خالفت الألفاظ والجمل...».

وعنه يقول أحمد حسن الزيات: «وسرُّ القوة في هذا الرجل أنه كان صاحب رسالة لا طالب مُلك: هاجم السياسة الإنجليزية في (العروة الوثقى) أعنف الهجوم أيام الثورة المهدية، فدُعِيَ إلى لندن ليلوِّح له اللورد ساليسُبري بُملك السودان ليطفئ الثورة ويقترح الإصلاح. فما كان جواب الأفغاني إلا أن قال: (إن السودان لأهله. وهل تملكونه حتى تملكوني عليه؟!). وأراده السلطان عبد الحميد على مشيخة الإسلام فأباها وقال: «إن وظيفة العالم فيما يزاول من تعليم، وإن رتبته فيما يحسن من علم».

(٩)

كان الأفغاني يؤمن بأن مجموعة من الأمراض السياسية قد أصابت العرب والشعوب الإسلامية، ومن هذه الأمراض التخلف، والجهل، والوهم، والجبن السياسي، وكان مؤمنًا بأن الحل في العودة إلى الإيمان بمفهوم عصري متطور، وبعث الهمم الإسلامية للخروج من هذه الظلمات. فالمشكلة في رأيه كانت سياسية أولًا وأيديولوجية ثانيًا، ذلك أن مناوأة الغرب للشعوب الإسلامية ولقوميات العالم الإسلامي هي مناوأة سياسية، ولكنها في الوقت نفسه ذات أبعاد فكرية وأيديولوجية، ولذلك تصدَّى الأفغاني للتيارات الفكرية المناهضة للعقائد الدينية بعامة،

وللعقيدة الإسلامية على وجه الخصوص. وكان تصديه هذا تصديًا أيديولوجيًّا أولًا وآخرًا، وبذلك بدأ الأفغاني بمعالجة البنية الأيديولوجية الإسلامية من ناحيتين: الأولى، مدى تميزها عبر خصائصها الإيجابية، والثانية، مدى تضمنها الحلول الفكرية للمشكلات التي طرحها الفكر غير الديني، بحسب ما رصد الدكتور معن زيادة في بحثه عن معالم تحديث الفكر العربي.

وعلاوة على ذلك، فقد دعا الأفغاني إلى قراءة تحليلية منفتحة للنصوص القرآنية، وتفسير عقلاني يتناسب مع السياق التاريخي. كما دعا إلى صحوة الإسلام في مواجهة خطر توسُّع القوى الأوروبية؛ منددًا بالاستبداد وانحطاط النظم في البلاد الإسلامية، لا سيما النظام العثماني. وإجمالًا، عارض الأفغاني جمود العقول والتيار المحافظ المؤدي إلى الشلل، والذي وقعت فيه الأمم الإسلامية بسبب الجمود والتقليد الذي فرضته الإمبراطورية العثمانية على رعايا الأقاليم والبلدان الواقعة تحت سيطرتها آنذاك.

لقد حثَّ الأفغاني على فهم الدين بطريقة تسمح بالحياة من خلال تطبيق تعاليمه، ودعا إلى تجديد الفكر الإسلامي؛ اعتمادا على العودة إلى الأصول وقدوة «بالسلف الصالح»، ومن هنا عُرِفَت الحركة الإصلاحية التي أعطاها دفعة باسم الإصلاح السلفي. وباعتبار الأفغاني مُصلحًا مطلقًا ليس إلا، عمل على الدفاع عن مبدأ أن التفكير والاجتهاد هما اللذان أعطيا للإسلام مكانته وإشراقه العالمي.

ولقد لخص المرحوم رؤوف عباس في بحثه الرائع المكثَّف «تطور الفكر المصري الحديث»، جوهر القضية عند الأفغاني في إقناع المسلمين

 t.me/qurssan

بأن يحسنوا فهم دينهم، وأن يتمسكوا بتعاليمه وقيمه وفق فهم عميق ومتطور حتى يستطيعوا مواجهة التحدي الغربي. إذ اعتقد أن الدول الأوروبية لم تكن متفوقة بالفطرة على البلاد الإسلامية، وأن الفكرة السائدة عن تفوق إنجلترا على غيرها من الأمم ليست سوى وهم، تتجلى خطورته في بثِّ الجبن والخوف في نفوس المسلمين، ويرجع تفوق الإنجليز وغيرهم على المسلمين إلى تفرق المسلمين، وخلافهم مع بعضهم بعضًا، فإذا اجتمع المسلمون على كلمة سواء، واستخلصوا من عقيدتهم ما يقرِّب بينهم (يقصد الشيعة والسنة)، لوقفوا في وجه العدوان الغربي وقفة رجل واحد، ولهابهم الأعداء.

ولكنه لم ينظر إلى وحدة المسلمين وتكاتفهم نظرة وجدانية حماسية، ولكنه لفت الأنظار إلى أن ما حققته أوروبا من انتصارات إنما تحقق بفضل تقدم العلم في الغرب وتطبيقه التطبيق الصحيح. ونبَّه الأذهان إلى أن تخلص البلاد الإسلامية من الجهل والتخلف الاقتصادي لا يمكن أن يتحقق بمجرد التقليد، ومحاكاة ما فعله الأوروبيون. لأن التجربة الأوروبية جاءت ثمرة لنظام اجتماعي له إطاره الفكري وقيمه، وضوابطه القانونية، فلا يمكن للمسلمين أن يحققوا التقدم العلمي والنهوض الاقتصادي إلا بإصلاح المجتمع، وتخليصه من الفساد، وهذا الإصلاح الاجتماعي لا يتحقق - في رأيه - إلا بتحقيق الرفاهية الاجتماعية عن طريق توفير العدالة الاجتماعية بمفهومها الإسلامي، وتنمية مواهب الفرد ووعيه وفكره من خلال نظام تعليم سَوِيٍّ، ورأى أن ذلك ما كانت عليه الأمة الإسلامية في أوج مجدها، وما حققه المسلمون من انتصارات عسكرية في الماضي كان رمزًا لازدهار المدنية الإسلامية، وأن

«ما تحقق في الماضي يمكن أن يتحقق في الحاضر على ركيزتين: قطف ثمار علوم الغرب، وإعادة بناء وحدة الأمة الإسلامية.

وهكذا، غلبت دعوة المسلمين إلى الوحدة على كتابات الأفغاني، فهو يدعو المسلمين إلى تجاوز الخلافات العقيدية، والخصومات التقليدية، والاختلافات الطائفية، وأن يتحدوا لصد الخطر المشترك الذي يهددهم، والدفاع عن بلادهم وثقافتهم. ورأى الأفغاني أن إدراك الخطر كفيل بإزالة أعمق الخلافات بين السنة والشيعة، وفكّر في آخر أيامه في تحقيق التقارب بين الفريقين وصولًا إلى نوع من المصالحة تمثل حجر الزاوية في «الوحدة الإسلامية».

والوحدة الإسلامية عنده لا تعني وحدة الحكام أو تضامنهم؛ ولكنها تعني وحدة الأمة وتضامنها، وشعور أبناء الأمة بمسئوليتهم تجاه بعضهم بعضًا، والعمل معًا لخير بلادهم، ورأى الأفغاني أن الرابطة الدينية لا تتعارض مع الروابط القومية القائمة بين أقوام يعتنقون أديانًا مختلفة، بل دعا إلى نوع من التضامن الطبيعي الذي يربط بين جميع شعوب الشرق التي يتهددها التوسع الأوروبي، متعديًا بذلك حدود الأمة الإسلامية، معبرًا عن وعي عبقري بضرورة قيام حركة موحدة لشعوب الشرق في مواجهة الاستعمار.

أما أهم ما دعا إليه الأفغاني فهو تحرير الفكر الديني من قيود التقليد، وفتح باب الاجتهاد لإبداع فقه جديد يستجيب لحاجات العصر، ونادى بضرورة التدقيق في النصوص الدينية، واستخلاص الصحيح منها بالاعتماد على القرآن والسنة، وما أجمع عليه المسلمون في صدر الإسلام، أما آراء الفقهاء والمدارس الفقهية المختلفة فيتم الاستئناس بها، ولا تعد

مُلزِمة للأمة الإسلامية؛ لأنها اجتهادات صدرت عن الفقهاء استجابة لظروف المجتمع في عصر معين يختلف عن ذلك العصر.

ورأى الأفغاني أن القرآن لا يناقض حقائق العلم، فإذا ظهر خلاف بينهما فمردُّه إلى عجز وقصور تفسير الآيات القرآنية. وذهب إلى ضرورة إطلاع العلماء المسلمين على التيارات الفكرية الحديثة، وقبول ما لا يتعارض منها مع الشريعة الإسلامية، ويفيد المسلمين في حياتهم، ورفض ما عدا ذلك بالحجج العقلية والبراهين المنطقية.

(١٠)

لم يترك جمال الدين الأفغاني أعمالًا مؤلَّفَة كثيرة، ربما كانت حياته ومواقفه هي كتابه الأهم والأكبر وكان كل فصل من فصولها في الهند، وإيران، وأوروبا، ومصر وتركيا، وهي فصول روايته المبدعة الخالدة (بتعبير المرحوم صلاح عبد الصبور). وكانت كل كلمة من كلماته أثر موقف من المواقف الحادة هي عبرة هذه الفصول الخالدة.

لقد زار جمال الدين الأفغاني مصر سنة ١٨٧١، وظل بها نحو ثماني سنوات، دعا فيها دعوته المشهورة في الإصلاح الديني، والإفادة من ثقافة الغرب في الدفاع عن الإسلام، كما دعا إلى التحرر من تدخل الأجانب في شئون البلاد الإسلامية، والثورة عليهم وعلى من يمهد لهم من الحكام المستبدين، والتفَّ حوله الشيخ محمد عبده، وغيره.

ونحن لا ننسى أيضًا حينما عرض عليه الإنجليز ملك السودان عقب القضاء على الثورة المهدية هناك، أنه قال للورد سالسبوري:

t.me/qurssan

«اسمحوا لي يا حضرة اللورد أن أسألكم: هل تملكون السودان، حتى ،. ىدوا أن تبعثوا إليها بسلطان؟!».

كل تلك المواقف، هي فصول من رواية حياته التي هي بلا شك أ.دع ما كتب، ولكنه رغم ذلك لم يكن قليل التدوين كسقراط، وربما ىان ذلك لأنه اشتغل بالصحافة كوسيلة شريفة من وسائل إثارة الرأي العام فأصدر هو وتلميذه وصديقه محمد عبده مجلة (العروة الوثقى) في سنوات الجهاد الثوري التي قضياها في أوروبا بعد فشل الثورة العرابية.

وربما كان ذلك أيضًا لأنه أتيح له في آخر أيامه أن يُسجن في قضبان .ں ذهب، حين قرَّبه السلطان التركي عبد الحميد إليه، وألزمه بالبقاء إلى جواره في الآستانة، فانطلق حينها يملي «خاطراته» على تابعه محمد باشا المخزومي الذي حفظ لنا هذه الخاطرات المذكرات في كتاب سيكون من أهم ما دُوِّنَ في تلك الفترة.

ويمكن القول إن خاطرات الأفغاني تلك حملت البذورَ الأولى للتجديد الأسلوبي والأدبي والكتابي، وسيحمل لواء مواصلتها تاليًا الإمام محمد عبده وتلاميذه الذين تخرجوا في مدرسته، وعلى أيديهم ستبدأ حركة نشطة مثمرة في إحياء عيون وروائع التراث العربي، وإعادة اكتشافه ودرسه، بما سيؤدي إلى ظهور حركة التجديد والإحياء الشهيرة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، والربع الأول من القرن العشرين.

لم يكن جمال الدين الأفغاني يكتب لمجرد الكتابة فقط، ولم يدون أفكاره لتسويد الصفحات وزركشة الكلمات، لقد خلا أسلوبه تمامًا من كل أثقال الزينة اللفظية التي عرفها عصره من سجع وجناس وتورية وتعقيد، وغيرها، وانطلق الأفغاني كالسهم المرسل إلى هدفه، يقصد إلى

 t.me/qurssan

القلب عن طريق العقل، أو يخاطب القلب والعقل معا، في نبرة هادئة مقنعة. إننا حين نقرأ الأفغاني سنرى في زمانه بعض زماننا! وسنسمع صوت رجل من ذلك الزمان يتحدث إلينا بما نفعل، وقد نجد في بعض آرائه - بل في معظمها - صوابًا كبيرًا وحكمة كثيرة.

وكانت كتابات جمال الدين الأفغاني، قبل جمعها وترتيبها وتصنيفها في النشرة الممتازة التي أخرجها محمد عمارة[1]، مبعثرة بين كتيباته التي سبق نشرها، وبين خطراته وخاطراته التي جمعها تلميذه المخزومي باشا، وبين أعداد (العروة الوثقى) التي حررها بمعاونة تلميذه أيضًا محمد عبده.

ولهذا كان الحديث عن أثر جمال الدين الأفغاني معظمه يجري على السماع، مما جعل كثيرًا من دارسيه يتورطون في آراء لم يتحدث بها المفكر المصلح الثائر، أو يخلطون بين بعض كتاباته وكتابات تلميذه محمد عبده، اللذين تفرقت بهما السبل بعد الصحبة، وسار محمد عبده في طريق الإصلاح والتعليم والمهادنة للقوى الأجنبية، بينما ظل جمال الأفغاني حريصًا على أن يكون أقرب إلى الخطر وأبعد عن المهادنة.

وتأتي الطبعة الجديدة من الكتابات الكاملة لجمال الدين الأفغاني، في أربعة مجلدات ضخام، صدرت عن دار السلام بالقاهرة، لتُجدِّد الذاكرة والفكر بدور وتأثير الأفغاني في حركة النهضة والتجديد، وتختلف هذه الطبعة عن سابقتها الأولى التي صدرت في العام ١٩٦٨ (أي قبلها بنحو نصف القرن!) عن دار الكاتب العربي المصرية، وكانت في مجلد واحد

(١) ظهرت النشرة الأولى من الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، جمع وتحقيق ودراسة محمد عمارة، عن دار الكاتب العربي، القاهرة، عام ١٩٦٨، وكانت تقع في مجلد واحد تجاوز عدد صفحاته الألف.

t.me/qurssan

ضخم يصل عدد صفحاته إلى الألف تقريبًا!

والفارق بين الطبعتين يكاد يجعلهما مختلفتين كمًّا ونوعًا، لا يجمع بينهما سوى المقدمة الطويلة التي كتبها محمد عمارة في صدر طبعته الأولى، ووضع فيها نواة لدراسة ممتازة كانت في وقتها تقع في مائة صفحة، ثم زادت لتكون في أكثر من مائتي وخمسين صفحة في الطبعة الأحدث، بل وتستقلُّ بعد ذلك في أكثر من كتاب كامل كبير خصصه عمارة للأفغاني، منها (موقظ الشرق ومجدد الإسلام)، ومنها (حقيقة جمال الدين الأفغاني)، وغيرهما.

يقول محمد عمارة في تقديمه للطبعة الأحدث من الأعمال الكاملة[1]:

«مع تصاعد مدِّ اليقظة الإسلامية المعاصرة: تتزايد الحاجة إلى إبراز «معالم المشروع الحضاري» الذي صاغته مدرسة الإحياء والتي تبلورت من حول جمال الدين الأفغاني، فهو موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام الذي سعى لتحرير العقل من «التخلف الموروث» لتنهض الأمة فتقهر الاستعمار وترفض التغريب، ولهذا فقد اتخذته الصحوة الإسلامية رائدًا، بينما ناصبه العداء كلٌّ من: أنصار «الجمود والتخلف»، ودعاة «التبعية والتغريب»، فكان لا بد من إنصاف الأفغاني أمام: «الأصدقاء الجهلة»، وكذلك «الأعداء الكذبة»...».

لعل أهم ما في مقدمة عمارة، ودراسته المطوَّلة التفصيلية لسيرة وحياة الأفغاني، ومشروعه النهضوي الإصلاحي التجديدي، هو الوقوف عند

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، جمع وتحقيق وتقديم ودراسة د. محمد عمارة، ٤ مجلدات، ط ١، ٢٠١٦م، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة.

تفاصيل موقف الأفغاني من القضايا الثلاث المطروحة للنقاش، والسؤال والبحث عن إجابات عنها آنذاك، وهي: قضية الجامعة الإسلامية، وقضية القومية العربية، وقضية الإصلاح السياسي والديني والحضاري، في مواجهة الاستبداد والتخلف الفكري والحضاري معًا.

ويتتبع محمد عمارة مواقف الأفغاني من هذه القضايا الثلاث، وغيرها، ويتبين لنا أنه كان شأنه شأن أي مفكر حقيقي ومخلص كان كثيرًا ما يُعدِّل من مسار هذه الأفكار ومن مآل هذه الآراء إثر اختبارات ومواقف ومراجعات فكرية مستمرة لا تتوقف ولا تكف عن النشاط أبدًا.

ويعتمد عمارة في دراسته التحليلية لأفكار الأفغاني ومواقفه على الاستقراء وتتبع التاريخ واستكناه النصوص والربط بينها، مع وضع الرجل في إطار عصره وسياقه التاريخي والتطوري، ثم ينطلق ليجمع خيوط فكر الأفغاني المتشعبة لكي يُخرج لنا منها صورة لعقل من أشد العقول ذكاء ولماحية وأمانة فكرية (بعبارة صلاح عبد الصبور الدالة المعبرة)، صورة مفكر شرقي مسلم يواجه العالم الحديث معتمدًا على تراثه، لكنه يستعين بمنهج الفكر الأوروبي في قدرته على الاستدلال وخضوعه للمنطق، وبعده عن البراهين النقلية، والإفحام بالاستشهاد بالنقول الدينية السلفية إلى الإقناع الفكري والمنهجي بالعقل والملاحظة.

جمال الدين الأفغاني

t.me/qurssan

t.me/qurssan

١٤

محمد عبده..
الإمام المصلح المجدد

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(1)

منذ مطالع القرن التاسع عشر، ومع قدوم الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ ـ ١٨٠١م)، اصطدم العرب والمسلمون بمظاهر الحضارة الغربية الحديثة، والعلم الأوروبي المتطور، وكان لازمًا أن تُطرح الأسئلة التي تجسد وتعبر عن عمق الإحساس بالفجوة الحضارية الكبيرة التي عاينوها ورأوا بأعينهم مظاهرها العديدة، وعبروا عن هذا الاندهاش العظيم جرَّاء معرفة الآخر المغاير في اللغة، والدين، والجنس، بصوغ الأسئلة التالية: لماذا تخلف المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ وما السبل اللازمة إلى تحقيق النهضة والتقدم؟ وهل تحقُّق النهضة ينبغي أن يكون وفقًا للنموذج الغربي الأوروبي؟

هذه التساؤلات وغيرها، وما تفرَّع عنها، حفزت الأذهان وشحذت العقول من جديد إلى البحث والتفكير في «إشكالية العلاقة بين العقل والدين»، وهل هي علاقة صراع وتضاد أم تكامل وانسجام؟

وطوال ٢٠٠ عام هي عمر ما يطلق عليه العصر الحديث، حاول المفكرون والمثقفون ورجال الدين، على اختلاف تياراتهم ومذاهبهم الفكرية والدينية، البحث عن إجابات لهذه الأسئلة، وذلك في إطار

t.me/qurssan

وعاء جديد وعصري يختلف إلى حد كبير عن الوعاء التاريخي القديم، وإن كانت بذور هذه الحركة وتبلوراتها قد انطلقت من واحدة من أقدم المؤسسات الدينية والتعليمية في مصر؛ وهي مؤسسة الأزهر.

(٢)

لم تكن شخصية الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥)[1]، في غموض وضبابية شخصية أستاذه جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧)، صاحب الأثر الأكبر في تكوينه الفكري، ورؤيته الإصلاحية والتجديدية للخطاب الديني والحضاري. الإمام الشيخ «محمد عبده»، هو أحد أبرز المجددين في الفكر الإسلامي، والخطاب الديني في العصر الحديث، وأحد دُعاة الإصلاح، وأعلام النهضة العربية الإسلامية الحديثة، ساهم بعلمه ووعيه واجتهاده في تحرير العقل العربي من الجمود الذي أصابه لعدة قرون.

ورغم مرور ما يزيد على القرن على وفاته (١١٥ عامًا)، فإن أفكاره ما زالت تجاهد البقاء، وأن تكون حية وباقية، وإن كنا طوال هذه الفترة نشهد الصراع العنيف بين الإصلاح الذي كان ينشده الإمام محمد

---

(١) راجع ترجمة لـ الإمام الشيخ محمد عبده في:
ـ «قاموس الأدب العربي الحديث»، إشراف وتحرير حمدي السكوت، الطبعة الثانية، مادة «محمد عبده (الإمام)»، حررها محمد الجوادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥، ص ٦٩٧، ٦٩٨.
ـ «المائة الأعظم في تاريخ الإسلام»، حسين أحمد أمين، طبعة دار الكرمة الأولى، القاهرة، ٢٠١٩، ص ٢٨١، ٢٨٢.

t.me/qurssan

...، وكان من رواد الدعوة إليه، وبين التيارات المحافظة المتشددة التي تقاوم الإصلاح والتجديد بكل عنف وشراسة ورفض يصل حدَّ محاربتها ومواجهتها بالدم!

ولأن الإمام الشيخ محمد عبده كان أكبر المجددين والمصلحين الإسلاميين في مصر والعالم العربي، خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر وحتى وفاته (١٩٠٥)، فكان بالضرورة أن تتصدى له ...عنف الجماعات الدينية المتشددة، وأن تتهمه اتهامات عديدة تجاوزت آراءه وأفكاره التجديدية والإصلاحية لتطال سيرته وسلوكه الشخصي ... طالت حتى عقيدته نفسها! وقد تصدى عدد من تلاميذ الأستاذ الإمام لدحض هذه الشبهات والاتهامات وردِّها بأدلتها الدامغة من سيرته الحياتية والفكرية، وسلوكه الشخصي. وكما لم تكن وفاة محمد عبده نهاية لحملة الهجوم عليه، لم تقف هذه الحملات عند حدِّ مهاجمة آرائه بل تعدتها إلى حدِّ اتهامه في دينه، فما زال أتباع هذه التيارات حتى اللحظة يسيئون إلى الإمام ويشوهون تراثه، وينقبون بجهل وضيق أفق وتعصُّب في سيرة حياته، بغرض التشكيك في أصالة فكره وانتماءاته، وإسناد العديد من المساوئ إليه.

ولهذا رأى البعض أنه من الضروري إعداد دراسات تاريخية مدقَّقَة ووافية، وفي موضوعية ونزاهة، لإلقاء الضوء ومن خلال ظروف العصر، على حقيقة الدور الذي لعبه الشيخ محمد عبده، وأثره على تطور الحياة الفكرية والاجتماعية في مصر الحديثة. وما وصلنا من مصادر عن سيرة الأستاذ الإمام، توضح وتجلي تفاصيل حياته بكاملها دونما التباس ولا تردد. وكذلك ما أُنجز عن الأستاذ الإمام في مجرى الدراسات التاريخية

والنقدية والفكرية أكثر من أن يُعدُّ أو يحصى بالعربية وبغيرها من اللغات

ويكفي أن يكون من تلامذة الإمام شموس بلدانهم وفخر أوطانهم وأعلام عصرهم والعصور التالية لهم، متشعبين ومتوزعين على ألوان الطيف الفكري والديني والثقافي والعلمي والفلسفي والدعوي، من مصر ومن أنحاء الوطن العربي والإسلامي كافةً، أطياف متفاوتة تمثّل كل ألوان الطيف الفكري والثقافي والاجتماعي.

اتسعت عباءة الأستاذ الإمام لكي تشمل كل أصحاب التيارات والمذاهب الفكرية المتنوعة والمختلفة؛ نموذج صارخ وفذ للعقلية الإسلامية المدنية الحضارية المستنيرة التي أنجبت واحدًا هو الذي يقول ما يحق لنا أن نفخر ونتفاخر بمقولته «الحرية الحقيقية هي التي تحتمل كل رأي وتقبل كل تفكير وتتسع لكل النقد»، مقولة قاسم أمين أحد أنبغ تلاميذ الإمام محمد عبده ومريديه.

حاور فرح أنطون حول فلسفة ابن رشد، وعن المدنية في الإسلام، وأصول الإسلام الحضارية وكفالته حرية العقيدة والدفاع عن هذا الحق. وهو القائل: «إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهًا ويحتمل الإيمان من وجه واحد.. حُمل على الإيمان».

أستاذ مدرسة الدراسات الإسلامية الجريئة في اجتهاداتها التي تخرج فيها أحمد أمين، مؤرخ الحياة العقلية للمسلمين، والشيخ المجدِّد أمين الخولي، وامتداداتها في تلاميذ تلاميذه: محمد أحمد خلف الله، ونصر حامد أبو زيد، وحسن حنفي، وعلي مبروك، ومحمود إسماعيل.

وأستاذ الوسطية الإسلامية المعتدلة بجناحيها السلفي الأزهري،

، ا‌ا‌، ي المستنير.. الأزهري الذي يضم سلالة رشيد رضا، وعبد العزيز ا‌ا‌، بش، ومحمد الخضر حسين، وأحمد ومحمود شاكر، وغيرهم كثير.

وأستاذ الليبرالية المصرية التنويرية العظيمة؛ التي كان من أعلامها ا‌ا‌..م أمين، وطه حسين، ومصطفى وعلي عبد الرازق، وعباس العقاد ، حسين هيكل، وسعد زغلول، وفتحي زغلول.. وغيرهم مما يضيق ا لمجز عن ذكرهم، وكفى بمن ذكرنا شاهدًا ومثالًا مبينًا.

من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.. ومن التراث إلى الحداثة.. ومن إ:.كالية التوفيق بين الدين والعلم إلى «الإسلام دين العلم والمدنية» أو ا‌ا‌..نية والإسلام وئام الامتزاج». ومن ظلامات العصور الوسطى إلى إشعاعات عصر الأنوار الإسلامي الناهض، النافض عن نفسه . دام الجهل والتخلف والرجعية، من الانعزال والعزلة والتقوقع حول الذات والالتفاف عليها، إلى آفاق الانفتاح على الآخر ورحابة التواصل والتحاور مع اعتداد بذاتها الحضارية وتراثها المستنير دون وجل أو خوف، دون رُهاب أو عُصاب من نظرية المؤامرة وهاجس الاستهداف والاستقواء بالركيك والسخيف والتافه من أضعف ما في أمة عزلت نفسها تحت وهم أو أوهام فحُقَّ عليها العزلة والانعزال.. أمة خلقتْ «عفاريتها وجنَّها وبعابيعها وخرافاتها» لكي ترهب بهم الآخرين وتستعديها عليهم، فوقعت في شراك الوهم وشباك التخوف حتى أصابها ما أصابها من عدمية وجمود وتحجر، تحتاج إلى حجر الفيلسوف للنجاة من المصير المحتوم!

 t.me/qurssan

(٣)

عبر سنوات طويلة منذ سن مبكرة، اقتربتُ فيها إنسانيًّا وفكريًّا من سيرة الأستاذ الإمام وأفكاره ورؤاه الإصلاحية والتجديدية؛ تراكمت فيها رفقة طيبة بالسيرة الطيبة، ظهر صداها في لقاءات وندوات عرضتُ فيها لبعض ما عشت وقرأت بصحبة الإمام، وكان أن سألني أحد الحضور الشباب عن المدخل المناسب للتعرف على سيرة الإمام الجليل.

سألني تحديدًا ما الذي يمكنني أن أرشحه له من الكتب للتعرف على سيرة وأعمال وآثار الأستاذ الإمام محمد عبده؟ ورغم ما يبدو من بساطة السؤال ومباشرته، فإنه أثار ذكرى عزيزة وذكريات أحتفظ بها في أعز مكان من حياتي، تتصل برحلة صداقتي بالإمام العظيم والرائد الذي لم يكذب أهله، وزامر الحي الذي لم يطربهم!

وأنا في الجامعة قررت أنه بمجرد أن تتوفر لي حجرة مكتب خاصة (ما زلت أحلم بها حتى الآن!) فإن أول صورة سوف أعلقها على جدار المكتب ستكون لمن لعبوا دورًا كبيرًا في تكويني المعرفي والثقافي، أولهم بلا منازع هو الإمام العبقري محمد عبده. ودون أن أستطرد في الذكريات.. حاولت أن أجيبه عن سؤاله بالقول:

بعد العودة إلى (الأعمال الكاملة للأستاذ الإمام محمد عبده) التي صدرت عن دار الشروق في طبعات عدة، بتقديم ودراسة وتحقيق محمد عمارة[1]، يمكن الرجوع إلى ما يلي:

---

(١) أفضل ما قدَّمه محمد عمارة هو تحقيقاته للأعمال الكاملة لرواد النهضة الحديثة، من أول رفاعة الطهطاوي حتى قاسم أمين.

t.me/qurssan

مواد «محمد عبده» في كتب السير والتراجم والأعلام، لعل من أيسرها وأبسطها والتي تقدم معلومات سيرية مباشرة وتُعرف تعريفًا مطربًا مدرسيًّا بالشيخ، ثلاثة مداخل جيدة:

ـ الأول، مادة محمد عبده (الإمام) في (قاموس الأدب العربي الحديث) الذي أشرف على إعداده وتحريره حمدي السكوت[1].

ـ أما الثاني، فالصفحات التي أعدها وحررها المرحوم سامي خشبة عن الإمام محمد عبده في موسوعته الضخمة (مفكرون من عصرنا)[2].

ـ ويمكن أيضًا إدراج التعريف المركز الوافي الذي كتبه المرحوم حسين أحمد أمين عن الشيخ محمد عبده في كتابه السّيري «المائة الأعظم في تاريخ الإسلام»[3].

أما الكتب المخصصة بكاملها عن الأستاذ الإمام، فمن أهمها:

ـ كتاب العقاد عن الإمام محمد عبده بعنوان (عبقري الإصلاح والتعليم)، وكان الكتاب الأول في سلسلة (أعلام العرب) العظيمة عام ١٩٦٢، وصدرت منه طبعة حديثة مصورة عن الطبعة الأولى، في مشروع مكتبة الأسرة ٢٠١٦.

ـ كتاب المرحوم عثمان أمين أستاذ الفلسفة الكبير بجامعة القاهرة،

(١) صدرت طبعته الأولى عن دار الشروق عام ٢٠٠٦، ثم صدرت منه طبعة تالية مزيدة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب في ٢٠١٥.

(٢) صدرت منها طبعة في مشروع مكتبة الأسرة عام ٢٠١٢.

(٣) «المائة الأعظم في تاريخ الإسلام»، حسين أحمد أمين، دار الكرمة للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩، الصفحات: ٩٧، ٩٨.

 t.me/qurssan

وكتابه المعنون «الإمام محمد عبده رائد الفكر المصري الحديث» من أفضل المداخل للتعرف على الأستاذ الإمام وأعماله وأفكاره ومنحاه الإصلاحي الشامل في الحياة المصرية عمومًا، وفي الأزهر بخاصة، والقوة الجبارة التي دفع بها حركة التحديث الكائنة آنذاك في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين.

ـ وهناك الفصل القيم الذي كتبه الرائد الكبير أحمد أمين في كتابه المرجعي «زعماء الإصلاح في العصر الحديث»، وفيه العرض الرصين والتحليل العميق النافذ لأفكار الإمام وآرائه، وبما عُرف عن أحمد أمين من الاستقصاء والدأب والإحاطة وسلاسة العرض ووضوح المعنى.

ـ ولا يمكن إغفال ما كتبه الشيخ المستنير مصطفى عبد الرازق عن الإمام محمد عبده، ورغم صغر حجم الكتاب ووجازته فإنه من أهم ما عرض لأفكار الأستاذ الإمام وأدواره التي لعبها في الإصلاح التربوي والتعليمي والفكري والثقافي.

ـ وطبعًا لا يمكن أيضًا بحال إغفال ما كتبه تلميذ الأستاذ الإمام الشيخ الأصولي المحافظ رشيد رضا عن أستاذه الشيخ المنفتح المستنير الإمام المجدد محمد عبده «سيرة الأستاذ الإمام محمد عبده»[1].

ويمكن أن أُضيفَ إلى ما سبق من الكتب والمراجع التي ذكرتها، وتتناول حياة الأستاذ الإمام، كتابًا مهمًّا هو (الإسلام والتجديد في مصر)، للكاتب الأمريكي «تشارلز آدمس»، ونقله إلى العربية الكاتب

---

(١) صدرت في ٣ مجلدات ضخمة ضمن سلسلة (مصر النهضة) عن الهيئة العامة للكتاب، بإشراف الأكاديمي والمؤرخ القدير الدكتور أحمد زكريا الشلق.

t.me/qurssan

«عباس محمود»، وقدَّم له الشيخ الكبير الأستاذ «مصطفى عبد الرازق»، وقد أصدرته مكتبة الأسرة في العام ٢٠١٥، في ٢٩٤ صفحة. وهو من أهم الكتب التي دارت حول سيرة الأستاذ الإمام وأفكاره تفصيلًا.

إن هذا الكتاب تحديدًا، مع كتب أخرى منها ما كتبه كلٌّ من قاسم أمين، ومحمد البهي، ومحمد فريد وجدي، وسليمان دنيا الذي أفرد للأستاذ الإمام خمسة مجلدات ضخمة تدرس آرءاه الكلامية في التوحيد والعقائد وعلم الكلام، وآراءه الفلسفية والكلامية ونظراته الفقهية واجتهاداته الجريئة المعاصرة.. تمثل مستوى أكثر تخصصًا وعمقًا وتحليلًا في أعمال الإمام الشيخ محمد عبده.

هذا عدا الدراسات الأكثر جرأة وحداثة في قراءتها لمشروع الأستاذ الإمام التي قدمها كلٌّ من: نصر أبو زيد، وعلي مبروك، وماهر الشريف، وعبد الله العروي.. كل هذه الدراسات والكتب والقراءات أصنفها في دائرة أخرى مغايرة في الرؤية والمنهج وأدوات التحليل ومنظورات القراءة، عن عناوين الدائرة الأولى التي قصدت منها التعريف والتعرف لا أكثر.

هناك عشرات الكتب، ومئات المقالات والبحوث والدراسات.. لكنني أتصور أن التركيز على العناوين السابقة يفي بالغرض، وأنها ـ أي هذه الكتب ـ تقدِّم مدخلًا ممتازًا للتعرف على سيرة وأعمال وأفكار الأستاذ الإمام محمد عبده لمن أراد.. وبعد ذلك يمكن التقدم خطوات في طريق البحث والقراءة الأكثر تفصيلًا وتحليلًا وإشباعًا.

(٤)

تتلمذ الأستاذ الإمام محمد عبده على يد جمال الدين الأفغاني خلال السنوات التي قضاها في مصر، والسنوات التي قضياها في المنفى في فرنسا، وكان محمد عبده مثل أستاذه الأفغاني، انخرط في الدفاع عن الإسلام ضد منتقديه من مفكري الغرب وكُتّابه. وردوده على المسيو «جابرييل هانوتو» السياسي والمؤرخ الفرنسي (١٨٥٣ ـ ١٩٤٤)، فيما ذهب إليه من اتهام «الإسلام» بأنه علّة تخلف المسلمين، يمكن للقارئ الرجوع إليها في كتابه المهم «الإسلام بين العلم والمدنية».

يتفق الدارسون والمتخصصون في فكر الإمام محمد عبده على وصف خطابه بالإصلاحي التجديدي الشامل، وعلى قدرته العالية على محاورة الآخر، ولو من باب السجال، من جهة أخرى، خطاب حضاري إنساني يسعى لتأكيد قيم الحرية والمساواة والعدل، ويريد استنهاض الشعوب لاسترداد مجدها والسيطرة على مصيرها.

ولم يكن الخطاب الإصلاحي للشيخ محمد عبده مختلفًا في منطلقاته العامة عن خطاب أستاذه «الأفغاني»، وإن اختلف معه في التفاصيل الدقيقة، ونحن نعلم تأثير الأفغاني العميق في الشيخ محمد عبده، وهو تأثير أكثر من تأثيره في كل من أثّر فيهم خلال سنوات إقامته في مصر. لقد استطاع عبده أن يحول أطروحات الأفغاني العامة إلى خطة عمل فكري ثقافي شاملة، ومن خلال نهجه الإصلاحي تتلمذ على يد الأستاذ الإمام العشرات من رجال الفكر والثقافة والدين،

ربما كان الأزهر الشريف أقدم مؤسسة علمية تعليمية دينية يعود

t.me/qurssan

ا. خها لما يزيد على الألف سنة، وهي بهذا المعنى تعد واحد من أقدم -امعات العالم منذ العصور الوسطى وحتى وقتنا الراهن. ما يخص ا. بخ الأزهر قبل العصر الحديث مرحلة يعدها المؤرخون في باب التاريخ اا. سيط وأما الأزهر منذ دقت الحملة الفرنسية (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) أبواب المحروسة فشأن آخر إذ تكشف مع صدمة الاحتكاك والوعي بالفارق الحضاري الرهيب بين العالمين العربي والإسلامي والعالم الغربي ممثلا ا. حملة نابليون بونابرت ما كنا نسبح فيه من ظلمات وجمود وتأخر، . بدأت الدعوات المحمومة بمعرفة أفراد أفذاذ ربما كان باكورة هذه الحركة الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهو الأستاذ الذي سيحرض تلميذه رفاعة الطهطاوي على «اكتساب العلوم والمعارف من بلاد الفرنساوية».

ونحن نعرف شيئًا عن جهود الشيخ حسن العطار، وهو من المخضرمين الذين عاشوا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهو في ظني باكورة السلالة النهضوية التجديدية في مؤسسة الأزهر التي سيخرج منها الشيخ المستنير رفاعة الطهطاوي، والإمام المصلح محمد عبده الذي سيكون هو الأب الروحي لكل تيارات التجديد والإصلاح في الفكر العربي الحديث (وصولًا إلى طه حسين وجيله من التنويريين العظام).

وبفضل الإمام محمد عبده تحديدًا، وجهوده الإصلاحية الكبرى، شهد الأزهر بزوغ تيار عقلاني مجدد، ذا نزعة إصلاحية عارمة، وذا روح سمحة، (هذا التيار غرس بذوره الشيخ المصلح محمد عبده) ولم يكن غريبًا أن يكون محمد عبده أوَّل مَن يدرِّس للطلاب في الأزهر علمَ البلاغة من كتابَي عبد القاهر الجرجاني (القرن الخامس الهجري،

الحادي عشر الميلادي) «أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز»؛ ولم يكن غريبًا أن تكون (رسالة التوحيد) استعادةً لعلم الكلام الاعتزالي في مبدأ «العدل» والأشعري في مبدأ «التوحيد».

تتلمذ الأستاذ الإمام محمد عبده على يد جمال الدين الأفغاني خلال السنوات التي قضاها في مصر، والسنوات التي قضياها في المنفى في فرنسا، وكان محمد عبده مثل أستاذه الأفغاني، انخرط في الدفاع عن الإسلام ضد منتقديه من مفكري الغرب وكُتَّابه. وردوده على المسيو «جابرييل هانوتو» السياسي والمؤرخ الفرنسي (١٨٥٣ ـ ١٩٤٤)، فيما ذهب إليه من اتهام «الإسلام» بأنه علّة تخلف المسلمين، يمكن للقارئ الرجوع إليها في كتابه المهم «الإسلام بين العلم والمدنية».

ويكاد يتفق الدارسون والمتخصصون في فكر الأستاذ الإمام محمد عبده على وصف خطابه بالإصلاحي التجديدي الشامل، وعلى قدرته العالية على محاورة الآخر، ولو من باب السجال، ومن جهة أخرى، هو خطاب حضاري إنساني يسعى لتأكيد قيم الحرية والمساواة والعدل، ويريد استنهاض الشعوب لاسترداد مجدها والسيطرة على مصيرها، لقد استطاع عبده أن يحول أطروحات الأفغاني العامة إلى خطة عمل فكري ثقافي شاملة، ومن خلال نهجه الإصلاحي تتلمذ على يد الأستاذ الإمام العشرات من رجال الفكر والثقافة والدين، ومن عباءته الفضفاضة خرج السلفي المغرق في سلفيته «رشيد رضا»، والليبرالي الموغل في ليبراليته «منصور فهمي» و«قاسم أمين»، والوسطي المعتدل في وسطيته «الشيخ مصطفى عبد الرازق»، والاشتراكي والاجتماعي، والتنويري، والسياسي، والناقد، والمفكر، والمفسر، والفقيه، وأستاذ الجامعة... وكان

.. تلاميذه كلٌّ من: العقاد، وطه حسين، وأحمد أمين، وسعد زغلول، والأخوان مصطفى وعلي عبد الرازق، ومصطفى صادق الرافعي، ومحمد فريد وجدي، ورشيد رضا، وعبد العزيز جاويش، وغيرهم.

لكننا نستطيع أن نخص التيار العقلاني المجدد، ذا النزعة الإصلاحية الصارمة، بالمجموعة التي تتلمذت مباشرة على يد الإمام محمد عبده وتلاقى في تكوينها العلمي والثقافي الرافدان الأصيل والوافد، وأثمرت هذه البذور ثمارًا طيبة للغاية خلال الخمسين سنة التي أعقبت وفاته، وكان من أبرز هؤلاء الأَخوان مصطفى وعلي عبد الرازق (ومعهما طه حسين) طليعة تيار الشباب الأزهري الذي تشرب حرية الفكر والنزوع العقلاني، والرغبة المحمومة في الإصلاح. واستطاع هؤلاء النابهين استخلاص الدروس القيمة المستفادة من تراث الإمام الشيخ محمد عبده وبلورتها في عدد من الأفكار؛ منها رفض التقليد الأعمى، ورفض غلق باب الاجتهاد، وضرورة تنقية مصادر التثقيف والتعليم الديني وضرورة إصلاح الفكر الديني وتجديد خطابه وتطوير اللغة العربية وتجديد أساليبها، والاهتمام الشديد بالعقل الإنساني ودوره الفعال والجوهري في بناء الشخصية الإنسانية.. إلخ

وبعد ذلك بجيل أو اثنين، كان هناك أسماء ممتازة حصلت على درجاتها العلمية في الدراسات الإسلامية المتخصصة من فرنسا وألمانيا وغيرهما، واحتكوا احتكاكا قويا بالمدارس والمناهج الحديثة وقدموا أعمالًا رائعة سواء في مجال الفكر الإسلامي البحت أو في مجمل قضايا التنوير والنهضة.. مثالًا؛ محمد عبد اللـه دراز، محمد يوسف موسى، علي حسن عبد القادر، محمد البهي، الشيخ عبد الوهاب النجار، الشيخ

الدكتور عبد المتعال الصعيدي... وآخرون. أما آخر موجة في هذه الحر ، فربما كان يمثلها الدكتور محمود حمدي زقزوق وزير الأوقاف الأس ، وهو رجل فكر رائع وأستاذ جليل من أساتذة الفلسفة الإسلامية الكـ ، (وللأسف، فإن هذا التيار قد تم وأده بعد الخمسينيات والستينيات، وذوت هذه الشعلة الخاطفة إلى حين)..

(٥)

إذا كان الفضل يرجع إلى الطهطاوي في بعث فكرة الوطنية المصرية، وإذا كان قد تطرق إلى فكرة المواطنة كأساس للمساواة. فإن محمد عبده يمضي في هذا الطريق شوطًا أبعد. إذ بدأت الثورة على التدخل الأوروبي وطغيان الخديوي بتكوين الحزب الوطني المصري الذي شارك الشيخ محمد عبده في إنشائه. ويكون الأستاذ الإمام هو الذي يضع نص المادة الخامسة من برنامج الحزب الوطني، فيثبت فيها هذا النص المهم:

«الحزب الوطني حزب سياسي.. (غير طائفي) فإنه مؤلَّف من رجال مختلفي العقيدة والمذهب وجميع النصارى واليهود، وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم لغتها منضم إليه، لأنه لا ينظر إلى اختلاف المعتقدات ويعلم أن الجميع إخوان وأن حقوقهم في السياسة والشرائع متساوية، وهذا مُسَلَّم به عند أخص مشايخ الأزهر الذين يعضدون هذا الحزب ويعتقدون أن الشريعة (الإسلامية) الحقة تَنْهى عن البغضاء وتعتبر الناس في المعاملة سواءً».

ويعلق الدكتور محمد عمارة في كتابه عن الإمام محمد عبده على

، ه ، الإمام من قضية الوحدة الوطنية، فيقول إن ذلك الموقف لم ،. مجرد «موقف سياسي»، و«إنما كان موقفًا فكريًّا إسلاميًّا مؤسسًا ،، ما ذهب إليه الإسلام من وحدة الدين الإلهي، المقتضية إخاء أتباع ، انع السماوية الذين اقتضت حكمة الله ومشيئته التكوينية أن ،ها ا أممًا متعددة.. فالاختلاف والتعدد والتنوع في الشرائع، بين أمم ". ..الات السماوية، هو إرادة كونية لله، وعندما ينظر إليه ويوضع ،، الإطار الذي عيَّنه الإسلام وهو «وحدة الدين.. وتعدد الشرائع»، ،إن الوحدة القومية والوطنية للأمة تصبح كما أصبحت عند الأستاذ الإمام، مؤسسة على الدين وليست مجرد موقف سياسي».

وبهذا الفهم المستنير لقضية الوحدة الوطنية تقدم الحزب الوطني .. نامجه إلى الشعب على نحو ما سبق، فالتف الشعب حول هذا البرنامج. وسنذكر أن الحزب الوطني ـ بجناحيه المدني والعسكري ـ هو الذي قاد الثورة (العرابية) ضد التدخل الأجنبي وضد طغيان الخديو التركي.

وقد اختبرت تلك الثورة الكثير من الأفكار، فنحن نعلم مثلًا أن محمد عبده كان متأثرًا بآراء أستاذه الأفغاني عن تجديد الدولة العثمانية لإقامة الجامعة الإسلامية التي كان الأفغاني يدعو لها. وكان محمد عبده يرفض أفكار بعض «المتمدنين» «الذين يفكرون في جعل الرابطة الوطنية لأهل كل قطر بدلًا من الرابطة المِلِّيَّة الجامعة لأهل الأقطار الكثيرة»، ولكن عندما حانت لحظة الحقيقة أيام الثورة، وعندما اتضح تآمر الدولة العثمانية بهدف العودة بجنودها إلى احتلال مصر لكي تعيدها إلى تلك الرابطة المِلِّيَّة وإلى حوزة السلطان العثماني، فإن محمد عبده يقول كلامًا مختلفًا تمامًا، يعلن أنه مستعد لأن يحارب من أجل الاستقلال التام لمصر

عن هذه الدولة، وذلك على حد قوله لأن: «الأتراك (العثمانيون) ظلم وقد تركوا في بلادنا من آثار السوء ما لا تزال قلوبنا تضرب منه ضرب بال. الجرح فلسنا نريد رجعهم ولسنا نريد أن نعود إلى معرفتهم. وكفى الأتراك ما لهم من حقوق الفرمانات. ولكننا إذا علمنا بأنهم يحاولون دخول بلادنا، فإننا نتلقى هذا الخبر بشيء لا يخلو من الترحيب.. فإننا سنغتنم هذه الفرصة لكي نحقق استقلالنا التام»!

والواقع أن أفكار محمد عبده سواء في فترة الثورة العرابية أو بعد هزيمتها، كانت تؤصل لمفهوم الدولة المدنية العصرية التي تحقق لكل مواطنيها المساواة والأمن والحرية. وقد رأينا طرفًا من ذلك فيما ذكره في بيان الحزب الوطني. وسنرى فيما بعد نقده لفكرة «الحاكم-الإمام» فهو ينفي نفيًا قاطعًا بناء على فهمه لصحيح الدين أن تكون «في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير» والحاكم في هذا المجتمع سواء كان اسمه سلطانًا أو خليفة هو حاكم مدني من جميع الوجوه، «واختياره وعزله أمران خاضعان لرأي البشر لا حق يتمتع به هذا الحاكم بحكم الإيمان».

ويقول محمد عبده بوضوح قاطع: «أصل من أصول الإسلام قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها، هدم الإسلام بناء تلك السلطة، ومحا أثرها، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم، لم يدع الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطانًا على عقيدة أحد، ولا سيطرة على إيمانه. على أن الرسول - عليه السلام - كان مُبلِّغًا ومُذَكِّرًا، لا مُهيمنًا ولا مسيطرًا.. وليس لمسلم مهما علا كعبه، في الإسلام، على آخرَ، مهما انحطت منزلته فيه، إلا حق النصيحة والإرشاد.. فليس في

t.me/qurssan

الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه.. ولم
،م ف المسلمون في عصر من الأعصر تلك السلطة الدينية التي كانت
الـابا عند الأمم المسيحية».

وسواء أكان محمد عبده قد أعلن تلك المفاهيم أثناء الثورة العرابية أم
،مدها، فإن تلك الثورة كانت في حقيقة الأمر إعلانًا باحتضان الشعب
،أكمله لمفاهيم وقيم جديدة في السياسة والحكم؛ أي لثقافة جديدة
للمجتمع، فقد تبنى الشعب مفاهيم الاستقلال عن أوروبا والدولة
العثمانية معًا، والمساواة بين أبنائه في الحقوق والواجبات بصرف النظر
من عقيدتهم الدينية، والحكم الديمقراطي (النيابي) الذي يقيد سلطة
الحاكم ويقنن هذه الحقوق والواجبات، بل وحارب الشعب حربًا
فعلية من أجل تجسيد هذه القيم التي لم يكن قد سمع بها أصلًا قبل
عشرات قليلة من السنين.

 t.me/qurssan

الإمام المصلح المجدد محمد عبده

t.me/qurssan

١٥

فلمَّا كان العام ١٩١٩..
خرج المصريون يهتفون:
«سعد.. سعد.. يحيا سعد»

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١)

مرت مائة عام على ثورة ١٩١٩، وقيمة ثورة ١٩١٩ عندي ليست فقط فيما ازدحمت به من وقائع وأحداث وشخوص وزعامات لأهم وأكبر بل أعظم ثوراتنا الشعبية الكبرى في القرن العشرين؛ إنها بالأساس فيما أحدثته من آثار ممتدة بطيئة في تكوين المصريين على اختلاف طوائفهم وتبايناتهم الاجتماعية والثقافية.. الكم الهائل (أكرر الهائل) الذي وصلنا بالعربية فقط من الكتب والمذكرات السياسية والمراسلات والخطابات المتبادلة بين زعماء الثورة وما تمت كتابته بمعرفة مؤرخين هواة ومحترفين كلها ترسم بانوراما هائلة جدارية ضخمة جدًّا لحراك مذهل لم تشهد مصر له مثيلًا من قبل.. ما زلت على قناعتي بأن ما كانت ثورة ١٩١٩ سببًا في إنتاجه فكريًّا وفنيًّا وثقافيًّا هو ما يمثل النواة الصلبة بل الكتلة الصلبة التي نتغنى بها ونتباكى عليها مما يطلق عليه البعض «القوة الناعمة المصرية».

t.me/qurssan

(٢)

مرت مائة عام بالتمام والكمال على اندلاع الثورة الشعبية الأكبر والأعظم في تاريخ مصر الحديث، الثورة التي اندلعت شرارتها في التاسعة و١٥ دقيقة من صباح يوم ٩ مارس ١٩١٩، بعد ثلاث ساعات من إلقاء الإنجليز القبض على سعد زغلول ورفقائه، واقتيادهم «مخفورين» (مقيدين) من بيت الأمة إلى حيث تم نفيهم مباشرة إلى جزيرة مالطا.

خرج المصريون يومها بعشرات الآلاف، بل مئات الآلاف، يهتفون من أعماقهم:

«سعد.. سعد.. يحيا سعد»، «تسقط الحماية.. يسقط الاحتلال الإنجليزي»، «يحيا الهلال مع الصليب»، «بلادي بلادي»، «مصر جنة طول ما فيها أنت يا نيل»..

وخرجت النساء، ولأول مرة في التاريخ المصري الحديث، ببراقعهن وخُمرهن يهتفن بأصواتهن الحادة الرفيعة:

«يوم ما سعدي راح هدر قدام عينيك..

قوم يا مصري مصر دايمًا بتناديك..

خد بنصري نصري دين واجب عليك..».

قبل هذا التاريخ بستة أيام، تحديدًا في الثالث من مارس ١٩١٩، كتب سعد زغلول وزملاؤه عريضة عنيفة اللهجة إلى السلطان أحمد فؤاد، اعتبرها الإنجليز تهديدًا لسلطان ولّوه عرش البلاد في ظل حمايتهم،

t.me/qurssan

، أرسل الجنرال «ويلسون» (Welson) قائد القوات البريطانية إنذارًا إلى الوفد بعدها بثلاثة أيام، بألَّا يضعوا مسألة الحماية محل مناقشة، ، ألا يقيموا العقبات أمام الحكومة المصرية تحت الحماية، أو السعي لمنع تشكيل وزارة جديدة، وهددهم بموجب الأحكام العرفية القائمة.

وكان هذا الإنذار هو بداية اشتعال الثورة، إذْ لم تنقضِ إلا ساعات قليلة على توجيهه، حتى أبرق الوفد إلى رئيس وزراء بريطانيا بطلب الاستقلال التام وعدم مشروعية الحماية، فتم اعتقال أعضائه يوم الثامن من مارس، وصدر قرار بنفيهم إلى جزيرة مالطا.

وما لبثت حتى اندلعت شرارة الثورة صبيحة اليوم التالي (الأحد ٩ مارس ١٩١٩)، بدأت في مدرسة الحقوق، وانضم إليها طلبة المهندسخانة والزراعة والطب والتجارة العليا ومدرسة القضاء الشرعي والأزهر، خرجوا يهتفون بالحرية والاستقلال، واشتبكوا مع قوات الاحتلال، وقُبض على (٣٠٠) منهم، ألقاهم الحكمدار البريطاني في السجن، منهم طالب الطب محمود الحفني، الذي كتب في سجنه كلمات أغنية موجهة إلى العم حمزة، ويبدو أنه أحد حراس السجن الذي لم يُخف تعاطفه معهم، إنها الأغنية الشهيرة التي تقول:

«يا عم حمزة
إحنا التلامذة
واخدين ع العيش الحاف
والنوم من غير لحاف

 t.me/qurssan

مستعدين

ناس وطنيين

ودايما صاحيين

إحنا التلامذة..».

وفي اليوم الثالث، سقط أول الشهداء وهو محمد عزت بيومي، الطالب بمدرسة المنصورة الثانوية، في مصادمات الطلبة مع الجنود البريطانيين قرب كوبري شبرا. وفي اليوم نفسه (٩ مارس)، ثارت مدينة زفتى، وتآلفت فيها لجنة للثورة، أعلنت الاستقلال، ورفعت العلم الوطني مكان العلم البريطاني، وأقامت نظامَ حكم ثوري خاص بها، عرف باسم «جمهورية زفتى»، وأصدرت جريدة «الجمهور»، وحدث الأمر نفسه تاليًا في المطرية وفارسكور والمنيا.

(٣)

مائة عام بالتمام والكمال، تغير فيها وجه مصر مرات ومرات، وشهدت تحولات عاصفة وأحداثًا سجلها التاريخ بمداده الذي لا يبلى، قرن بالتمام والكمال على الحدث «الشعبي» الأعظم الذي شهدته منطقتنا العربية والإسلامية، بل الشرق الأوسط كله دون خلاف (أو هكذا أتصور!).

t.me/qurssan

لم نكن ثورة ١٩١٩ إعلانًا عن لحظة فارقة في تاريخنا الحديث فقط، لم نكن - فقط - ميلادًا لحركة ثقافية شاملة ما زلنا حتى اللحظة نقتات ءابها ونتزوَّد منها ونتمسك بها بل نستقطرها استقطارًا، ونحاول أن ،.د أواصر الاتصال والتنامي بين أجيال تحاول أن تستشرف لها موقعًا ، سط عالم ضبابي ملتبس، وبين فترة زاهية خالصة للفن والأدب والثقافة ، الفكر والتاريخ!

إنها الحدث الذي أثمر ميلادَ ما نُطلق عليه بقوة ورسوخ وثقة «القوة الناعمة المصرية». نعم، شهدت الفترة منذ سنة ١٩١٩ وحتى ١٩٥٢ ،، جة نهضوية عارمة، ثقافة، فكرًا، سياسة، اجتماعًا، فنونًا، موسيقى، مهارة، منشآت كبيرة.. أشعار بديع خيري في ثورة ١٩١٩، وأعمال شهدي عطية الشافعي التي مهدت لانتفاضة ١٩٤٦، وكتابات محمد مندور التي سبقت ثورة يوليو ١٩٥٢، ناهينا عن منحوتات مختار، وأغاني سيد درويش، وأشعار صلاح جاهين وأمل دنقل، وأغاني عبد الحليم حافظ التي واكبت ثورة يوليو.

نهضة لم نشهد لها مثيلًا منذ عبرنا بوابات التاريخ الحديث مع قدوم الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ (أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل على خلاف بين المؤرخين!).

ما يقرب من ثلاثة عقود كاملة ازدهرت فيها الآداب والفنون والتيارات الفكرية، ونما الإنتاج الثقافي المصري الحقيقي، بصورة ليس لها مثيل، وأكرر ليس لها مثيل (ربما شهدت الخمسينيات والستينيات حركة مماثلة، لكنها لم تكن في الحقيقة إلا امتدادًا لهذه الحركة الزاهرة والباهرة، وكان أبناؤها هم شيوخ الستينيات وآباؤها الملهمون).

 t.me/qurssan

إنها الثورة التي كشفت لتوفيق الحكيم عن معجزة مصر الكبرى، الحقيقية والخالدة، وكان انفعاله بها من التأثر والعمق للحدّ الذي جعله يبدع روايته الرائدة العظيمة «عودة الروح»، التي يقول عنها:

«لقد انكشفت لعيني وقلبي معجزة مصر عام ١٩١٩، ورأيت الثورة في كل مراحلها، تسفر عن روح خفيَّة باقية أبد الدهر، نابضة، تسعف مصر بين حين وحين. ظل هذا الشعور يلاحقني حتى سجَّلته في «عودة الروح»، فالمعروف أن الثورات لا ينطبع أثرها إلا على قلب جديد ملتهب، ولا يملك مثل هذا القلب إلا الشباب في فورة شبابهم، لهذا كان «سيد درويش» - ابن الثورة - هو قلبها الجديد الملتهب الذي تأثر بها، وأخرج فنًّا قاد به الموسيقى الشرقية إلى أفق جديد. وهذا كان شعوري الخاص يوم كتبت في العشرينيات أي بعد قيام ثورة ١٩١٩ بنحو سَبْع سنوات رواية «عودة الرُّوح» أي رُوح مصر.. لم يكن قصدي تأليف رواية.. بل إقناع نفسي بأني أنتمي إلى بلد له كيان محدد مستقل، وتاريخ طويل نمنا فيه وآن لنا أن نستيقظ وتعود إلينا الرُّوح التي اختفت عنَّا وعن الآخرين تحت تراب الزمن».

(٤)

لم تكن مجرد ثورة، ولا هبة، ولا شعارات، ولا رصيدًا من الشهداء الذين دفعوا أرواحهم ودمائهم دفاعًا عن استقلال وحرية بلدهم، بل كانت بحثًا محمومًا لا يهدأ عن سرِّ الشخصية المصرية، عن جوهر الروح المصرية، عن السمات والخصائص التي حفظت لهذا الشعب

مبر العصور، وعبر التاريخ، حضوره وهويته وتجانسه وخصاله التي ما زلنا نقول عنها إنها «مصرية».

عندما انتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة الدولة العثمانية، ولم يبق لها من وضع سياسي إلا الواقع وحده وهو الاحتلال البريطاني، ذهب زعماء مصر سنة ١٩١٩ يسألون الإنجليز عن وضعهم، فسألهم الإنجليز عمّا يقصدون، فقالوا: زوال الاحتلال البريطاني.. فلما سألهم الإنجليز: وماذا بعد الاحتلال، هل تعودون إلى سيادة الدولة العثمانية المنهزمة؟ فقالوا: لا، بل تعود مصر إلى مصر.. فدُهِش الإنجليز وسألوا: وما هي مصر؟! إننا لا نعرف شيئًا اسمه مصر، ولكن فقط مجرد قطر اسمه «القطر المصري»، كما هو موجود على الخرائط الرسمية، يتبع سياسيًا الدولة العثمانية، وحضاريًا «الحضارة العربية» حسب اللغة والدين.

أما مصر، فأين هي؟ وما مُقَوِّماتها؟ وما شخصيتها؟ وكانت الإجابة عسيرة.. لكنها لم تكن أبدًا مستحيلة!

عندئذ قام رجال الفكر والفن والاقتصاد يجيبون عن السؤال، ويبحثون عن «مصر» التي نعرفها ونذوب عشقًا في هواها، قام طلعت حرب بإنشاء «بنك مصر»، ونهض رجال الأدب والفن يصورون «مصر» ويعبِّرون عنه، كلٌّ في مجاله وحقل إبداعه، خرج سيد درويش بألحانه الخالدة، وخرج محمود مختار بروائعه المنحوتة، ويشمخ تمثال نهضة مصر من بين أعماله شاهدًا ودليلًا، ويظهر توفيق الحكيم، ويحيى حقي، ونجيب محفوظ ليكتبوا أدبًا خالدًا ينضم إلى نظائره بين آداب الأمم الكبرى.. ظهرت لوحات محمود سعيد والأمير يوسف كمال والأخوان وانلي وظهرت للنور أول مدرسة فن مصرية حقيقية تضارع وتنافس

كبريات الأعمال واللوحات الفنية في القرن العشرين!

كل ذلك ليجيبوا عن سؤال الإنجليز ويقولوا لهم: ها هي ذي «مصر» التي نريد لها الاستقلال بأرضها، فالبحث إذن في العشرينيات عن «شخصية مصر»، و«رُوح مصر»، لم يكن المقصود به كما حدث أخيرًا مجرد موضوع يستهدف الدراسة والكتابة والتأليف.. بل كان في أعقاب ثورة ١٩١٩ أمرًا حيويًّا خارجًا من ضرورة مُلِحَّة، من صميم كياننا، وهو إقناع مَن ينكر علينا وجودنا وحقنا في هذا الوجود.

(٥)

في واحدة من «حكايات حارتنا»، العمل الفذ «المنسي» لنجيب محفوظ، يرسم كبيرنا الذي علَّمنا الرواية صورةً مكثَّفة شديدة التكثيف للحظة اندلاع الثورة، الثورة الشعبية الكبرى «١٩١٩»، سأنقل الحكاية بنصِّها؛ لأنها هي بذاتها «وثيقة إبداعية» خالصة، وتوثيق فني ليس له نظير للحظة اندلاع الثورة...

الحكاية رقم «١٢»

ماذا يحدث للدنيا؟

يجتاحها طوفان، يقلقلها زلزال، تشتعل بأطرافها النيران، تتفجر بحناجرها الهتافات...

t.me/qurssan

الميدان يكتظُّ بالآلاف، لم يقعْ ذلك من قبل، هديرهم يرجُّ جدران حارتنا ويصم الآذان، إنهم يصرخون، وبقبضات أيديهم يهددون، وحتى النساء يركبن طوابير الكارو ويشاركن في الجنون...

وأحملق فيها يجري من فوق سور السطح وأتساءل عمّا يحدث للدنيا...

وتتلاطم الأحاديث مشحونة بكهرباء الوجدان، وينهمر سيل من الألفاظ الجديدة السحرية، سعد زغلول، مالطا، السلطان، الهلال والصليب، الوطن، الموت الزؤام...

الأعلام ترفرف فوق الدكاكين، صور سعد زغلول تلصق بالجدران، إمام المسجد يظهر في شرفة المئذنة ويهتف ويخطب.

وأقول لنفسي إن ما حدث غريب ولكنه مثير ومسلٍ شديد البهجة.

غير أنني أشهد مطاردة.

يندفع أناس داخل حارتنا، يرمون بالطوب، يتحصّنون بالأركان.

يقتحم الحارة الفرسان بقبعاتهم العالية وشواربهم الغليظة، تنطلق أصوات حادة مخيفة تعقبها صرخات، أُنزع من مكان المراقبة إلى الداخل فتطالعني وجوه مذعورة وهمسات تقول:

ـ إنه الموت!

نرهف السمع وراء النوافذ المغلقة، لا شيء إلا أصوات متضاربة، وقع أقدام، صهيل خيل، أزيز رصاص، صرخة موجعة، هتاف غاضب.

يتواصل ذلك دقائق في الحارة ثم يسود الصمت.

ويتردد الهدير ولكن ـ هذه المرة ـ من بعيد.. ثم يسود صمت مطلق.

وأقول لنفسي إن ما يحدث غريب ومزعج ومخيف.

وأعرف بعض الشيء معاني الألفاظ الجديدة، سعد زغلول، مالطا، السلطان، الوطن، وأعرف بوضوح أكثر الفرسان البريطانيين والرصاص والموت.

تزورنا أم عبده في غاية من الانفعال، تحكي حكاياتٍ عن الضحايا والأبطال، وتنعى إلينا علوة صبي الفرَّان، وتؤكد أن جياد الفرسان حرنت أمام سور التكية وألقت الفرسان عن متنها...

وأقول لنفسي إن ما يحدث حلم مثير لا يُصدَّق.

t.me/qurssan

الوفد المصري

الزعيم سعد زغلول

ثورة ١٩١٩

t.me/qurssan

t.me/qurssan

المصادر والمراجع

ـ ابن إياس (محمد بن أحمد): «بدائع الزهور في وقائع الدهور» (٥ أجزاء في ستة مجلدات)، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.

أحمد أمين:

«زعماء الإصلاح في العصر الحديث»، مكتبة الأسرة (الأعمال الفكرية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨.

ـ أحمد زكريا الشلق (المؤرخ):

- «إمبرياليون ومستشرقون»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٨.
- «الحداثة والإمبريالية ـ الغزو الفرنسي وإشكالية نهضة مصر»، سلسلة التاريخ الجانب الآخر (إعادة قراءة للتاريخ المصري)، دار الشروق، ٢٠٠٦.
- «تطور مصر الحديث: فصول في التاريخ السياسي والاجتماعي»، إصدارات خاصة، الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة، ٢٠٠٣.
- «رؤية في تحديث الفكر المصري»، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٨.

ـ أحمد عبد الرحيم مصطفى: «شخصيات مصرية»، كتاب الهلال، دار الهلال، ١٩٩٠.

ـ أحمد عبد المعطي حجازي: «نعم لفولتير لا لبونابرت»، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥.

ـ أحمد عزت عبد الكريم (المؤرخ):

- «تاريخ التعليم في عصر محمد علي»، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٠.
- «عبد الرحمن الجبرتي: دراسات وبحوث» (إعداد وتحرير)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦.

t.me/qurssan

- أنور عبد الملك:
- «دراسات في الثقافة الوطنية»، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١.
- «الشارع المصري والفكر»، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١.
- «المجتمع المصري والجيش»، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣.
- «نهضة مصر» (تكوين الفكر والأيديولوجيا في نهضة مصر الوطنية ١٨٠٥ - ١٨٩٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١.

- بهاء طاهر: «أبناء رفاعة - الثقافة والحرية»، دار الشروق، ٢٠١٦.
- بيتر جران:
- «الجذور الإسلامية للرأسمالية مصر ١٧٦٠ - ١٨٤٠»، ترجمة محروس سليمان، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ١٩٩٣.
- «ما بعد المركزية الأوروبية: نظرة جديدة في تاريخ العالم الحديث»، ترجمة رؤوف عباس، المركز القومي للترجمة، القاهرة،

- توفيق الحكيم: «عودة الروح» (رواية)، مكتبة مصر، د.ت.
- تيموثي ميتشل:
- «استعمار مصر»، ترجمة بشير السباعي وأحمد حسان، سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.
- «حكم الخبراء.. مصر، التكنو - سياسة، الحداثة»، ترجمة بشير السباعي وشريف يونس، المركز القومي للترجمة، القاهرة،
- «مدرسة دراسات التابع ومسألة الحداثة» ترجمة بشير السباعي، مجلة ألف، العدد ١٨، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ١٩٩٨.

- جابر عصفور:
- «للتنوير والدولة المدنية»، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠١٤.
- «من أعلام التنوير»، مكتبة الأسرة، الأعمال الفكرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.

• «هوامش على دفتر التنوير»، دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩١.
ـ جمال الدين الأفغاني: الأعمال الكاملة (٤ مجلدات) تحقيق وتقديم ودراسة محمد عمارة، دار السلام، القاهرة، ٢٠١٦.
ـ جمال الدين الشيال (المؤرخ):
• «تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي»، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥١.
• «حلية الزمن بمناقب خادم الوطن» (سيرة رفاعة رافع الطهطاوي) للسيد صالح مجدي بك، تحقيق وتقديم، سلسلة تراث النهضة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥.
• «رفاعة رافع الطهطاوي ١٨٠١ ـ ١٨٧٣»، نوابغ الفكر العربي، الكتاب رقم ٢٤، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
ـ جمال حمدان:
• «استراتيجية الاستعمار والتحرير»، المكتبة الثقافية، القاهرة، ١٩٦٢.
• «شخصية مصر» (الوجيز)، مكتبة الأسرة (الأعمال الفكرية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥.
• «شخصية مصر» (الوسيط)، مكتبة الأسرة (الاعمال الفكرية)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥.
• «شخصية مصر» (الكبير، ٤ مجلدات)، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠١٥.
ـ جمال الغيطاني:
• «قاهريات مملوكية»، سلسلة (اقرأ)، الكتاب ٦٠٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٥.
• «ملامح القاهرة في ألف سنة»، دار نهضة مصر، الطبعة الحادية عشرة، القاهرة، يناير ٢٠١٥.
• «نزول النقطة، الاستمرارية والتغير في مصر»، كتاب اليوم، العدد ٥٢٤، مايو ٢٠٠٩، القاهرة، مؤسسة أخبار اليوم.

 t.me/qurssan

جورجي زيدان:
تاريخ مصر الحديث (من الفتح الإسلامي إلى الآن)، الجزء الثاني، سلسلة صفحات من تاريخ مصر (الكتاب رقم ١١)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩
- حسين فوزي: «سندباد مصري.. جولات في رحاب التاريخ»، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٤.
- حسين فوزي النجار: «رفاعة الطهطاوي رائد فكر وإمام نهضة»، أعلام العرب، القاهرة، ١٩٦٥.
- حسين مؤنس: «مصر ورسالتها»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧.
- حمدي السكوت: «قاموس الأدب العربي الحديث» (إشراف وتحرير)، الطبعة الثانية مزيدة ومحدَّثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥.
- خالد زيادة (المؤرخ):
- «اكتشاف التقدم الأوروبي - دراسة في المؤثرات الأوروبية على العثمانيين في القرن الثامن عشر»، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١.
- «تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا»، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠١٥.
- «المسلمون والحداثة الأوروبية»، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١١.
- خالد فهمي: «كل رجال الباشا - محمد علي وجيشه وبناء مصر الحديثة»، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٠.
- رفاعة رافع الطهطاوي:
- الأعمال الكاملة (٥ مجلدات)، تحقيق وتقديم ودراسة محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٥.
- «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، تقديم الدكتور يونان لبيب رزق، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٥.
- «ديوان رفاعة الطهطاوي»، جمع ودراسة الدكتور طه وادي، دار المعارف، ١٩٨٤.
- «المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين»، سلسلة في الفكر النهضوي

t.me/qurssan

الإسلامي، تقديم منى أحمد أبو زيد، مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٢.
- «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية»، سلسلة في الفكر النهضوي الإسلامي، تقديم عرفة عبده علي، مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٢.
- «مواقع الأفلاك في مغامرات تليماك»، تقديم الدكتور صلاح فضل، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٥.
- «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز»، تقديم سامي سليمان أحمد ٢٠٠٥.

ـ رفعت السعيد:
بناة مصر الحديثة (جزءان)، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٧.

ـ رؤوف عباس (المؤرخ):
- «إصلاح أم تحديث؟ مصر في عصر محمد علي» (تحرير وتقديم)، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، ٢٠٠٠.
- «تحديث مصر.. تجربة القرن التاسع عشر»، ضمن ملف (الأصول التاريخية للمشروع الحضاري العربي)، بحث منشور في مجلة (المنار)، العدد ٣٣، د.ت.
- «تطور الفكر العربي الحديث»، موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية (التاريخ الحديث)، طبعة إلكترونية، متاحة على موقع المرحوم الدكتور رؤوف عباس.

ـ روبير سوليه:
- «علماء بونابرت في مصر»، ترجمة فاطمة عبد الله محمود، مراجعة وتقديم د. محمود ماهر طه، تصدير أنيس منصور، سلسلة «مصريات»، الكتاب رقم [٨]، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.
- «قاموس عاشق لمصر»، ترجمة عادل أسعد الميري، الكتاب ١٨٠٠، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١١.
- «مصر ولع فرنسي»، ترجمة لطيف فرج، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩.

- زهير الشايب (مترجم):
- «تطور مصر ١٩٢٤ - ١٩٥٠»، مارسيل كولومب، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت.
- «فصول في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للقاهرة»، أندريه ريمون، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت.
- موسوعة «وصف مصر» (الأجزاء العشرة الأولى)، مكتبة مدبولي، ودار الشايب للنشر، القاهرة، ١٩٨٤ - ١٩٩١.
- موسوعة «وصف مصر» (الترجمة الكاملة، ٣٥ مجلدًا)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٩.

- زينب أبو المجد: «إمبراطوريات متخيلة - تاريخ الثورة في صعيد مصر»، ترجمة أحمد عثمان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٧.

- سامي خشبة:
- «تحديث مصر»، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣.
- «مفكرون من عصرنا»، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨.
- «نقد الثقافة»، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١.

- صلاح عبد الصبور:
- الأعمال الكاملة، الجزء الثامن (أقول لكم عن الأدب)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢.
- الأعمال الكاملة، الجزء الحادي عشر (الأوراق السياسية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢.
- «قصة الضمير المصري في العصر الحديث»، مكتبة الأسرة ٢٠٠٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣.

- صلاح عيسى:
- «تباريح جريح»، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٨.

t.me/qurssan

- «حكايات من دفتر الوطن» (جزءان في مجلد واحد)، مكتبة الأسرة (الأعمال الخاصة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥.
- «رجال من مرج دابق ـ قصة الفتح العثماني لمصر والشام»، مكتبة الأسرة (الأعمال الفكرية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤.
- «هوامش المقريزي» (حكايات من مصر)، طبعة دار الكرمة الأولى، القاهرة، ٢٠١٩.

ـ طارق البشري (المؤرخ):

«محمد علي ونظام حكمه»، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٨.

ـ عبد الرحمن الجبرتي (المؤرخ):

- «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، تحقيق وشرح الأساتذة حسن محمد جوهر، وعمر الدسوقي، السيد إبراهيم سالم، دراسة وتقديم الدكتور أحمد زكريا الشلق، سلسلة (تراث النهضة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥.
- «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس»، تحقيق وشرح الأساتذة حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي، دراسة وتقديم الدكتور أحمد زكريا الشلق، سلسلة (تراث النهضة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥.

ـ عبد الرحمن الرافعي (المؤرخ):

- «تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر» (جزءان)، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- «عصر محمد علي»، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٦.
- «عصر إسماعيل» (جزءان)، القاهرة، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٦.
- «ثورة ١٩١٩»، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

ـ عثمان أمين:

- «رواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي»، المكتبة الثقافية، دار القلم، ١٩٦٤.
- «محمد عبده رائد الفكر المصري الحديث»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥.

 t.me/qurssan

ـ عبد الله عزباوي (المؤرخ):
«الفكر المصري في القرن الثامن عشر بين الجمود والتجديد»، سلسلة التاريخ الجانب الآخر (إعادة قراءة للتاريخ المصري)، دار الشروق، ٢٠٠٦.
عبد الخالق لاشين (المؤرخ):
- «سعد زغلول ودوره في السياسة المصرية حتى ١٩١٤»، دار المعارف، القاهرة. د.ت.
- «سعد زغلول وثورة ١٩١٩»، سلسلة ذاكرة الكتابة، العدد ٢١١، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٩.

ـ عبد العظيم رمضان (المؤرخ):
«تطور الحركة الوطنية في مصر (١٩١٨ ـ ١٩٣٦)»، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨.
ـ عبد الوهاب بكر:
«الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر»، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢.
ـ عماد أبو غازي (المؤرخ):
- «الجذور التاريخية لأزمة النهضة في مصر»، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٠.
- «١٥١٧ الاحتلال العثماني لمصر وسقوط دولة المماليك»، دار ميريت، القاهرة، ٢٠١٩.
- «طومان باي السلطان الشهيد»، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ١٩٩٩.

ـ عمر طوسون (الأمير):
- «البعثات العلمية في عهد محمد علي»، الطبعة الأولى لـ دار أقلام عربية، القاهر، ٢٠١٨/ ٢٠١٩.
- «التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير»، القاهرة، دار المعارف، د.ت.

ـ غالي شكري:
- «الثورة المضادة في مصر»، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١١.

• «مذكرات ثقافة تحتضر»، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥.
• «النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث»، الطبعة الرابعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢.

ـ لطيفة محمد سالم (المؤرخة):

«الحكم المصري في الشام، ١٨٣١ ـ ١٨٤١»، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٠.

ـ ليلى عبد اللطيف أحمد (المؤرخة):

«الصعيد في عهد شيخ العرب همام»، المكتبة العربية، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧.

ـ ليلى عنان:

• «الحملة الفرنسية بين الأسطور والحقيقة»، كتاب الهلال، العدد ٥٠٠، دار الهلال، أغسطس ١٩٩٢.
• «الحملة الفرنسية تزوير أم تنوير؟» (الجزء الأول)، كتاب الهلال، ١٩٩٨.
• «الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ» (الجزء الثاني)، كتاب الهلال، ١٩٩٨.

ـ لويس عوض:

• «تاريخ الفكر المصري الحديث» (من الحملة الفرنسية إلى عصر إسماعيل)، الخلفية التاريخية/ وفي الفكر السياسي والاجتماعي، مكتبة مدبولي، الطبعة الرابعة ١٩٨٧، القاهرة.
• «تاريخ الفكر المصري الحديث» (من عصر إسماعيل إلى ثورة ١٩١٩) ج١ (المبحث الأول: الخلفية التاريخية/ الجزء الأول)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠.
• «تاريخ الفكر المصري الحديث» (من عصر إسماعيل إلى ثورة ١٩١٩) ج٢ (المبحث الأول: الخلفية التاريخية/ الجزء الثاني)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.
• «تاريخ الفكر المصري الحديث» (من عصر إسماعيل إلى ثورة ١٩١٩) ج٣ (المبحث الثاني: الفكر السياسي والاجتماعي؛ الجزء الأول)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٦.

• «دراسات أدبية»، دار المستقبل العربي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٩
• «دراسات في الحضارة»، دار المستقبل العربي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٩.

ـ محمد بدوي:
• «الرواية الحديثة في مصر ـ دراسة في التشكيل والأيديولوجيا»، سلسله (دراسات أدبية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.
• «لعب الكتابة ـ لعب السياسة»، الطبعة الأولى، دار ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٣
• «ملاحظات حول الفكر والأيديولوجيا في مصر الحديثة»، بحث منشور في مجلة (الاجتهاد)، ع(١٠ ـ ١١)، السنة الثالثة، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

ـ محمد البهي:
• «الأزهر تاريخه وتطوره»، وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر، القاهرة، ١٩٦٤.
• «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي»، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٣.

ـ محمد رشيد رضا:
«تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده» (ثلاثة أجزاء)، سلسلة تراث النهضة، تقديم ودراسة أحمد زكريا الشلق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،

ـ محمد عبد الغني حسن:
«حسن العطار»، سلسلة نوابغ الفكر العربي، الكتاب رقم ٤٠، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.

ـ محمد عفيفي (المؤرخ):
• «تاريخ آخر لمصر ـ نوافذ جديدة»، الطبعة الأولى، دار بتانة للنشر، القاهرة، ٢٠١٩.
• «عرب وعثمانيون ـ رؤى مغايرة»، سلسلة التاريخ الجانب الآخر (إعادة قراءة للتاريخ المصري)، دار الشروق، ٢٠٠٦.

ـ محمد عمارة:
• الأعمال الكاملة لـ رفاعة رافع الطهطاوي (٨ مجلدات)، دار الشروق

t.me/qurssan

(طبعة خاصة لمكتبة الأسرة المصرية)، القاهرة، ٢٠١٠.
- الأعمال الكاملة لـ جمال الدين الأفغاني (٤ مجلدات)، دار السلام للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٦.
- الأعمال الكاملة لـ محمد عبده (٥ مجلدات)، دار الشروق (طبعة خاصة لمكتبة الأسرة المصرية)، ٢٠٠٨/ ٢٠٠٩.
- الأعمال الكاملة لـ عبد الرحمن الكواكبي (مجلد واحد)، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٨.

ـ محمود فهمي حجازي:
«أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي»، دار غريب، القاهرة، د.ت.

ـ ميلاد حنا:
- «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية»، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٧.
- «خصوصية مصر»، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦.

ـ ناصر إبراهيم (المؤرخ):
«مائتا عام على الحملة الفرنسية (رؤية مصرية)»، تحرير: ناصر أحمد إبراهيم، وإشراف: رؤوف عباس، الدار المصرية اللبنانية.

نجيب محفوظ (كاتب وروائي):
- مصر القديمة (كتاب مترجم)، جيمس بيكي، ترجمة نجيب محفوظ، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٦.
- عبث الأقدار (رواية)، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٦.
- رادوبيس (رواية)، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٦.
- كفاح طيبة (رواية)، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٦.

ـ نعمات أحمد فؤاد:
«شخصية مصر»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.

ـ نيللي حنا (المؤرخة):
- «بيوت القاهرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر: دراسة اجتماعية معمارية»، ترجمة حليم طوسون، دار العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣.

 t.me/qurssan

- «تجار القاهرة في العصر العثماني: سيرة أبي طاقية شهبندر التجار»، ترجمة وتقديم رؤوف عباس، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧.
- «ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية (ق١٦م-ق١٨م)»، ترجمة رؤوف عباس، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠٠٣.
- «حرفيون مستثمرون: بواكير تطور الرأسمالية في مصر»، نيللي حنا، ترجمة مجدي جرجس، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٢.
- «مصر العثمانية والتحولات العالمية (١٥٠٠-١٨٠٠)»، نيللي حنا، ترجمة مجدي جرجس، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٦

- يونان لبيب رزق (المؤرخ):

- «تاريخ مصر بين الفكر والسياسة»، سلسلة نهضة مصر، الكتاب ٧٥، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٩.
- «الجبرتي والشخصية المصرية»، في: أحمد عزت عبد الكريم (محرر)، «عبد الرحمن الجبرتي: دراسات وبحوث»، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦.
- «المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر» (تقديم ومراجعة)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٩.
- «مصر المدنية-فصول في النشأة والتطور»، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨.
- «مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر» لريمون فلاور، ترجمة سيد علي الناصري، (تقديم ومراجعة)، المشروع القومي للترجمة، الكتاب ٢١٣، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠.

الفهرس

١ - «جمهورية همّام».. أولى محاولات الاستقلال! ٣٣
٢ - «علي بك الكبير».. وما الدنيا إلا ساحة صراع كبير! ٥٣
٣ - مَوْلِد الحداثة المصرية.. ليست خالصة لك يا بونابرت! ٦٧
٤ - فلاش باك.. القرن الثامن عشر المصري! ٨٣
٥ - المجمع العلمي... وبزوغ اليقظة القومية! ٩٣
٦ - «وصف مصر».. سيرة ترجمة ومأساة مترجم! ١١١
٧ - محمد علي... الباشا يبحث عن إمبراطورية! ١٢٧
٨ - الشيخ حسن العطار.. بُزوغ التحديث! ١٤٧
٩ - رفاعة الطهطاوي.. جالب النور والحضارة ١٥٥
١٠ - الطهطاوي.. قراءة في مصادر الفكر والسيرة! ١٧١
١١ - الخديوي إسماعيل... والتحديث الثاني في النهضة المصرية ١٩٣
١٢ - قناة السويس... هدية مصر إلى البشرية ٢٠٥
١٣ - الأفغاني.. المُصْلِح الذي ظُلِمَ حَيًّا وميتًا! ٢١٩
١٤ - محمد عبده.. الإمام المصلح المجدد ٢٤٩
١٥ - فلمّا كان العام ١٩١٩.. .... ٢٦٩
المصادر والمراجع ٢٨٣

t.me/qurssan

سيرة الضمير المصري

سنوات طويلة، وأنا أحلم بكتابة أخرى لسيرة الضمير المصري؛ كتابة لا أقول إنها جديدة، ولا أقول إنها أتت بما لم يأتِ به غيرها؛ إنها رواية من روايات، وتنويعة من تنويعات، وقصيدة عشق ضمن ديوان قصائد، لا تنتهي ولن تنتهي؛ معالم من محطات وشخصيات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر؛ أفتّش عن "الفكرة" وأبحث عن مساراتها، كيف نشأت ومن أين أتت، في أي تربة غُرست وأثمرت، ما الذي جعلها تنمو وتزدهر وما الذي جعلها تذبل وتذوي وتموت!

من شيخ العرب همام عظيم بلاد الصعيد، وعلي بك الكبير، والباشا محمد علي، وحفيده الخديوي إسماعيل، إلى الشيخ المستنير حسن العطار، والجد العظيم رفاعة بك الطهطاوي (وحفيده النابه زهير الشايب)، وجمال الدين الأفغاني، والأستاذ الإمام محمد عبده، وصولًا إلى "سعد سعد.. يحيا سعد"، وأروع ثوراتنا الشعبية في القرن العشرين.

سيرة مصرية تستعين بالتاريخ لكنها ليست تاريخًا صرفًا، وتتوسل بذكرياتٍ شخصية لكنها ليست أبدًا سيرة ذاتية، تعرض الصورة لكن غايتها ألا تكون معرض صور، ترصّع السيرة بالحكاية والقصة دون أن تصبح (مجموعة قصص أو حكايات خالصة)؛ إنها في ظني شيء مختلف عن كل ذلك، وفيها من كل ذلك!

إيهاب الملاح

كاتب وناقد مصري، وباحث في التراث الثقافي، تخرج في كلية الآداب جامعة القاهرة، ويعمل حاليًا رئيسًا للقسم الثقافي بمجلة أكتوبر القومية، وكاتب رأي في جريدة الشروق المصرية. صدر له كتاب "مشاغبات مع الكتب" 2015، و"تاريخ دار المعارف - 125 عامًا من الثقافة" 2015، و"حسين نصار سبعون عامًا من العطاء" 2018، كما أعدّ وقدّم كتاب "لماذا نقرأ؟ لطائفة من المفكرين" 2017، وأخيرًا "شغف القراءة" 2019.

تصميم الغلاف كريم آدم

للنشر والتوزيع

t.me/qurssan